بيتر ستراوب - ستيفن كينج

التعويذة

الجزء الثاني - معترك الاختبارات

ترجمة: منى عبد اللطيف

سما للنشر والتوزيع

ساحر الكتب

© 2026، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، ج.م.ع.

تحذير: هذا المؤلف محمي بموجب قوانين حقوق التأليف والطبع والنشر والاتفاقيات الدولية، ولا يجوز استنساخ أي جزء منه أو تخزينه في نظام استرجاع أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة، إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير أو تسجيل أو غير ذلك دون إذن مُسبق من الناشر، وأي نسخ أو توزيع غير مُصرح به كتابيًا من الناشر لهذا المؤلف أو لجزء منه، قد ينتج عنه الملاحقة القانونية المدنية والجزائية إلى أقصى حدود القانون.

إشراف عام: نجلاء محمد رضا قاسم

اسـم الـكتـاب: التعويذة ج 2 معترك الاختبارات
اسـم المؤلـف: بيتر استوب - ستيفن كينج
اسـم المترجم : منى عبد اللطيف
النـاشـر: سما للنشر والتوزيع
إخـراج داخـلى : محمد على حنفى
الترقيـم الـدولى: 978-977-781-849-0
رقـم الإيـداع: 2026/4570

دار سما للنشر والتوزيع
15 يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة - ج.م.ع.
تليفون: 24517300 202+ / 01271919100 2+
email: samanasher@yahoo.com

الفصل السادس

جناح الملكة

1

بدت شفرات العشب المسننة أمام عيني جاك مباشرة، طويلة وصلبة كالسيوف... ستقطعها الريح، لكن لن تنحني أمامها.. تأوه جاك وهو يرفع رأسه، لم يكن يمتلك مثل هذه الكرامة.. مازالت معدته تشعر بالتهديد إثر ذلك السائل، وجبينه وعيناه يحترقان.. دفع جاك نفسه للوقوف على ركبتيه ثم أجبر نفسه على النهوض.

انطلقت عربة طويلة يجرها حصان نحوه على الطريق الترابي، وكان سائقها، رجل ملتحٍ أحمر الوجه، تقريبًا بنفس شكل وحجم البراميل الخشبية التي تهدر خلفه، أخذ يحدق به، فأومأ جاك وحاول استيعاب ما يمكنه عن الرجل، بينما بدا هو كصبي متسكع ربما هرب لأخذ استراحة غير مشروعة...

حالًا من أي وقت مضى منذ مغادرته لوس أنجلوس، ليس فقط بصحة جيدة، بل بتناغم غريب، منسجم مع جسده، ربت هواء الأراضي الدافئ السابح على وجهه بألطف وأعطر اللمسات... رائحته الرقيقة والزهرية مميزة تمامًا تحت رائحة اللحوم النيئة القوية التي تحملها العربة، مسح جاك بيديه على وجهه وألقى نظرة خاطفة على سائق العربة، أول عينة يلقاها من رجال الأراضي.

2

إذا خاطبه السائق، فكيف يُجيب؟ هل يتحدثون الإنجليزية هنا أصلًا؟ هل هي لغته الإنجليزية؟ للحظة، تخيّل جاك نفسه يحاول المرور دون أن يُلاحظه أحد في عالمٍ يقول فيه الناس «تفضل» و "هل تسلك طريقًا مُتقاطعًا أيها الوغد؟" وقرر أنه إذا كان الأمر كذلك، فسيتظاهر بأنه أبكم .

أخيرًا، أشاح السائق بنظره عن جاك، وتحدث بصوتٍ حادٍّ لا يشبه الإنجليزية الأمريكية في الثمانينيات مع خيوله، ربما كانت هذه هي الطريقة التي يُخاطب بها الخيول.. سلاش، سلاش! تراجع جاك إلى الوراء في عشب البحر، متمنيًا لو أنه تمكن من الوقوف على قدميه قبل ثانيتين، نظر إليه الرجل مرة أخرى، وفاجأ جاك بإيماءة.. لفتة ليست ودية ولا غير ودية، مجرد تواصل بين أنداد.. سأكون سعيدًا عندما ينتهي عمل هذا اليوم يا أخي.

رد جاك الإيماءة، وحاول وضع يديه في جيوبه، وللحظة بدا عليه الدهشة.. ضحك السائق، ضحكة لم تكن كريهة.

تغيرت ملابس جاك، فقد ارتدى بنطالًا صوفيًا خشنًا وواسعًا بدلًا من بنطال الجينز المخملي، غطته سترة ضيقة من قماش أزرق ناعم فوق خصره، بدلًا من الأزرار، كان السترة أو ربما الكنزة؟ كما خمّن.. مزينة بصف من الخطافات والفتحات القماشية، ومثلها البنطال، كان من الواضح أنها مصنوعة يدويًا، اختفت أحذية نايكي أيضًا، وحلت محلها صنادل جلدية مسطحة، تحولت حقيبة الظهر إلى كيس جلدي يحمله

بحزام رفيع على كتفه، كان سائق العربة يرتدي ملابس متشابهة تقريبًا.. كانت سترته الجلدية متضررة بشدة وأمتد فيها الضرر لدرجة أنها أظهرت حلقات داخل حلقات، كقلب شجرة قديمة.

وسط ضوضاء وغبار، مرّت العربة بجانب جاك، انبعثت من البراميل رائحة مسك الخميرة من البيرة، خلف البراميل، كانت هناك كومة ثلاثية مما ظنه جاك دون تفكير إطارات شاحنة، شم رائحة «الإطارات» ولاحظ أنها كانت خالية تمامًا من العيوب في نفس اللحظة، كانت رائحتها كريمية، مليئة الأعماق السرية والمتع الخفية، مما جعله يشعر بالجوع على الفور.. جبن، لكن ليس جبنًا ذاقها من قبل، خلف عجلات الجبن، بالقرب من مؤخرة العربة، وُضعت كومة غير منتظمة من اللحم النيء عبارة عن قطعيات طويلة مقشرة من لحم البقر، وشرائح لحم كبيرة تشبه الألواح، وكومة من الأعضاء الداخلية الحبلية التي لم يستطع التعرف عليها حيث انزلقت متخفية أسفل بساط لامع من الذباب.

هاجمت الرائحة القوية للحم النيء جاك، فقضت على الجوع الذي أثاره الجبن، انتقل إلى منتصف الطريق بعد أن تجاوزته العربة وشاهدها تقفز نحو قمة مرتفع صغير، وبعد ثانية بدأ في اللحاق بها، وسار نحو الشمال.

كان قد صعد نصف التل فقط عندما رأى مرة أخرى قمة الخيمة الكبيرة، جامدة في وسط صف من الأعلام الصغيرة

المرفرفة، افترض أن هذه هي وجهته.. بضع خطوات أخرى بعد شجيرات العليق حيث توقف آخر مرة (تذكر جاك كم كانت جيدة، فوضع اثنتين من التوت الضخم في فمه) واستطاع أن يرى الخيمة بأكملها. كانت في الواقع جناحًا كبيرًا مترامي الأطراف، بأجنحة طويلة على كل جانب، مع بوابات وفناء، مثل قصر الحمراء، علم جاك بغريزته أن هذا الهيكل غريب الأطوار قصر صيفي، يقف فوق المحيط مباشرة.

تحركت مجموعات صغيرة من الناس عبر الجناح الكبير وحوله، مدفوعة بقوى شديدة وغير مرئية مثل تأثير المغناطيس على برادة الحديد، التقت المجموعات الصغيرة، وانقسمت، وتدفقت مرة أخرى.

كان بعض الرجال يرتدون ملابس زاهية وفاخرة، مع أن كثيرين منهم بدوا وكأنهم يرتدون ملابس تشبه ملابس جاك. سارت بضع نساء يرتدين أثوابًا بيضاء طويلة لامعة في الفناء، عازمات كالجنرالات. خارج البوابات كانت هناك مجموعة من الخيام الأصغر والأكواخ الخشبية ذات المظهر المرتجل؛ هنا أيضًا، كان الناس يتحركون، يأكلون أو يشترون أو يتحدثون، وإن كان ذلك بسهولة وعشوائية أكبر. في مكان ما أسفل ذلك الحشد المزدحم، كان عليه أن يجد الرجل ذي الندبة.

لكنه نظر أولًا خلفه، على طول الطريق الوعر، ليرى ما حدث

لعالم المرح.

عندما رأى حصانين صغيرين داكنين يجرّان محاريث، على بُعد خمسين ياردة تقريبًا، ظنّ أن مدينة الملاهي قد تحوّلت إلى مزرعة، لكنه لاحظ بعد ذلك الحشد يشاهد الحرث من أعلى الحقل، وأدرك أن هذه مسابقة، ثمّ لفت انتباهه مشهد رجل ضخم أحمر الشعر، عاري الصدر حتى الخصر، يدير الجزء العلوي من جسده، كانت يداه الممدودتان تحملان شيئًا طويلًا وثقيلًا.. توقّف الرجل فجأةً عن الدوران وأفلت الشيء، الذي طار بعيدًا قبل أن يُدوّي ويرتدّ على العشب، كاشفًا عن نفسه أنه مطرقة، كان عالم الملاهي معرضًا، وليس مزرعة، رأى جاك الآن طاولاتٍ مليئة بالطعام، وأطفالًا على أكتاف آبائهم.

في قلب المعرض، وبعد التأكد من سلامة كل حزام من الأحزمة، وإشعال كل فرن بالخشب، تسائل.. هل كان سبيدي باركر هنا؟ تمنى جاك ذلك...

وهل كانت أمه لا تزال جالسة بمفردها في متجر الشاي والمربى، تتساءل لماذا سمحت له بالذهاب؟

استدار جاك وشاهد العربة الطويلة وهي تدلف عبر بوابات القصر الصيفي وتتجه يسارًا، فاصلةً بين القادمين، كما تفصل سيارةٌ تنعطف من الجادة الخامسة المشاة في شارعٍ عابرٍ للمدينة.. بعد لحظات، انطلق خلفها...

2

كان يخشى أن يلتفت إليه جميع من في الجناح يحدقون فيه، مدركين على الفور اختلافه عنهم. أبقى جاك عينيه منخفضتين بعناية كلما أمكنه، وقلد صبيًا في مهمة معقدة أُرسل لتجميع قائمة بالأشياء؛ أظهر وجهه كيف كان يركز على تذكرها. مجرفة، فأسان، كرة من الخيط، زجاجة من شحم الإوز... لكنه أدرك تدريجيًا أن أياً من البالغين أمام قصر الصيف لم ينتبه إليه على الإطلاق. كانوا يندفعون أو يتباطئون، ويفحصون البضائع والسجاد والأواني الحديدية والأساور المعروضة في الخيام الصغيرة، ويشربون من أكواب خشبية، ويسحبون أكمام الآخرين للإدلاء بتعليق أو بدء محادثة، ويجادلون مع الحراس عند البوابة، كل منهم مشغول تمامًا بشؤونه الخاصة. كان تقليد جاك غير ضروري لدرجة أنه كان سخيفًا، استقام وبدأ في شق طريقه، متحركًا بشكل عشوائي في نصف دائرة غير منتظمة، تجاه البوابة.

أدرك على الفور تقريبًا أنه لن يتمكن من مجرد التجول فيه.. حيث يقف الحارسان على كلا الجانبين ويستجوبا تقريبًا كل من حاول الولوج إلى داخل القصر الصيفي. كان على الرجال إظهار أوراقهم، أو إظهار شاراتهم أو أختامهم التي تسمح لهم بالدخول.. لم يكن لدى جاك سوى ريشة سبيدي باركر، ولم يعتقد أن ذلك سيسمح له بالمرور من تفتيش الحراس.. أظهر رجل يتقدم للتو نحو البوابة شارة فضية مستديرة ولوّح له

بالمرور؛ وتم إيقاف الرجل الذي يتبعه، جادل؛ ثم تغيرت نبرة أسلوبه، ورأى جاك أنه يتوسل.. هز الحارس رأسه وأمر الرجل بالمغادرة.

قال شخص على يمين جاك، وهو يحل على الفور مشكلة لغة الأراضي « رجاله لا يواجهون أي مشكلة في الدخول «، التفت جاك برأسه ليرى ما إذا كان الرجل يتحدث إليه.

لكن الرجل في منتصف العمر الذي يسير بجانبه كان يتحدث إلى رجل آخر، يرتدي هو الآخر ملابس بسيطة وبسيطة كملابس معظم الرجال والنساء خارج القصر. أجاب الرجل الثاني «من الأفضل ألا يفعلوا ذلك.. إنه في طريقه، من المفترض أن يكون هنا اليوم في وقت ما، على ما أعتقد.»

قفز جاك خلف هذين الاثنين وتبعهما نحو البوابة.

تقدم الحراس للأمام مع اقتراب الرجال، وبينما اقترب كلاهما من الحارس نفسه، أشار الآخر إلى الرجل الأقرب إليه.. تراجع جاك، لم يرَ بعد أي شخص مصاب بندبة، ولم يرَ أي ضباط، كان الجنود الوحيدون في الأفق هم الحراس، شبابًا ريفيين بوجوههم الحمراء العريضة فوق الزي الرسمي المطوي والمكشكش بشكل متقن، بدوا كمزارعين يرتدون ملابس تنكرية. لا بد أن الرجلين اللذين كان جاك يتبعهما قد اجتازا اختبارات الحراس، لأنه بعد بضع لحظات من المحادثة تراجع الرجلان بالزي الرسمي وسمحا لهما بالدخول.

نظر أحد الحراس بحدة إلى جاك، فأدار جاك رأسه وتراجع.

إذا لم يجد القائد ذو الندبة، فلن يتمكن أبدًا من دخول أراضي القصر..

اقتربت مجموعة من الرجال من الحارس الذي حدق في جاك، وبدأوا على الفور في المشاحنات.. كان لديهم موعد، وكان من الضروري السماح لهم بالدخول، فالمال يتوقف على ذلك، وللأسف لم يكن لديهم أوراق، هز الحارس رأسه، وحك ذقنه على كشكشة زيه الأبيض. وبينما كان جاك يراقب، لا يزال يتساءل كيف يمكنه العثور على القائد، لوّح قائد المجموعة الصغيرة بيديه في الهواء، وضرب بقبضته في راحة يده. أصبح وجهه أحمر كالحارس، وفي النهاية بدأ يخز الحارس بإصبعه. انضم إليه رفيق الحارس، بدا الحارسان ملولين وعدائيين .

وبهدوء ظهر جانبهم رجل طويل مستقيم يرتدي زيًا مختلفًا قليلاً عن زي الحراس، ربما كانت هذه هي الطريقة التي يُلبس بها الزي، لكنه بدا كما لو أنه قد يكون مفيدًا في المعركة وكذلك في الأوبريت. لم يكن يرتدي طوقًا، لاحظ جاك بعد ثانية، وكانت قبعته مدببة بدلاً من القبعات ثلاثية الزوايا، تحدث إلى الحراس، ثم التفت إلى قائد المجموعة الصغيرة، لم يعد هناك المزيد من الصراخ، ولا مزيد من وخز الأصابع. تحدث الرجل بهدوء. رأى جاك أن الخطر يتلاشى من المجموعة، مضوا سيرًا على الأقدام، بأكتاف محنية، بدأوا في

الابتعاد.. راقبهم الضابط وهم يذهبون، ثم التفت إلى الحراس ليقول لهم كلمة أخيرة.

في الوقت الذي كان فيه الضابط في مواجهة جاك، ويطرد مجموعة الرجال بعيدًا بحضوره، رأى جاك صاعقة طويلة شاحبة من ندبة متعرجة من تحت عينه اليمنى إلى ما فوق خط الفك مباشرة.

أومأ الضابط للحراس وابتعد بخطى سريعة. لم يلتفت يمينًا ولا يسارًا، وشق طريقه بين الحشد، متجهًا على ما يبدو إلى ما يقع على جانب القصر الصيفي، انطلق جاك خلفه.

" سيدي!"، لكن الضابط واصل مسيرته وسط الحشد الذي يتحرك ببطء.

ركض جاك حول مجموعة من الرجال والنساء يسحبون خنزيرًا نحو إحدى الخيام الصغيرة، وأنساب كالرصاصة من خلال فجوة بين مجموعتين أخريين من الناس يقتربون من البوابة، وأخيرًا كان قريبًا بما يكفي من الضابط ليمد يده ويلمس مرفقه. «قائد؟»

استدار الضابط، مما أدى إلى تجميد جاك في مكانه.. من مسافة قريبة، بدت الندبة سميكة ومنفصلة، وكأنها مخلوق حي يتطفل على وجه الرجل. حتى لو لم يكن هناك أي ندوب، فكر جاك، فإن وجه هذا الرجل سوف يعبر عن نفاد صبر قوي..

سأل الرجل «ما الأمر يا فتى؟».

"يا قائد، من المفترض أن أتحدث إليك عليّ رؤية السيدة، لكن لا أظن أنني أستطيع دخول القصر. أوه، من المفترض أن ترى هذا." قام بالبحث في الجيب الواسع لبنطاله غير المألوف وأغلق أصابعه حول جسم مثلث الشكل.

عندما عرضه على راحة يده، شعر بصدمة تسري في جسده فما كان يحمله في يده لم يكن عودًا للإصبع بل سنًا طويلًا، ربما سن سمكة قرش، مطعمًا بنمط متعرج ومعقد من الذهب.

عندما نظر جاك إلى وجه القائد، متوقعًا ضربةً ما، رأى صدى صدمته يتردد هناك.. تلاشى تمامًا نفاد الصبر الذي بدا سمةً مميزةً له.. شوّه الريب، بل والخوف، ملامح الرجل القوية للحظة، رفع القائد يده إلى يد جاك، فظن الصبي أنه ينوي أخذ السنّ المزخرف.. كان سيعطيه إياه، لكن الرجل طوى أصابع الصبي على الشيء الموجود في راحة يده، قال «اتبعني» .

داروا حول الجناح الكبير، وقاد القائد جاك خلف غطاءٍ ضخمٍ على شكل شراع من قماشٍ شاحبٍ صلب، في الظلام الدامس خلف الغطاء، بدا وجه الجندي كما لو أن أحدهم رسم عليه بقلم تلوين وردي سميك.. قال بهدوءٍ «تلك اللافتة، من أين حصلت عليها ؟»

"من سبيدي باركر.. قال إن عليّ أن أجدك وأريها لك."

هز الرجل رأسه «لا أعرف اسمه أريدك أن تعطيني اللافتة الآن.. فورًا»، أمسك بمعصم جاك بقوة.. "أعطني إياها، ثم أخبرني من أين سرقتها.»

"أقول الحقيقة.. حصلتُ عليه من ليستر سبيدي باركر الذي يعمل في فن وورلد، لكنه لم يكن سنًا عندما أعطاني إياه، بل كان ريشة غيتار."

" لا أعتقد أنك تفهم ما سيحدث لك يا فتى."

"أنت تعرفه"، توسل جاك.. "لقد وصفك، أخبرني أنك قائد الحرس الخارجي، طلب مني سبيدي أن أجدك."

هزّ القائد رأسه وأمسك بمعصم جاك بقوة أكبر.. "صف هذا الرجل.. سأكتشف إن كنت تكذب الآن يا فتى، لذا لو كنت مكانك لما فعلت هذا"

"سبيدي عجوز، كان موسيقيًا».

ظنّ أنه رأى لمحةً من التعرّف عليه تلوح في عينيّ الرجل.. «إنه رجل أسود، بشعر أبيض، تجاعيد عميقة على وجهه، وهو نحيفٌ نوعًا ما، لكنه أقوى بكثير مما يبدو عليه».

"رجل أسود.. هل تقصد رجلاً أسمر؟"

"حسنًا، السود ليسوا سودًا حقًا.. كما أن البيض ليسوا بيضًا حقًا.."

"أسمر يُدعى باركر." ترك القائد معصم جاك برفق "اسمه

هنا باركوس، إذًا من تكون...» أومأ برأسه نحو نقطة بعيدة غير مرئية في الأفق.

"هذا صحيح"، قال جاك .

"وباركوس... باركر... أرسلك لرؤية ملكتنا؟"

قال "إنه يريدني أن أرى السيدة، وأنك تستطيع أن تأخذني إليها."

قال القائد « يجب أن يكون هذا سريعًا.. أعتقد أنني أعرف كيف أفعل ذلك، لكن ليس لدينا وقت نضيعه».. حوّل اتجاهه الذهني بسلاسة عسكرية، «استمع إليّ الآن.. لدينا الكثير من الأوغاد هنا، لذا سنتظاهر بأنك ابني على الجانب الآخر من الشراشف، لقد عصيتني في مهمة صغيرة، وأنا غاضب منك.. أعتقد أن لا أحد سيوقفنا إذا جعلنا هذا العرض مقنعًا، على الأقل يمكنني إدخالك، لكن قد يكون الأمر أصعب قليلًا بمجرد دخولنا.. هل تعتقد أنك قادر على فعل ذلك؟ إقناع الناس بأنك ابني؟»

" أمي ممثلة"، قالها جاك وقد تسلسل إلى قلبه شعوره الأزلي بالفخر بها...

"حسنًا، لنرى ما تعلمته،" قال القائد، وفاجأ جاك بغمزه.. "سأحاول ألا أسبب لك أي ألم." ثم فاجأ جاك مجددًا، وضغط بيده القوية على ذراع الصبي.. قائلا "هيا بنا"، وخرج من مأوى الغطاء، وهو يجرّ جاك خلفه.

"عندما أطلب منك غسل بلاط الرصف خلف المطبخ، فستفعل ذلك،" قال القائد بصوت عالٍ دون أن ينظر إليه.. "هل فهمت؟ ستؤدي واجبك.. وإن لم تفعل، فستُعاقب."

" لكنني غسلت بعض الحجارة..." صرخ جاك.

صرخ القائد، وهو يجرّ جاك خلفه « لم أطلب منك أن تغسل بعض أحجار الرصف!».

انفرجت أعين الناس من حولهم ليسمحوا للقائد بالمرور، ابتسم بعضهم لجاك بتعاطف.

" لقد كنت سأفعل كل شيء، بصراحة، كنت سأعود في دقيقة واحدة ..."

سحبه الجندي نحو البوابة دون أن ينظر إلى الحراس، وشده بقوة.. صرخ جاك «لا يا أبي! أنت تؤذيني!»

" ليس بقدر ما سأؤذيك، " قال القائد، وسحبه عبر الفناء الواسع الذي رآه جاك من مسار العربات.

في الطرف الآخر من الفناء، سحبه الجندي على درجات خشبية إلى القصر الكبير نفسه، همس الرجل «الآن عليك أن تُحسن التصرف»، وانطلق على الفور في ممر طويل، وهو يضغط على ذراع جاك بقوة كافية لترك كدمات.

" أعدك بأنني سأكون جيدًا!" صرخ جاك.

جرّه الرجل إلى ممرٍّ أضيق. رأى جاك أن داخل القصر لا

يشبه الخيمةً على الإطلاق.. كان متاهةً من الممرات والغرف الصغيرة، تفوح منها رائحة الدخان والشحم.

" وعدا" صاح القائد .

" أعدك! سأفعل!"

أمامهم، وهم يخرجون من ممر آخر، انعطفت مجموعة من الرجال بملابسهم الفاخرة، إما متكئين على جدار أو مستلقين على أرائك، لينظروا إلى هذا الثنائي الصاخب. كان أحدهم، الذي كان يسلي نفسه بإعطاء الأوامر لسيدتين تحملان أكوامًا من الشراشف مطوية على أذرعهما، ينظر بريبة إلى جاك والقائد.

" وأنا أعدك بأنني سأسحقك ضربًا"، قالها القائد بصوت عالٍ.

ضحك رجلان. كانا يرتديان قبعات ناعمة عريضة الحواف مزينة بالفرو، وأحذيتهما من المخمل، كانت وجوههما جشعة وغير مراعية.

كان الرجل الذي يتحدث إلى الخادمات، والذي بدا أنه المسؤول، طويل القامة ونحيفًا للغاية.. كان وجهه المتوتر والطموح يتتبع الصبي والجندي وهما يمران مسرعين.› من فضلك لا تفعل ذلك!» صرخ جاك. ‹من فضلك!»

زمجر الجندي قائلًا: «كل رجاء هو إغراء آخر»، فانفجر الرجال ضاحكين مرة أخرى، سمح النحيف لنفسه بإظهار ابتسامة باردة مثل شفرة السكين قبل أن يعود إلى الخادمات.

جرّ القائد الصبي إلى غرفة فارغة مليئة بأثاث خشبي مُغبر، ثم أخيرًا أطلق ذراع جاك المُتألم، همس قائلًا «هؤلاء رجاله».

"كيف ستكون الحياة عندما..." هز رأسه، وبدا وكأنه للحظة تسرّع. "يقول كتاب الزراعة الجيدة أن الودعاء يرثون الأرض، لكن هؤلاء الرجال لا يملكون ذرة من الوداعة بينهم.. يأخذون كل ما يروق لهم، يريدون الثروة، يريدون..» نظر إلى أعلى، غير راغب أو غير قادر على قول ما يريده الرجال بالخارج.. ثم نظر إلى الصبي.. «سيتعين علينا الإسراع في هذا الأمر، لا تزال هناك بعض الأسرار التي لم يعرفها رجاله عن القصر.» أومأ برأسه جانبًا، مشيرًا إلى جدار خشبي باهت.

تبعه جاك، وفهم عندما دفع القائد اثنين من رؤوس المسامير البنية المسطحة التي ثُركت مكشوفة في نهاية لوح مُغبر، انزلق اللوح عبر الجدار الباهت إلى الداخل، كاشفًا عن ممر أسود ضيق لا يزيد ارتفاعه عن نعش مقلوب.. "لن ترى منها إلا لمحة، لكن أظن أن هذا كل ما تحتاجه، إنه كل ما يمكنك الحصول عليه على أي حال."

تبع الصبي التعليمات صامتًا متسللًا عبر الممر، همس القائد «استمر في السير حتى أخبرك».

عندما أنغلق اللوح خلفهما، بدأ جاك بالتقدم ببطء عبر الظلام الدامس.

كان الممر متعرجًا هنا وهناك، مُضاءً أحيانًا بضوء خافت

يتسلل من خلال شق في باب مخفي أو من خلال نافذة فوق رأس الصبي، سرعان ما فقد جاك الإحساس بالاتجاه، واتبع همس رفيقه دون وعي.. في لحظة، شمّ رائحة لحم مشوي شهية، وفي لحظة أخرى، رائحة مجارى كريهة لا لبس فيها.

"توقف"، قال القائد أخيرًا. "الآن عليّ أن أرفعك.. ارفع ذراعيك."

"هل سأتمكن من رؤيتها؟"

"ستعرف خلال لحظات"، ووضع يده تحت إبط جاك مباشرةً ورفعه عن الأرض. همس قائلًا "هناك لوحة أمامك الآن.. حركها إلى اليسار."

مدّ جاك يده أمامه بنظرة عمياء ولمس خشبًا أملسًا. انزلق الخشب جانبًا بسهولة، وسقط ضوء كافٍ في الممر ليرى عنكبوتًا صغيرًا يتسلق نحو السقف.

كان ينظر إلى غرفة بحجم ردهة فندق، مليئة بنساء يرتدين الأبيض وأثاث مزخرف لدرجة أنه أعاد إلى ذهن الصبي جميع المتاحف التي زارها هو ووالداه، في وسط الغرفة، كانت امرأة نائمة أو فاقدة للوعي على سرير ضخم، لا يظهر فوق الملاءة سوى رأسها وكتفيها.

ثم كاد جاك أن يصرخ من الصدمة والرعب، لأن المرأة على السرير كانت والدته. تلك كانت والدته، وكانت تحتضر.

" لقد رأيتها،" همس القائد، وشد ذراعيه بقوة أكبر.

حدّق جاك في أمه فاغر الفم.. كانت تحتضر، لم يعد يشك في ذلك.. حتى بشرتها بدت شاحبة وغير صحية، وشعرها أيضًا فقد عدة درجات من لونه. كانت الممرضات حولها مشغولات، يُعدّلن الشراشف أو يُعيدن ترتيب الكتب على الطاولة، لكنهن كنّ يتصرّفن بهذه الطريقة الانشغالية والهادفة لأنهن لم يكن لديهن أدنى فكرة عن كيفية مساعدة مريضتهن.. كانت الممرضات يعلمن أنه لا توجد مساعدة حقيقية لمن مثل هذه المريضة، إذا استطعن تجنّب الموت لشهر آخر، أو حتى أسبوع، فهذا أقصى ما يمكنهن إعطائه.

نظر إلى الوجه المقلوب كقناع شمعي، وأدرك أخيرًا أن المرأة على السرير ليست والدته، كان ذقنها أكثر استدارة، وشكل أنفها أكثر كلاسيكية.. كانت المرأة المحتضرة توأم والدته؛ كانت لورا ديلوسيان، لو أراد سبيدي أن يرى المزيد، لما كان قادرًا على ذلك.. فذلك الوجه الأبيض الجامد لم يُخبره شيئًا عن المرأة التي خلفه.

"حسنًا،" همس، ودفع اللوحة إلى مكانها مرة أخرى، وأنزله القائد إلى الأرض.

سأل في الظلام "ما بها؟"

"لا أحد يستطيع اكتشاف ذلك،» تردد صوته من الأعلى.. "الملكة لا ترى، لا تتكلم، لا تتحرك"، ساد الصمت للحظة، ثم لمس القائد يده وقال "يجب أن نعود".

خرجا بهدوء عبر الظلام إلى الغرفة الفارغة المتربة، نفض القائد خيوط العنكبوت عن مقدمة زيه العسكري، مال برأسه جانبًا، متأملًا جاك للحظة طويلة، والقلق بادٍ على وجهه.. ثم قال "الآن يجب أن تجيب على سؤالي".

"نعم."

"هل أُرسلت إلى هنا لإنقاذها؟ لإنقاذ الملكة؟"

أومأ جاك.. «أعتقد ذلك، أعتقد أن هذا جزء من الأمر.. أخبرني شيئًا واحدًا فقط.» تردد.. "لماذا لا يتولى هؤلاء المخادعون زمام الأمور؟ بالتأكيد لا يمكنها إيقافهم."

ابتسم القائد.. لم يكن في تلك الابتسامة أي طرافة، قال «أنا ورجالي سنوقفهم، لا أعرف ما الذي كانوا يفعلونه في المراكز الخارجية، حيث النظام ضعيف؟ لكننا هنا نتمسك بالملكة.»

قفزت العضلة الموجودة أسفل العين مباشرة على عظم الخد غير المصاب مثل السمكة. كان يضغط يديه معًا، راحة اليد إلى راحة اليد. «وإرشاداتك، أوامرك، أيًا كانت، هي... آه، الذهاب غربًا، أليس كذلك؟»

كاد جاك أن يشعر باهتزاز الرجل، مسيطرًا على انفعاله المتزايد بفضل عادة ضبط النفس التي اكتسبها طوال حياته.. قال «هذا صحيح.. من المفترض أن أتجه غربًا. أليس كذلك؟ ألا يجب أن أتجه غربًا؟ إلى قصر الحمراء الآخر؟»

"لا أستطيع، لا أستطيع»، قال القائد فجأةً، وهو يتراجع

خطوة إلى الوراء. «علينا إخراجك من هنا الآن. لا أستطيع أن أخبرك بما يجب عليك فعله.» لم يستطع حتى النظر إلى جاك الآن، كما أدرك الصبي. «لكنك لا تستطيع البقاء هنا دقيقة أخرى، دعنا، آه، دعنا نرى إن كان بإمكاننا إخراجك قبل وصول مورغان.»

"مورغان؟" قال جاك، وكأنه يظن أنه لم يسمع الاسم بشكل صحيح.. "مورغان سلوت؟ هل سيأتي إلى هنا؟"

الفصل السابع

فارين

1

بدا أن القائد لم يسمع سؤال جاك. كان ينظر بعيدًا إلى زاوية هذه الغرفة الفارغة غير المستخدمة كما لو كان يبحث عن شيء ما.. أخذ يفكر طويلًا وبجدٍّ وبعجل؛ أدرك جاك ذلك، وقد علّمه العم تومي أن مقاطعة شخص بالغ يفكر بجدّية أمرٌ غير مهذب تمامًا كمقاطعة شخص بالغ يتحدث.

لكن...

ابتعد عن بلوت العجوز، انتبه لآثاره.. آثاره وآثار توأمه... سيلاحقك كما يلاحق الثعلب الإوزة.

قال سبيدي ذلك، وكان جاك منشغلاً بالتعويذة لدرجة أنه كاد ينسى تحذيره، ظهرت الكلمات فجأةً، وعادت إليه بقوةٍ مُزعجة، كأنها ضربةٌ على مؤخرة العنق.

"كيف يبدو؟" سأل القائد على عجل.. "مورغان؟" سأل القائد، بفزع وكأنه أستيقظ للتو من كابوس مزعج.

"هل هو سمين؟ هل هو سمين ويكاد يصبح أصلع؟ هل يفعل هذا عندما يغضب؟" وباستخدام موهبته الفطرية في التقليد التي كانت لديه دائمًا، وهي موهبة جعلت والده يزأر من الضحك حتى عندما كان متعبًا ويشعر بالإحباط.. "قلّد"

جاك مورغان سلوت ارتسمت على وجهه علامات التقدم في السن وعقد حاجبيه كما يفعل العم مورغان عندما يغضب من شيء ما.. في الوقت نفسه، امتص جاك خديه ونكّس رأسه لأسفل ليصنع ذقنًا مزدوجًا، مد شفتاه في عبوس مريب وبدأ يهز حاجبيه بسرعة لأعلى ولأسفل.. «هل يفعل هذا؟»

قال القائد «لا»، لكن شيئًا ما لمع في عينيه، كما لمع عندما أخبره جاك أن سبيدي باركر عجوز.. "مورغان طويل، شعره طويل»، وضع القائد يده على كتفه الأيمن ليُري جاك طوله.. "وهو يعرج، إحدى قدميه مشوهة، يرتدي حذاءً طويلاً، لكن...» هز كتفيه.

"بدا لي أنك تعرفه عندما قلدته..."

"شششش! ليس بهذه القوة يا فتى!" خفض جاك صوته، قال «أعتقد أنني أعرف الرجل»، ولأول مرة شعر بالخوف كعاطفة مُدركة... شيء استطاع استيعابه بطريقة لم يستطع استيعابها بعد في هذا العالم.. "العم مورغان هنا؟ يا إلهي!"

"مورغان هو مورغان فقط، لا أحد يُمزح معه يا فتى.. هيا، لنخرج من هنا، أحاط قبضته بذراع جاك مرة أخرى.. تأوه جاك لكنه قاوم."

باركر يصبح باركوس، ومورغان... إنها مصادفة عجيبة جدًا.

قال «ليس الآن"، خطر بباله سؤال آخر.. «هل لديها ابن؟»

""الملكة؟"

"نعم."

أجاب القائد على مضض.. «لديها ابن. نعم، يا بني، لا يمكننا البقاء هنا، نحن...»

""أخبرني عنه!"

أجاب القائد.. «لا شيء يُقال، مات الرضيع، لم يمضِ على ولادتها ستة أسابيع، راجت شائعاتٌ عن أن أحد رجال مورغان.. أوزموند، ربما خنق الصبي، لكن هذا النوع من الكلام دائمًا ما يكون محض شائعات رخيصة، لا أُحب مورغان من أوريس، لكن الجميع يعلم أن طفلًا واحدًا من كل عشرة يموت في المهد، لا أحد يعرف السبب؛ يموتون في ظروف غامضة، بلا سبب. هناك مقولة.. الله يدق أظافره، حتى الطفل الملكي لا يُستثنى في نظر النجار، هو... يا بني؟ هل أنت بخير؟»

شعر جاك بأن العالم من حوله أصبح رماديًا. ترنح، وعندما أمسك به القائد، أصبحت يداه القاسيتان ناعمتين كوسائد من الريش.

لقد كاد أن يموت وهو طفل صغير..

كانت والدته قد أخبرته القصة، كيف وجدته ساكنًا وهامدًا في سريره، شفتيه زرقاوين، وخديه بلون شموع الجنازة بعد تغطيتها وإطفائها، أخبرته كيف ركضت صارخة إلى غرفة المعيشة وهو بين ذراعيها، كان والده وسلوت جالسين على

الأرض، تملين بالنبيذ والعشب، يشاهدان مباراة مصارعة على التلفزيون، انتزعه والده من بين ذراعي والدته، وضغط على أنفه بشدة بيده اليسرى (لقد كانت لديك كدمات هناك لمدة شهر تقريبًا يا جاكي، أخبرته والدته بضحكة مرتجفة) ثم وضع فمه على فم جاك الصغير، بينما بكى مورغان.. لا أعتقد أن هذا سيساعده يا فيل..لا أعتقد أن هذا سيساعده!

(كان العم مورغان مُضحكًا، أليس كذلك يا أمي؟) قال جاك.

(نعم، مُضحك جدًا يا جاكي،) ردّت والدته، وابتسمت ابتسامةً غريبةً خاليةً من الفكاهة، وأشعلت سيجارة هيربرت تاريتون أخرى من مؤخرة السيجارة المُشتعلة في المنفضة.

"يا فتى!" همس القائد، وهزّه بقوة حتى ارتطم رأس جاك المتدلي برقبته.. "يا فتى! اللعنة! إن أغمي عليك..."

رد جاك «أنا بخير»، بدا صوته وكأنه قادم من بعيد؛ بدا كصوت مُعلّق فريق دودجرز عندما كنتَ تُبحر بجوار تشافيز رافين ليلًا، والسقف مُنخفض، يُردده الصدى ويُصبح بعيدًا، كأنك تتابع أحداث البيسبول في حلمٍ جميل.

"حسنًا، دعني أكمل حديثي، ماذا تقول؟ دعني أُريحك."

توقف القائد عن هزه لكنه نظر إليه بحذر.

قال جاك مجددًا.. «حسنًا»، ثم صفع خده فجأةً بكل قوته..

"آه!" لكن عاد إليه تركيزه.

كاد أن يموت في مهده.. في تلك الشقة التي كانا يعيشان فيها آنذاك، تلك التي بالكاد يتذكرها، والتي كانت والدته تُسميها دائمًا "قصر الأحلام الملون" نظرًا لإطلالة هوليوود هيلز الخلابة من غرفة المعيشة.. كاد أن يموت في مهده، وكان والده ومورغان سلوت يشربان الخمر، وعندما يشرب المرء الكثير من الخمر، يتبول كثيرًا، وكان يتذكر قصر الأحلام الملون جيدًا ليعرف أنه كان يصل من غرفة المعيشة إلى أقرب حمام بالمرور بالغرفة التي كانت له عندما كان طفلًا.

لقد رآه.. مورغان سلوت ينهض، مبتسمًا بأريحية، قائلاً شيئًا مثل ثانية واحدة فقط بينما يفسح المجال، فيل؛ والده بالكاد ينظر حوله لأن هايستاك كالهون كان يستعد لوضع الدوار أو النائم على بعض الخصوم التعساء؛ مورغان ينتقل من سطوع التلفزيون في غرفة المعيشة إلى عتمة غرفة الأطفال الرمادية، حيث كان جاكي سوير الصغير نائمًا في بيجامة بوه التي تغطي قدميه، جاكي سوير الصغير الدافئ والآمن في حفاضته الجافة، لقد رأى العم مورغان ينظر خلسةً تجاه المربع المشرق لباب غرفة المعيشة، وجبينه الأصلع يتحول إلى درجات السلم، وشفتيه تضغطان مثل فم سمك القاروص البارد؛ لقد رأى العم مورغان يأخذ وسادة من على كرسي قريب، ورأه يضعها برفق ولكن بثبات على رأس الطفل المستغرق في نومه، ممسكًا بها هناك بيد واحدة بينما كان وضع يده الأخرى بشكل مسطح على ظهر الطفل. وعندما توقفت حركته، رأى العم مورغان يعيد الوسادة إلى الكرسي

الذي كانت تجلس عليه ليلي للرضاعة، ثم تذهب إلى الحمام للتبول.

لو لم تأتي أمه لتطمئن عليه على الفور تقريبًا...

انتشر العرق البارد في جميع أنحاء جسده.

هل كان الأمر كذلك؟ من الممكن.. أخبره قلبه أنه كان كذلك، كانت الحظة مثالية للغاية، وبمنتهى السلاسة.

في عمر ستة أسابيع، توفي ابن لورا دي لويسيان، ملكة الأقاليم، في مهده.

في عمر ستة أسابيع، كاد ابن فيل وليلي سوير أن يموت في سريره... وكان مورجان سلوت موجودًا هناك.

كانت والدته تنهي القصة دائمًا بنكتة.. كيف كاد فيل سوير أن يحطم سيارتهما من طراز كرايسلر، عندما اندفع إلى المستشفى بعد أن بدأ جاكي يتنفس مرة أخرى..

مضحك جدًا، حسنًا.

2

قال القائد "الآن تعال،".

رد جاك «حسنًا»، ما زال يشعر بالضعف والذهول.. "حسنًا، لنذهب..."

"شششش!" نظر القائد حوله بحدة عند سماعه أصواتًا تقترب. لم يكن الجدار على يمينهم خشبيًا، بل من قماشًا ثقيلًا. على بُعد أربع بوصات من الأرض، رأى جاك أقدامًا مرتدية أحذية طويلة تمرعبر الفجوة.. خمسة أزواج.. يبدوا أنها أحذية جنود.

صوت واحد قطع الثرثرة.. "... لم أكن أعلم أن لديه ابنًا."

"حسنًا،" أجاب الثاني، "الأوغاد، يا سيدي الأوغاد.. وهي حقيقة يجب أن تعرفها جيدًا، سيمون.»

انفجر ضاحكًا ضحكٌ عارمٌ عنيف إثر كلماته، وهو نوع الضحك الذي سمعه جاك من بعض الأولاد الأكبر سنًا في المدرسة، أولئك الذين يدخنون الحشيش خلف ورشة النجارة ويطلقون على الأولاد الأصغر أسماء غامضة ولكنها مرعبة نوعًا ما.. مثل: كوير بوي وهومباجامبا ومورفاديت.

كل تلك المصطلحات اللزجة نوعًا ما عقبتها ضحكة خشنة تمامًا مثل تلك.

"أغلقها! أغلقها!" صوت ثالث.. "إذا سمعك، ستسير على خط

البؤرة الاستيطانية قبل غروب ثلاثين شمسًا!" همهم.

انفجار مكتوم من الضحك.

سخرية أخرى، هذه المرة غير مفهومة.. ضحكوا أكثر وهم يمرون.

نظر جاك إلى القائد، الذي كان يحدق في جدار القماش القصير بغضب، لا شك عمن يتحدثون عنه.. وإن كانوا يتحدثون، فقد يكون هناك من يستمع... الشخص الخطأ، الذي قد يتساءل عمن يكون هذا الوغد الذي ظهر فجأة، حتى طفل مثله كان يعلم ذلك.

قال القائد.. «هل سمعت ما يكفي؟ علينا أن نتحرك».

بدا وكأنه يودّ التخلص من جاك... لكنه لم يجرؤ على ذلك.

"توجيهاتك، أوامرك، أيا كانت، هي... آه، اذهب غربًا، هل هذا صحيح؟"

"لقد تغير،" فكر جاك.. "لقد تغير مرتين."

ذات مرة، عندما أراه جاك سنّ القرش الذي كان ريشة غيتار مزخرفة في عالمٍ تجوب فيه شاحنات التوصيل الطرق بدلًا من العربات التي تجرها الخيول، ثم تغيّر مجددًا عندما أكّد جاك أنه متجه غربًا.. تحوّل من التهديد إلى الاستعداد للمساعدة في... ماذا؟

لا أستطيع أن أقول... لا أستطيع أن أخبرك بما يجب عليك

فعله.

إلى شيء مثل الرهبة الدينية... أو الإرهاب الديني.

يريد الخروج من هنا لأنه يخشى أن يُقبض علينا، فكّر جاك. لكن هناك المزيد، أليس كذلك؟ إنه يخاف مني. يخاف من...

"تعال،" قال القائد. "تعال، بحق جيسون."

سأل جاك بغباء: «بحق من؟»، لكن القائد كان يدفعه للخارج. سحب جاك بقوة يسارًا، وقاده نصف جريه في ممرٍّ مُغطى بالخشب من جهة، وقماش خشن متعفن من جهة أخرى.

"هذه ليست الطريقة التي أتينا بها"، همس جاك.

همس القائد ردًا.. "لا أريد المرور بجانب هؤلاء الرجال الذين رأيناهم قادمين.. رجال مورغان، هل رأيت الطويل؟ نحيفًا بما يكفي للنظر من خلاله؟»

نعم. تذكر جاك ابتسامته الرقيقة، وعيناه اللتين لم تبتسما.. بدا الآخرون ضعفاء.. أما الرجل النحيل، فقد بدا صارمًا، بدا مجنونًا، وشيء آخر.. بدا مألوفًا بعض الشيء.

"أوزموند،" قال القائد، وهو يسحب جاك الآن إلى اليمين.

كانت رائحة اللحم المشوي تزداد قوةً تدريجيًا، والآن أصبح الهواء يفوح بها، لم يشم جاك قطّ رائحة لحمٍ اشتهى تذوقه بمثل هذه الشهوة في حياته.

كان خائفًا، وفي حالة نفسية وعاطفية متوترة، ربما أوشك

على الجنون... لكن لعابه كان يسيل بغزارة.

"أوزموند هو الذراع الأيمن لمورغان، قال القائد بنبرة غاضبة.. إنه يدقق كثيرًا، وأتمنى ألا يراك مرتين يا بني."

"ماذا تقصد؟"

'هسسسس! شد على ذراع جاك الذي تفاقم ألمه.. كانا يقتربان من ستارة قماشية عريضة معلقة على المدخل، بدت لجاك كستارة حمام.. إلا أن القماش كان من خيش منسوج بخشونة واتساع يكاد يكون كالشبكة، والحلقات التي تدلت منها كانت من العظم لا الكروم.

"اصرخ الآن"، همس القائد في أذن جاك بحرارة.

رفع الستارة وسحب جاك إلى مطبخ ضخم تفوح منه روائح زكية (لا تزال رائحة اللحم تهيمن) وتصاعدت منه أعمدة من البخار، لمح جاك بدهشة مواقد، ومدخنة حجرية ضخمة، ووجوه نساء تحت مناديل بيضاء متموجة ذكّرته برؤوس الراهبات.. كان بعضهن مصطفّات عند حوض حديدي طويل قائم على حوامل، ووجوههن حمراء وملطخة بالعرق وهن يغسلن الأواني وأدوات الطبخ، وقف آخرون عند منضدة بعرض الغرفة، يقسمون ويقطعون ويزيلون البذور ويقشرونها. وآخرون يحملون رفوفًا سلكية مليئة بالفطائر غير المطبوخة، حدّق الجميع في جاك والقائد وهم يشقون طريقهم إلى المطبخ.

"لن يحدث هذا مجددًا!" صرخ القائد في جاك، وهو يهزه كما يهز كلب الصيد فأرًا... واستمرا في التحرك بسرعة عبر الغرفة، نحو البابين المعلقين في الجانب البعيد.

"لن يحدث هذا مجددًا، هل تسمعني؟ في المرة القادمة التي تتهرب فيها من واجبك، سأشق جلد ظهرك وأقشره كما لو كنت بطاطا مخبوزة!"

وفي أنفاسه، همس القائد، «سوف يتذكرون جميعًا وسيتحدثون جميعًا، لذا ابكي، اللعنة!»

والآن، بينما كان القائد ذو الوجه المندب يجره عبر المطبخ المُبخّر من قفاه وذراعه النابضة، استعاد جاك عمدًا صورة مروعة لأمه وهي ترقد في صالة جنازات.. رآها مُغطاة بقماش الأورجانزا الأبيض المُتطاير، كانت مُستلقية في نعشها وترتدي فستان الزفاف الذي ارتدته في فيلم «دراج ستريب رامبل» (RKO، 1953).

ازداد وجهها وضوحًا في ذهن جاك، كتمثال شمعي نحت بصورة مثالية، رآها ترتدي أقراطها الصغيرة على شكل صليب ذهبي، تلك التي أهداها إياها جاك في عيد الميلاد قبل عامين، ثم تغير وجهها.. أصبح الذقن أكثر استدارة، والأنف أكثر استقامة، وأكثر رقيًا، أصبح لون الشعر أفتح قليلًا، وأكثر خشونة، الآن، رأى لورا دي لويسيان في ذلك التابوت، حتى التابوت نفسه قد تبدل لتابوت جنازة أخرى مجهولة الهوية، أصبح شيئًا بدا كما لو أنه قد قُطع بعنف شديد من جذع

شجرة قديم كنعش فايكنج، إن وُجد شيء كهذا؛ كان من الأسهل تخيل هذا التابوت وهو يُحرق على نعش من جذوع شجر مدهونة بالزيت من تخيله أو وهو ينزلق تحت الأرض في استسلام كانت لورا دي لويسيان، ملكة الأراضي، ولكن في هذا التصور الذي أصبح واضحًا كالرؤيا، كانت الملكة ترتدي فستان زفاف والدته من فيلم «دراج ستريب رامبل» وأقراط الصليب الذهبي التي ساعده العم تومي في اختيارها من متجر «شاربز» في بيفرلي هيلز.

فجأة، انهمرت دموعه في فيضان حارق لم تكن دموعًا زائفة بل دموع حقيقية، ليس فقط من أجل أمه بل من أجل كلتا المرأتين الضائعتين، الكونين المحتضرين، المرتبطين بحبل غير مرئي قد يفسد لكنه لن ينقطع أبدًا.. على الأقل، ليس قبل أن تموتا.

من بين دموعه، رأى رجلاً ضخم الجثة يرتدي ثيابًا بيضاء زاهية يندفع نحوهم عبر الغرفة، كان يرتدي وشاحًا أحمر بدلًا من قبعة الطاه المنتفخة، لكن جاك ظن أنه يشغل نفس الوظيفة، ومن خلال ما يرتديه حدد أنه رئيس المطبخ، وكان يحمل أيضًا شوكة خشبية ثلاثية الأسنان ذات مظهر غريب.

'صرخ الطاهي فيهم "اخرجا! اخرجا!"، وكان الصوت الخارج من ذلك الصندوق الضخم أشبه بآلة مزمار سخيفة كصوت رجل مرح نحيل يُلقي التحية على بائع أحذية، لكن لم يكن هناك ما هو هزلي في الشوكة؛ التي بدت قاتلة.

تفرقت النساء أمامه كالطيور، سقطت الفطيرة الأخيرة من رفّ صانعة الفطائر، وأطلقت صرخة عالية يائسة وهي تتكسر على الألواح، تناثر عصير الفراولة وسال، كان لونه الأحمر طازجًا وزاهيًا كشريان من الدماء.

"أخرجوا من مطبخي أيها الأوغاد! هذا ليس طريق مختصر، إذهبا بلا رجعة، هذا مطبخي، وإن نسيتم ذلك سأجعل بحق الله النجار ينحتها لكم"

وخزهم بشوكته مهددًا، وأدار رأسه نصف استدارة وقبض عينيه شبه المغمضتين في نفس الوقت، كما لو كان على الرغم من حديثه القاسي فإن فكرة الدم الساخن المتدفق كانت ببساطة غير مقبولة لدرجة لا يمكنه تحملها.. أزال القائد يده من على قفا جاك ومدها بشكل عرضي تقريبًا، كما بدا لجاك، بعد لحظة كان الطاهي على الأرض، بطول ستة أقدام ونصف وسقطت شوكة اللحم في بركة من صلصة الفراولة وقطع من المعجنات البيضاء غير المخبوزة، تدحرج الطاهي ذهابًا وإيابًا، ممسكًا بمعصمه الأيمن المكسور ويصرخ بذلك الصوت العالي الذي يشبه صوت الناي، تنقلت الأخبار الحزينة عبر الغرفة.. لقد مات، لقد قتله القائد بالتأكيد (تُنطق مور-ديرت باللهجة الغريبة التي تشبه لهجة الطاهي القريبة من الألمانية)؛ كان على أقل تقدير مشلولًا، فقد دمر قائد الحرس الخارجي القاسي عديم القلب يده اليمنى السليمة وبالتالي معيشته، وبالتالي ضمن له حياة متسول بائسة في

السنوات القادمة؛ لقد ألحق به القائد ألمًا رهيبًا، ألمًا لا يُصدق، لا يمكن تحمله.

"اصمت!" زأر القائد، فاستجاب الطاهي ذلك على الفور، استلقى على الأرض كطفل رضيع، ويده اليمنى ملتوية على صدره، ومالت عصابته الحمراء بثمالة حيث ظهرت إحدى أذنيه (كانت هناك لؤلؤة سوداء صغيرة في وسط شحمة أذنه)، ووجنتاه السمينتان ترتجفان.. شهقت نساء المطبخ وغردت بينما انحنى القائد فوق الغول الرئيسي المخيف في الكهف البخاري حيث قضوا أيامهم ولياليهم.

وأثناء استغراق جاك في بكائه، لمح صبيًا أسود (صبي بني، صحح عقله) يقف على أحد طرفي موقد كبير، كان فم الصبي مفتوحًا، ووجهه مندهش بشكل مضحك مثل وجه في عرض غنائي، لكنه ظل يدير المقبض بيديه، واستمرت الورك المعلقة فوق الجمر المتوهج في الدوران.

قال القائد «استمع، وسأقدم لك نصيحة لن تجدها في كتاب الزراعة الجيدة»، انحنى فوق الطاهي حتى كادت أنوفهم أن تتلامس (ولم يخف قبضته قيد أنملة حول ذراع جاك المخدر بالكامل).. "إياك أن تهاجم رجلاً بسكين أو شوكة أو رمح أو حتى شظية قوية في يدك إلا إذا كنت تنوي قتله بها.. يُتوقع من الطهاة أن يكونوا ذوي طبع حسن، لكن هذا الطبع لا يشمل الاعتداء على قائد الحرس الخارجي.. هل تفهمني؟»

أطلق الطاهي أنينًا دامعًا متحديًا، لم يستطع جاك فهمه

بالكامل حيث بدت لهجة الرجل تزداد ثقلًا باستمرار، لكن الأمر كان له علاقة بوالدة القائد وكلاب القمامة خلف الجناح.

"ربما يكون كذلك،" قال القائد.. "لم أعرف السيدة قط. لكن هذا لا يُجيب على سؤالي بالتأكيد." ثم وخز الطاهي بحذائه المُغبر المُتهالك.

كانت وخزة خفيفة، لكن الطاهي صرخ كما لو أن القائد سحب قدمه للخلف وركله بأقصى ما يستطيع.. غردت النساء مرة أخرى.

"هل تفاهمنا أم لم نتفاهم في مسألة أسلحة الطهاة والكباتن؟ لأننا إن لم نتفاهم.. ربما يكون من المناسب تقديم المزيد من التعليمات».

"نعم!" قال الشيف وهو يلهث. "نعم! نعم! نحن..."

"حسنًا. لأنني اضطررتُ لإعطائه تعليماتٍ كثيرةً جدًا اليوم،» هزّ جاك من قفاه.. «ألم أفعل يا فتى؟» هزّه مرةً أخرى، وأطلق جاك عويلًا جليًا، «حسنًا... أظنُّ أن هذا كل ما يستطيع قوله.. الفتى ساذج مثل أمه.»

ألقى القائد نظرته الداكنة اللامعة حول المطبخ.

"يوم جيد، سيداتي. بركات الملكة عليكن."

"وأنت يا سيدي الكريم"، قالت أكبرهن، وانحنت انحناءة خرقاء وغير لائقة، وتبعتها الأخريات.

جرّ القائد جاك عبر المطبخ، ارتطم ورك جاك بحافة حوض الغسيل بقوة مُبرحة، فصرخ مجددًا، تطاير الماء الساخن، ارتطمت قطرات الدخان بالألواح وسارت بينها، مُصدرةً صوت هسهسة.

فكّر جاك «هؤلاء النساء يضعن أيديهن في تلك المياه.. كيف يتحملن ذلك؟»

ثم قام القائد، الذي أوشك على حمله الآن، بدفع جاك عبر ستارة الخيش الأخرى إلى الردهة خلفه.

"أوه!" قال القائد بصوت منخفض.. «أنا لا أطيق هذا، ولا أي شيء منه، كل شيء له رائحة كريهة.»

يسارًا، يمينًا، ثم يمينًا مجددًا، بدأ جاك يشعر أنهم يقتربون من الجدران الخارجية للجناح، وكان لديه الوقت ليتساءل كيف يمكن للمكان أن يبدو أكبر بكثير من الداخل مما يبدو عليه من الخارج، ثم دفعه القائد عبر مصراع متحرك، وعادا إلى الضوء كان سماء منتصف النهار ساطعة جدًا بعد مراوغة عتمة الجناح، لدرجة أن جاك اضطر إلى إغماض عينيه خوفًا من نوبة ألم.

لم يتوان القائد قط.. رغم الطين المتخثر والملتصق بالأقدام، ورائحة التبن والخيول والقاذورات.

فتح جاك عينيه مجددًا فرأى أنهم يعبرون ما قد يكون مزرعة أو حظيرة ماشية أو ربما مجرد مخزن حبوب، رأى

رواقًا مفتوحًا محاطًا بالقماش، وسمع نقيق دجاج من مكان ما خلفه.

هناك رجل نحيل، عارٍ إلا من تنورة اسكتلندية متسخة وصندل ذو رباط، يلقي بالتبن في حظيرة مفتوحة، مستخدمًا مذراة ذات أسنان خشبية للقيام بالمهمة.

داخل الحظيرة، كان حصان لا يزيد حجمه كثيرًا عن مهر شتلاند(1) ينظر إليهما بنظرة كئيبة.

كانا قد تجاوزا الحظيرة بالفعل عندما استطاع عقل جاك أخيرًا أن يتقبل ما رأته عيناه.. الحصان له رأسان.

"مهلا!" قال، :هل يمكنني أن أنظر إلى الخلف في تلك الحظيرة؟ هذا...»

"لا يوجد وقت."

"ولكن هذا الحصان لديه.."

"ليس لدي وقت،" "قلت." رفع صوته وصاح.. «وإذا وجدتك مستلقيًا مرة أخرى عندما يكون هناك عمل يجب القيام به، فسوف تحصل على ضعف هذا!»

"لن تجدني!" صرخ جاك (في الحقيقة، شعر وكأن هذا المشهد أصبح مملاً بعض الشيء). "أقسم أنك لن تجدني! لقد قلت لك أنني سأكون جيدًا!"

أمامهم مباشرةً، بدت بوابات خشبية طويلة في جدار من

أعمدة خشبية لا يزال لحاءها عالقًا بها، كان أشبه بجدار حصين في فيلم غربي قديم (صنعت والدته بعضًا منها أيضًا). ثُبّتت حوامل ثقيلة في البوابات، لكن القضيب الذي كانت هذه الحوامل تُثبّته لم يكن في مكانه.. كان متكئًا على كومة الخشب إلى اليسار، سميكًا كعارضة سكة حديد.. كانت البوابات مفتوحة لمسافة ست بوصات تقريبًا، أوحى شعورٌ مشوشٌ في ذهن جاك بأنهم شقوا طريقهم حول الجناح إلى جانبه البعيد.

قال القائد بصوت أكثر طبيعية.. «الحمد لله. الآن..."

"أيها القائد"، نادى صوتٌ من خلفهم، كان الصوت خافتًا لكنه مؤثر، عفويًا بشكلٍ خادع... توقف القائد في مكانه، نادى في اللحظة التي كان فيها رفيق جاك ذو الندبة يحاول الوصول إلى البوابة اليسرى لفتحها؛ كأن صاحب الصوت تربص بهم وصولًا لتلك اللحظة تحديدًا.

"ربما سيكون من اللطيف أن تقدمني إلى ... آه... أبنك...»

استدار القائد، واستدار جاك معه.. كان يقف في منتصف منطقة الحظيرة، يبدو مُقلق حتى في هذا المكان الغريب، إنه رجل الحاشية الهزيل الذي كان القائد يخشاه أوزموند.

نظر إليهما بعينين رماديتين داكنتين حزينتين.. رأى جاك شيئًا يتحرك في هاتين العينين، شيئًا عميقًا في داخله.. ازداد خوفه فجأة، شيئًا حادًا، يطعنه. إنه مجنون هذا هو الحدس

الذي قفز إلى ذهنه تلقائيًا، أكثر جنونًا من كعكة فواكه لعينة.

خطا أوزموند خطوتين مرتجلتين نحوهما. كان يمسك بيده اليسرى مقبض سوط ثور ملفوفًا بجلد خام، ضيّق المقبض قليلا ليتحول إلى وتر داكن مرن ملفوف ثلاث مرات حول كتفه، كانت ساق السوط المركزية سميكة كسمك أفعى الجرس الخشبية قرب طرفها، أنجبت هذه الساق المركزية ما يقارب اثني عشر فرعًا أصغر، كل منها من جلد خام منسوج، وكل منها مزود بناتئ معدني بدائي الصنع ولكنه لامع.

شدّ أوزموند مقبض السوط، فانزلقت اللفائف من كتفه مع هسهسة جافة.

حرك المقبض، فانزلقت خيوط الجلد الخام ذات الأطراف المعدنية ببطء في الوحل المتناثر بالقش.

'ابنك؟ كرر أوزموند، ثم خطا خطوة أخرى نحوهما، وفجأة أدرك جاك لماذا بدا هذا الرجل مألوفًا من قبل؟ في اليوم الذي كاد يُختطف فيه، ألم يكن هذا الرجل يرتدي البدلة البيضاء؟

اعتقد جاك أنه ربما كان هو.

3

قام القائد بضم قبضته، ووضعها على جبهته، ثم انحنى إلى الأمام.. وبعد لحظة تردد، فعل جاك نفس الشيء.

قال القائد بتيبس «ابني لويس»، رأى جاك أنه لا يزال منحنيًا، فحول عينيه إلى اليسار، وظل منحنيًا، وقلبه يخفق بشدة.

"شكرًا أيها القائد، شكرًا لك يا لويس.. بارك الله فيك.» عندما لمسه مقبض السوط، كاد جاك أن يصرخ، لكنه استقام منتصبًا، كتم صرخته.

كان أوزموند على بُعد خطوتين فقط الآن، ينظر إلى جاك بتلك النظرة الحزينة الجامحة، يرتدي سترة جلدية وأقراط ماسية، قميص مُجعّد بشكل مبالغ.

رنّ صوت أساوره المبهرجة حول ساعده الأيمن (من طريقة تعامله مع السوط، خمن جاك أنه يستخدم يده اليسرى)، كان شعره مربوطًا للخلف بشريط عريض يبدوا من الساتان الأبيض، كانت تفوح منه رائحتان.. رائحة الجزء العلوي كانت ما أسمته والدته "كل تلك العطور الرجالية"، أي ما بعد الحلاقة، أو الكولونيا، أو أي شيء آخر.. أما رائحة أوزموند فكانت نفاذة وذات تأثير جافًا(2). جعلت جاك يفكر في تلك الأفلام البريطانية القديمة بالأبيض والأسود حيث كان يُحاكم رجل مسكين في محكمة أولد بيلي، في تلك الأفلام دومًا

ما يرتدي القضاة والمحامون الشعر المستعار، وظن جاك أن صناديق الشعور المستعارة ستحمل رائحة أوزموند...

جافة وحلوة وهشة، كأقدم كعكة دونات مطحونة في العالم، لكن تحتها، كانت رائحة غير مرضية، وأكثر انتشارًا.. بدت وكأنها تنبض في وجهه، كانت رائحة العرق المتطاير والأوساخ المتطايرة، رائحة رجل نادرًا ما يستحم، إن استحم أصلًا.

نعم. كان هذا أحد المخلوقات التي حاولت سرقته ذلك اليوم.

انقبضت معدته وتقلصت، قال أوزموند «لم أكن أعلم أن لديك ابنًا يا قائد فارين». ورغم حديثه مع القائد، إلا أن عينيه ظلتا مثبتتين على جاك.. فكر لويس، أنا لويس، لا تنسَ...

أجاب القائد، ناظرًا إلى جاك بغضب وازدراء «ليتني لم أكن أعرف.. أكرمه بإحضاره إلى الجناح الكبير، ثم يتسلل كالكلب، لقد ضبطته يلعب في...»

قال أوزموند مبتسمًا ابتسامة خفيفة «أجل، أجل». لم يُصدق كلمة واحدة، فكّر جاك بجنون، وشعر بعقله يخطو خطوة أخرى خرقاء نحو الذعر.. بلا أدنى شك! "الأولاد سيئون.. كل الأولاد سيئون.. هذا أمر بديهي.»

ضرب جاك برفق على معصمه بمقبض سوط الثور، صرخ جاك، وقد توترت أعصابه إلى درجة لا تُطاق... واحمرّ وجهه

فورًا من خجل شديد.

ضحك أوزموند. "سيئ، أجل، هذا بديهي، كل الأولاد سيئون. كنتُ سيئًا؛ وأراهن أنك كنتَ سيئًا يا قائد فارين. هاه؟ هاه؟ هل كنتَ سيئًا؟"

"نعم يا أوزموند"، رد القائد.

"سيئ جدًا؟" سأل أوزموند.

وبشكل لا يصدق بدأ يرقص في الوحل، ولم تكن هناك أي نعومة فيما يفعل فأوزموند نحيفًا ورقيقًا بعض الشيء، لكنه لم يبدوا لجاك مثلي الجنس؛ وإن دلت كلماته على ذلك.. فلقد شعر جاك أنها جوفاء.. لا، ما ظهر بوضوح هنا هو لمحة من الخبث... والجنون. "سيئ جدًا؟ سيء للغاية؟"

"نعم يا أوزموند"، رد القائد فارين ببرود. توهجت ندبته في ضوء الظهيرة، احتقن لونها الوردي فباتت أشد حُمرة.. توقف أوزموند عن رقصته الصغيرة المرتجلة فجأةً كما بدأها، نظر إلى القائد ببرود.

"لم يكن أحد يعلم أن لديك ابنًا يا قائد."

"إنه وغد،" قال القائد.. "وساذج، بل وكسول أيضًا، كما اتضح الآن.» استدار فجأة وصفع جاك على جانب وجهه.. لم تكن الضربة قوية، لكن يد القائد فارين كانت قاسية كالطوب، عوى جاك وسقط في الوحل، ممسكًا بأذنه.

"سيئ جدًا، سيئ للغاية،" قال أوزموند، لكن وجهه الآن

أصبح شاحبًا، رقيقًا وكتومًا. "انهض أيها الفتى الشرير.. يجب معاقبة الأولاد السيئين الذين يعصون آباءهم، ويجب استجواب الأولاد السيئين.» رمى بالسوط جانبًا، فأصدر صوت فرقعة جافة.. وجد عقل جاك المترنح رابطًا غريبًا آخر حيث ظن لاحقًا أنه يسعى إلى الوطن بكل الوسائل التي يعرفها، كان صوت سوط أوزموند أشبه بفرقعة بندقية ديزي الهوائية التي كان يمتلكها في الثامنة من عمره، هو وريتشارد سلوت امتلكا بنادق مماثلة.

مد أوزموند يده البيضاء الشبيهة بالعنكبوت وأمسك بذراع جاك الموحلة، جذب جاك نحوه، إلى تلك الروائح المسحوق الحلو العتيق والقذارة الفاسدة القديمة.

حدقت عيناه الرماديتان الغريبتان بجدية في عيني جاك الزرقاوين، فشعر جاك بثقل في مثانته، وكافح جاهدًا كي لا يبلل سرواله.

سأله أوزموند "من أنت؟".

4

علقت الكلمات في الهواء فوق الثلاثة، أدرك جاك أن خلف نظرة القائد الصارمة تجهه يأس لم يستطع إخفائه، سمع نقيق دجاجات، ونباح كلب، وهدير عربة كبيرة قادمة من مكان ما.

قل لي الحقيقة؛ سأعرف الكذب، قالت عيناه.. تبدو كصبي سيء التقيته أول مرة في كاليفورنيا، هل أنت ذلك الصبي؟

وللحظة، ارتجف كل شيء على شفتيه..

جاك، نعم أنا جاك سوير، ابن كاليفورنيا، ملكة هذا العالم كانت أمي، فقط أنا مت، وأعرف رئيسك، وأعرف مورغان - عم مورغان – وبالتأكيد سأخبرك بأي شيء تريده لو توقفت عن النظر إليّ بتلك العيون المرعبة، لأنني ما زلت طفلاً، وهذا ما يفعله الأطفال، يخبرون، يخبرون بكل شيء.

ثم سمع صوت أمه، صارمًا بسخرية..

هل ستكشف سرك لهذا الرجل يا جاكي؟ هذا الرجل؟ رائحته كرائحة عطور الرجال المتعثرين التي تباع في موسم التخفيضات، ويبدو كنسخة تشارلز مانسون في العصور الوسطى... لكنك أعلم بذاتك.. يمكنك خداعه بسهولة وبلا أي مجهود، لكن أفعل ما يناسبك.

"من أنت؟" سأل أوزموند مرة أخرى، واقترب أكثر، وعلى وجهه رأى جاك الآن ثقة تامة.. لقد اعتاد الحصول على

الإجابات التي يريدها من الناس ... وليس فقط من الأطفال الذين يبلغون من العمر اثنتي عشر عامًا أيضًا.

أخذ جاك نفسًا عميقًا مرتجفًا (عندما تريد الوصول لأعلى طيقة صوتية، ليصل لصف الشرفات الأخير.. عليك إخراجه من الحجاب الحاجز يا جاكي. إنه يمر عبر صندوق الصوت القديم في طريقه إلى الأعلى)

ثم صرخ «كنت سأعود فورًا! صدقني!»

أوزموند، الذي كان يميل إلى الأمام أكثر تحسبًا لسماع همسة ضعيفة، تراجع كما لو أن جاك مدّ يده فجأة وصفعه.. داس على ذيول سوطه الجلدية الخام المتدلية بقدمه المرتعشة، وكاد أن يتعثر بها.

"أيها الصبي اللعين"

"كنت سأفعل! من فضلك لا تجلدني يا أوزموند.. كنت سأعود! لم أرغب أبدًا في المجيء إلى هنا.. لم أرغب أبدًا.. لم أرغب أبدًا."

اندفع القائد فارين للأمام وضربه على ظهره فسقط جاك على الأرض في الوحل، وهو مازال يصرخ.

"إنه ساذج كما أخبرتك"، سمع القائد يقول.. "أعتذر يا أوزموند، كن على يقين أنه سيُضرب حتى الموت، إنه..."

" ما الذي يفعله هنا أصلًا؟" صرخ أوزموند.. بصوت عالٍ خبيث كزوجة بائع السمك "ما الذي يفعله هذا الوغد الأحمق

هنا أصلًا؟ لا تُرِني تصريحه! أعلم أنه لا يملك تصريحًا! لقد أدخلته خلسةً ليتناول الطعام على مائدة الملكة... ليسرق فضة الملكة، كل ما أعرفه... أنه سيء... نظرة واحدة تكفي ليعلم أي شخص أنه سيء للغاية، لا يُطاق، ولا شك في ذلك!"

نزل السوط مرة أخرى، وهذه المرة ليس بوقع هيّن كبندقية ديزي الهوائية، بل بصوتًا عاليًا ونقيًا كصوت بندقية عيار 22، وفي الوقت الذي فكر جاك فيه عما سيؤول إليه مصيره، خدشت يد كبيرة ملتهبة ظهره.. بدا الألم وكأنه يغوص في لحمه، لم يخف بل اشتد، كان الألم حارًا ومُزعجًا، وأخذ يصرخ ويتلوى في الوحل.

' سيء! سيء للغاية! سيء بلا شك !'

كل «سيء» كان يتخلله صوت فرقعة سوط أوزموند، وبصمة يد نارية أخرى، وصرخة أخرى لجاك. بات ظهره يحترق، لم يكن يدري لكم من الوقت سيستمر... بدا أوزموند وكأنه يُدخل نفسه في نوبة غضب أشد مع كل ضربة، ولكن فجأةً صاح صوت جديد «أوزموند! أوزموند! ها أنت ذا! الحمد لله !»

ضجيج خطوات الجري..

صوت أوزموند، غاضبًا ومنقطع النفس قليلًا «حسنًا؟ حسنًا؟ ما الأمر؟»

أمسكت يدٌ بمرفق جاك وساعدته على الوقوف، وعندما

ترنح، انزلقت الذراع المُلتصقة باليد حول خصره وساندته.. كان من الصعب تصديق أن القائد، الذي كان بتلك الصلابة والعالم يكاد أن يتلاشى حوله، سالت قطرات من دم دافئ على ظهره. نظر إلى أوزموند بكراهية مستعره، ومن الجيد أنه شعر بتلك الكراهية، فهي خير ترياقًا للحد من آثار مشاعر الخوف والارتباك.

لقد فعلتَ ذلك.. لقد آذيتني، جرحتني.. استمع إليّ أيها المتراقص، لو سنحت لي الفرصة سأرد لك الجميل...

" هل أنت بخير؟" همس القائد.

"نعم."

"ماذا؟" صرخ أوزموند في وجه الرجلين اللذين قاطعا جلد جاك.

كان الأول أحد الرجال الأنيقين الذين مرّ بهم جاك والقائد في طريقهما إلى الغرفة السرية. أما الآخر، فكان يشبه إلى حد ما سائق العربة الذي رآه جاك فور عودته إلى الأراضي، بدا هذا الرجل مرعوبًا للغاية، ومُصابًا أيضًا.. كان الدم يسيل من جرح في الجانب الأيسر من رأسه، وقد غطى معظم الجانب الأيسر من وجهه. كانت ذراعه اليسرى مجروحة، وسترته ممزقة. «ماذا تقول أيها الأحمق؟»

عربتي عند المنعطف على الجانب البعيد من قرية «أول هاندز»، قال السائق. وأخذ يتحدث ببطء وذهول، كشخص

في حالة صدمة عميقة.. "تنورة(3) ابني، يا سيدي. الذي شحق حتى الموت تحت البراميل.. لقد كان في السادسة عشرة من عمره فقط في عيد المزرعة في مايو الماضي، والدته..."

"ماذا؟" صرخ أوزموند مجددًا. براميل؟ بيرة؟ ليست كينغزلاند؟ ألا تقصد أن تخبرني أنك قلبت عربة مليئة ببيرة كينغزلاند، أيها الأحمق؟ ألا تقصد أن تخبرني بذلك، أليس كذلك؟

ارتفع صوت أوزموند عند الكلمة الأخيرة كصوت رجل يسخر بوحشية من مغنية أوبرا، تمايك وتغنى، وفي نفس الوقت، عاد يرقص مجددًا... ولكن بغضب هذه المرة.

كان هذا المزيج غريبًا لدرجة أن جاك اضطر لرفع يديه ليكبح ضحكة لا إرادية، تسببت هذه الحركة في احتكاك قميصه بظهره المتورم، مما أعاده إلى وعيه حتى قبل أن يتمتم القائد بكلمة تحذير.

بصبر، وكأن أوزموند قد أغفل الحقيقة المهمة الوحيدة (وهذا ما بدا له)، بدأ السائق حديثه مجددًا "كان عمره ستة عشر عامًا فقط في يوم المزرعة في مايو الماضي. لم ترغب والدته في أن يرافقني. لا أستطيع أن أتخيل ما ..."

رفع أوزموند سوطه وضربه بقوة هائلة، وفي لحظة واحدة وهن السوط من يده اليسرى وأخذت ذيوله الجلدية تتدلى

في الوحل؛ في اللحظة التالية، سمع صوت فرقعة سوط، ليس كصوت بندقية عيار 22، بل أشبه بصوت بندقية لعبة، فتراجع السائق مترنحًا، يصرخ، لاطمًا على وجهه، سالت دماء جديدة من بين أصابعه المتسخة ثم سقط أرضًا، صارخًا «يا سيدي! يا سيدي! يا سيدي!» بصوت مكتوم متحشرج.

تأوه جاك "لنخرج من هنا. بسرعة!"

"انتظر"، قال القائد، وبدا أن الكآبة غادرت وجهه قليلًا، ربما لمح الأمل في عينيه.

استدار أوزموند نحو الرجل الأنيق، الذي تراجع خطوة إلى الوراء، وكان فمه الأحمر الغليظ يتحرك.

"هل كانت كينغزلاند؟" هتف أوزموند.

"أوزموند، لا يجب أن تُرهق نفسك هكذا..."

رفع أوزموند معصمه الأيسر للأعلى، فاصطدمت ذيول السوط المصنوعة من الجلد الخام ذات الأطراف الفولاذية بحذاء الرجل الأنيق، فتراجع خطوة أخرى إلى الوراء.

لا تُخبرني بما يجب عليّ فعله أو لا أفعله، قال. أجب فقط على أسئلتي.. أنا منزعج يا ستيفن، منزعجٌ للغاية، لا شك في ذلك.. هل كان ذلك بسبب كينغزلاند؟

" نعم،" قال ستيفن.. "يؤسفني أن أقول ذلك، ولكن.."

" على طريق البؤرة الاستيطانية؟"

"أوزموند"

" على طريق البؤرة الاستيطانية، أيها الأحمق؟"

" نعم،" رد ستيفن وهو يبتلع ريقه.

"بالتأكيد،" قال أوزموند، وقد شقّت ابتسامة بيضاء بشعة وجهه النحيل.. «أين قرية أول هاندز، إن لم تكن على طريق البؤرة الاستيطانية؟ هل يمكن لقرية أن تطير؟ هاه؟ هل يمكن لقرية أن تطير بطريقة ما من طريق إلى آخر يا ستيفن؟ هل يمكن ذلك؟ هل يمكن ذلك؟»

" لا، أوزموند، بالطبع لا."

"لا.. إذن، هناك براميل في كل مكان في طريق البؤرة الاستيطانية، أليس كذلك؟ هل يصحّ لي افتراض وجود براميل وعربة بيرة مقلوبة تسد طريق البؤرة الاستيطانية بينما تتسرب أفضل أنواع البيرة في الأراضي إلى الأرض لتستمتع بها ديدان الأرض؟ هل هذا صحيح؟"

"نعم...نعم. ولكن.."

"مورغان قادم من طريق البؤرة الاستيطانية!" صرخ أوزموند.. "مورغان قادم، وأنتم تعرفون كيف يقود خيوله! إذا انحرف عن مساره وسقط في تلك الفوضى، فقد لا يجد سائقه وقتًا للتوقف! قد ينقلب! قد يُقتل!"

قال ستيفن، بكلمة واحدة: «يا إلهي!»، شحب وجهه الشاحب درجتين.

أوماً أوزموند ببطء. «أعتقد أنه إذا انقلبت مركبة مورغان، فسيكون من الأفضل لنا جميعًا أن نصلي من أجل موته بدلاً من شفائه.»

"ولكن..ولكن.."

استدار أوزموند عنه وكاد يركض عائدًا إلى حيث يقف قائد الحرس الخارجي مع ابنه.

خلف أوزموند، كان السائق التعيس لا يزال يتلوى في الوحل، ويتمتم يا إلهى.

لامست عينا أوزموند جاك ثم تفحصتاه كما لو أنه لم يكن موجودًا ثم قال "قائد فارين، هل تابعت أحداث الدقائق الخمس الماضية؟"

" نعم، أوزموند."

"هل تتبعتهم عن كثب؟ هل التقطتهم؟ هل التقطتهم عن كثب؟»

"نعم، أعتقد ذلك."

"أتظن ذلك؟ يا لك من قائد ممتاز.. أيها القائد! سنتحدث أكثر، على ما أعتقد، عن كيف استطاع قائد ممتازٌ مثلك أن يُنجب ابنًا صغيرًا مثله.

لامست عيناه وجه جاك ببرودة.

لكن لا وقت لذلك الآن، أليس كذلك؟ لا، أقترح أن تستدعي

اثني عشر من أقوى رجالك وأن تُضاعف سرعتهم.. لا، ضاعفها ثلاث مرات إلى طريق البؤرة الاستيطانية، ستتمكن من الوصول، إلى موقع الحادث، أليس كذلك؟

نعم، أوزموند.

نظر أوزموند بسرعة إلى السماء. «من المتوقع وصول مورغان في السادسة مساءً، ربما قبل ذلك بقليل.. الساعة الآن الثانية، أقول الثانية. هل تقول الثانية يا قائد؟» نعم يا أوزموند.

وماذا تقول أيها الحقير؟ ثلاثة عشر؟ ثلاثة وعشرون؟ واحد وثمانون؟

فغر جاك فاه، عبس أوزموند بازدراء، وشعر جاك بموجة كراهيته تتصاعد من جديد.

لقد آذيتني، وإن سنحت لي الفرصة...!

نظر أوزموند إلى القائد. «أمامك من الوقت حتى الخامسة مساءً، أقترح عليك أن تبذل قصارى جهدك لإنقاذ ما تبقى من البراميل، بعد الخامسة، أقترح عليك ببساطة إخلاء الطريق بأسرع ما يمكن.. هل فهمت؟»

"نعم يا أوزموند."

"إذن اخرج من هنا."

وضع القائد فارين قبضة يده على جبهته وانحنى.

ففر جاك فاه بغباء، ولا يزال يكره أوزموند بشدة لدرجة أن عقله بدا وكأنه ينبض، ففعل الشيء نفسه. ابتعد أوزموند عنهم قبل أن تبدأ التحية، أخذ يسير عائدًا نحو السائق، يُصدر صوتًا يشبه صوت بندقية ديزي الهوائية.

سمع السائق خطوات أوزموند فبدأ بالصراخ.

قال القائد، وهو يجذب ذراع جاك للمرة الأخيرة "هيا، لا تريد أن ترى هذا."

قال جاك "لا، يا إلهي، لا."

ولكن بينما دفع القائد فارين البوابة اليمنى وغادرا الجناح أخيرًا، سمع جاك أصوات صفير بنادق كاربين الواحدة تلو الأخرى يتبع كل منها صرخة من السائق المنكوب، والتي ترددت من جديد في أحلامه تلك الليلة، كان أوزموند يُصدر صوتًا..

أمام الرجل متقطع الأنفاس، اللاهث..

كان من الصعب تحديد ماهية ذلك الصوت بالضبط، دون أن يلتفت لينظر إلى وجهه، وهو أمر لم يُرد جاك فعله...

مع ذلك.. كان متأكدًا تمامًا من أنه يدرك.

أن أوزموند يضحك.

5

أصحبا الآن في الساحة العامة لساحة الجناح.

ألقى المارة نظرة على القائد فارين من زوايا أعينهم ... ووسعوا له الطريق.

سار القائد بخطى سريعة، ووجهه مشدود ومظلم من التفكير...

اضطر جاك للركض بسرعة حتى يتمكن من اللحاق به.

قال القائد فجأةً «كنا محظوظين.. محظوظون للغاية.. أعتقد أنه كان ينوي قتلك." حدّق جاك فيه، بفم جاف شاعرًا بالحرقة.. "إنه مجنون، كما رأيت.. مجنونٌ كرجلٍ يطارد الكعكة.»

لم يكن لدى جاك أدنى فكرة عمّا قد يعنيه ذلك، لكنه وافق على أن أوزموند مجنون.

"ماذا..."

"انتظر"، قال القائد بعدما وصلا عند الخيمة الصغيرة التي أخذ القائد جاك إليها بعد رؤية سن القرش، "قف هنا وانتظرني.. لا تتحدث مع أحد."

دخل القائد الخيمة، وقف جاك يراقب وينتظر.. مرّ به لاعب خفة، ألقى عليه نظرة خاطفة، لكنه لم يفقد إيقاعه وهو يرمي ست كرات في نمط معقد وخفيف، يتبعه مجموعة من

الأطفال المتسخين كما كان الأطفال يتبعون عازف المزمار خارج هاملين...

أخبرته شابة تحمل طفلاً متسخًا على صدرها الضخم أنها تستطيع تعليمه شيئًا ما يتعلق بطفله الصغير، والسماح له بالتبول به، إذا كان لديه عملة أو اثنتين.. أحتقن وجه جاك وأشاح بنظره بعيدًا بإنزعاج...

نادت الفتاة ضاحكة «أوه، هذا الشاب الجميل خجول! تعالي إلى هنا يا جميلة! تعالي..."

"اخرجي أيتها العاهرة، وإلا ستقضين يومكِ في المطبخ السفلي."

كان القائد قد خرج من الخيمة رفقة رجل آخر، كان هذا الرجل الثاني عجوزًا وبدينًا، لكنه يشترك في سمة واحدة مع فارين حيث يبدو كجندي حقيقي لا جندي من جيلبرت وسوليفان، أخذ يحاول تثبيت الجزء الأمامي من زيه الرسمي فوق بطنه المنتفخ بينما هو يمسك في ذات الوقت بآلة موسيقية مجعدة تشبه البوق الفرنسي.

انطلقت الفتاة حاملة الطفل القذر بعيدًا دون أن تنظر إلى جاك مرة أخرى، أخذ القائد بوق الرجل البدين ليُكمل ربط أزرار قميصه، ثم تبادل معه كلمة أخرى، أومأ الرجل البدين، وانتهى من قميصه، ثم استعاد بوقه، ثم انطلق بعيدًا وهو ينفخ فيه.

لم يكن الصوت يشبه الأصوات التي سمعها جاك في أول رحلة له إلى الأراضي؛ فقد كانت تلك أبواقًا كثيرة، وكان صوتها مُبهرجًا نوعًا ما كأبواق المبشرين.

إن هذا الصوت أشبه بصافرة مصنع، تُعلن عن العمل الذي يتعين القيام به.

عاد القائد إلى جاك.

"تعال معي"، قال.

"إلى أين؟"

"طريق البؤرة الاستيطانية"، قال القائد فارين، ثم ألقى نظرة متسائلة، نصف خائفة، على جاك سوير.. "ما كان يُسميه جد والدي الطريق الغربي، يمتد غربًا عبر قرى أصغر فأصغر حتى يصل إلى البؤر الاستيطانية، ما وراء البؤر الاستيطانية، يقود إلى اللا مكان... أو إلى الجحيم.. إذا كنت ذاهبًا غربًا، فستحتاج إلى الله معك يا فتى، لكنني سمعت أنه لا يغامر هو نفسه أبدًا بما يتجاوز البؤر الاستيطانية... هيا.."

تزاحمت ملايين الأسئلة داخل عقل جاك، لكن القائد كان سريعًا للغاية فلم يملك الوقت الكافي لطرحها.. شقا طريقهما جنوب الجناح الكبير، ومرّا بالمكان الذي انقلب فيه رأسًا على عقب عائدًا من الأراضي، اقتربت مدينة الملاهي الريفية الآن استطاع جاك سماع بائع متجول يُغري الزبائن بتجربة حظهم على «ووندر ذا ديفل دونكي»؛

صرخ البائع «إن البقاء دقيقتين يعني الفوز بجائزة»، هب صوته مع نسيم البحر بوضوح تام، وكذلك رائحة الطعام الساخن الشهية، ذرة مشوية ولحم هذه المرة قرقرت معدة جاك، الآن، وقد ابتعد بأمان عن أوزموند العظيم والرهيب، صار جائعًا للغاية.

قبل أن يصلا إلى المعرض، اتجها يمينًا على طريق أوسع كثيرًا من الطريق الذي يؤدي إلى الجناح الكبير. «طريق البؤرة الاستيطانية»، ثم فكّر جاك، وقد انتابه قليل من الخوف والترقب، صحّح نفسه قائلًا «لا... الطريق الغربي.. الطريق إلى التعويذة"، ثم عاد يُسرع خلف القائد فارين.

6

كان أوزموند محقًا؛ عليهم الاعتماد على حدسهم بدلًا من الاعتماد على خطة محددة أو توجيهات خارجية، إن لزم الأمر.

كانوا لا يزالون على بُعد ميل واحد من القرية التي تحمل ذلك الاسم الغريب عندما هبّت عليهم أول رائحة حامضة من البيرة المسكوبة مع النسيم، كانت حركة المرور المتجهة شرقًا على الطريق كثيفة، معظمها عربات تجرها فرق من الخيول المضطربة (رغم ذلك، ليس لأي منها رأسان).

أما عن العربات، كما افترض جاك، فهي من طراز دايموند ريو وبيتربيلت لهذا العالم، بعضها مُكدسًا بالأكياس والبالات والأجولة، وبعضها باللحم النيء، وبعضها بأقفاص دجاجات ثُنقنق.

على مشارف قرية «أول هاندز»، اندفعت عربة مفتوحة مليئة بالنساء بسرعة مُقلقة، كانت النساء يضحكن ويصرخن ثم نهضت إحداهن، ورفعت تنورتها حتى فخذها المُشعر، وبدأت ترقص وتهز مؤخرتها وساقيها بعنف حتى كادت أن تسقط على جانب العربة وتقع في الحفرة وربما انكسرت رقبتها لو لم يمسكها أحد زملائها من مؤخرة تنورتها ويسحبها إلى أسفل بوقاحة.

احتقن وجه جاك مرة أخرى حين رأى صدر الفتاة الأبيض،

وحلمته في فم الطفل المتسخ.. أوه، إنه الشاب الجميل الخجول!

"يا إلهي!" تمتم فارين، وهو يمشي أسرع من أي وقت مضى.. «كانوا جميعًا ثملين! تسربوا من كينغزلاند! العاهرات والسائق كلاهما! إنه يميل إلى تحطيمهن على الطريق أو دفعهن من على منحدرات البحر لن تكن خسارة كبيرة.. عاهرات موبوءات!"

"على الأقل،" قال جاك وهو يلهث، "لا بد أن الطريق خالٍ إلى حد ما، إن مر هذا الزحام. أليس كذلك؟"

أصبحوا في قرية أول هاندز الآن، تم تزييت الطريق الغربي الواسع هنا لإزالة الغبار، أخذت العربات تجيء وتذهب والناس يعبرون الشارع، وبدا أن الجميع يتحدثون بصوت عالٍ جدًا، رأى جاك رجلين يتشاجران خارج ما هو من المحتمل أن يكون مطعمًا ثم فجأة، لكم أحدهما الآخر، بعد لحظة، كان الرجلان يتدحرجان على الأرض. فكّر جاك «ليست تلك العاهرات وحدهن السكارى في كينغزلاند.. أعتقد أن كل شخص في هذه المدينة قد أخذ نصيبه».

قال القائد فارين «جميع العربات الكبيرة التي مرّت بنا أتت من هنا، قد تكون بعض العربات الصغيرة قادرة على المرور، لكن اجتهاد مورغان ليس بالقليل يا بني».

"مورغان..."

"لا تقلق بشأن مورغان الآن».

ازدادت حدة رائحة البيرة مع مرورهما في وسط القرية وخروجهما من الجانب الآخر، كانت ساقا جاك تؤلمانه وهو يكافح لمواكبة القائد، خمن أنهما قطعا الآن حوالي ثلاثة أميال.

كم تبعد هذه المسافة في عالمي؟ فكّر، وجعلته هذه الفكرة يتذكر في عصير سبيدي السحري.. تحسس بجنونٍ قميصه القصير، مقتنعًا أنه لم يعد موجودًا، لكنه كان موجودًا، مثبتًا بإحكام داخل لباسه الداخلي من «تريتوريز» الذي حلّ محلّ شورت «جوكي» الخاص به.

بمجرد وصولهم إلى الجانب الغربي من القرية، هدأت حركة العربات، لكن حركة المشاة المتجهة شرقًا زادت بشكل كبير، معظم المشاة يتمايلون ويترنحون ويضحكون وتفوح منهم جميعًا رائحة البيرة، وبعض منهم، كانت ملابسهم تقطر، كما لو كانوا قد استلقوا بها بالكامل وشربوا منها كالكلاب، ظن جاك أنهم فعلوا ذلك.. رأى رجلاً ضاحكًا يقود صبيًا ضاحكًا ربما في الثامنة من عمره، كان الرجل يحمل يشبه موظف الاستقبال البغيض في قصر الحمراء بشكلٍ مفزع، وفهم جاك بوضوح تام أن هذا الرجل هو توأم ذلك الرجل، كان هو والصبي الذي يقوده باليد ثملين، وبينما استدار جاك ليراقبهما، بدأ الصبي الصغير يتقيأ فسحبه والده - أو هكذا ظن جاك - بقوة من ذراعه بينما حاول الصبي شق طريقه إلى الخندق المليء

بالأشجار، حيث يمكنه التقيؤ بخصوصية نسبيًا، عاد الصبي إلى والده كالكلب الصغير المربوط بسلسلة قصيرة، وتقيأ على رجلاً مسناً سقط على جانب الطريق وغط في نوم عميق.

ازداد وجه القائد فارين سواداً، قال «لعنة الله عليهم جميعاً».

حتى أولئك الذين كانوا أبعد ما يكونون عن الركب منحوا القائد ذي الندوب مساحة واسعة وحذرة، أثناء وجوده في مركز الحراسة خارج الجناح، كان قد لفّ غمداً جلدياً قصيراً وجميلاً حول خصره. افترض جاك (وليس من باب المزاح) أنه يحتوي على سيف قصير وجميل، وعندما يقترب منهما أي سكير، يلمس القائد السيف فينحرف السكارى بسرعة.

بعد عشر دقائق وبينما أيقن جاك إنه لم يعد قادرًا على المواكبة.. وصلوا إلى موقع الحادث، كان السائق يحاول الخروج من المنعطف الداخلي عندما مالت العربة وانقلبت.. ونتيجة لذلك، تناثرت البراميل على طول الطريق، تحطم العديد منها، كان الطريق عبارة عن مستنقعًا بطول عشرين قدمًا، سقط حصان ميتًا تحت العربة، ولم يظهر منه سوى مؤخرته، سقط حصان آخر في الخندق، وبرزت من أذنه قطعة مكسورة من خشب البرميل، لم يعتقد جاك أن ذلك قد حدث بالصدفة.. ظن أن الحصان قد أصيب بجروح بالغة وأن أحدهم أنقذه من بؤسه بأقرب وسيلة متاحة.. أما الخيول الأخرى فلم تكن موجودة في أي مكان.

بين الحصان تحت العربة والحصان الموجود في الخندق، رقد ابن سائق العربة، ممددًا على الطريق، نصف وجهه يحدق في سماء الأراضي الزرقاء الزاهية بتعبير من الدهشة الحمقاء.. أما المكان الذي كان فيه النصف الآخر فلم يكن سوى عجينة حمراء وشظايا عظام بيضاء كبقع الجص.

رأى جاك أن جيوبه قد فرغت تمامًا..

كان يتجول في مكان الحادث نحو اثني عشر شخصًا، يسيرون ببطء، وغالبًا ما ينحنون لالتقاط البيرة بأيديهم من أثر حافر أو لغمس منديل أو قطعة ممزقة من قميص داخلي في بركة أخرى، معظمهم كان يترنح.. بينما ارتفعت أصوات الضحكات والصرخات المشاكسة.

بعد كثير من الإلحاح، سمحت والدة جاك له بالذهاب مع ريتشارد لمشاهدة فيلمين في منتصف الليل هما «ليلة الموتى الأحياء» و«فجر الموتى» في إحدى دور السينما في ويستوود، التي يبلغ عددها نحو اثني عشر دارًا. ذكّره الناس المتجولون السكارى هنا بالزومبي في هذين الفيلمين!

سحب القائد فارين سيفه، كان قصيرًا وعمليًا كما تخيله جاك، نقيض السيف في الروايات الرومانسية تمامًا.. لم يكن أكثر من سكين جزار طويلة، مثقوبة ومخدوشة ومشوهة، ومقبضها ملفوف بجلد قديم تعرق حتى أصبح داكنًا بل إن النصل نفسه داكنًا... باستثناء شفرته القاطعة، بدا ماهرًا وحادًا للغاية.

"ابتعدوا إذن!" صاح فارين.. «ابتعدوا عن جعة الملكة أيها المدمنون! ابتعدوا وحافظوا على أحشائكم حيث تنتمي!». استقبلته صيحات الاستياء، لكنهم جميعًا ابتعدوا عن القائد فارين باستثناء رجل ضخم ذي خصلات شعر تنمو عشوائيًا من جمجمته الصلعاء، خمّن جاك وزنه بما يقارب ثلاثمائة رطل، وطوله أقل بقليل من سبعة أقدام.

"هل أعجبتك فكرة مواجهتنا جميعًا أيها الجندي؟» سأل هذا العملاق، ولوّح بيده المتسخة لمجموعة القرويين الذين ابتعدوا عن مستنقع الجعة وأكوام البراميل بأمر فارين.

"بالتأكيد"، قال القائد فارين، وابتسم للرجل الضخم.. «أنا سعيد بذلك، طالما أنك أول من يبدأ، أيها الثمل الضخم.» اتسعت ابتسامة فارين، وتلعثم الرجل الضخم أمام قوتها الخطيرة.. «تعالَ إليّ إن شئتَ، سيكون تقطيعك أول خيرٍ لي طوال اليوم.»

تمتم العملاق الثمل، وابتعد.

"الآن، جميعكم!" صرخ فارين.. "انصرفوا! هناك اثنا عشر من رجالي انطلقون للتو من جناح الملكة! لن يكونوا راضين عن هذه المهمة، ولا ألومهم ولن أستطيع أن أكون مسؤولاً عما سيفعلونه! أعتقد أن لديكم الوقت الكافي للعودة إلى القرية والاختباء في أقبية بيوتكم قبل وصولهم! من الحكمة فعل ذلك! انصرفوا!"

أخذوا يتدفقون عائدين إلى قرية «أول هاندز»، الرجل الضخم الذي تحدى القائد في شاحناتهم.

تنهد فارين ثم عاد إلى موقع الحادث، خلع سترته وغطى بها وجه ابن سائق العربة ثم قال فارين متأملاً «أتساءل أيهما سرق جيوب الفتى وهو يرقد ميتاً أو يحتضر في المرسى.. لو عرفتهم، لأمرتُ بتعليقهم على الصليب عند حلول الليل.»

لم يُجب جاك.

وقف القائد ينظر إلى الصبي الميت طويلاً، يفرك بيده جلد الندبة الناعم والمُخَدّد فوق وجهه.. عندما نظر إلى جاك، بدا وكأنه قد أفاق للتو.

"عليك أن تغادر الآن يا فتى، فوراً.. قبل أن يُقرر أوزموند التحقيق في أمر ابني الأحمق أكثر.»

"ما مدى سوء وضعك؟" سأل جاك.

ابتسم القائد قليلاً.. «إذا رحلت، فلن أواجه أي مشكلة، يُمكنني القول إنني أعدتك إلى والدتك، أو أنني اجتاحني الغضب وضربتك بقطعة خشب وقتلتك.. سيُصدق أوزموند أيًا منهما إنه مُشتت.. جميعهم كذلك.» إنهم ينتظرون موتها، سيحدث ذلك قريبًا.. إلا إذا...

لم يُكمل كلامه.

"اذهب،" قال فارين.. "لا تتأخر، وعندما تسمع عربة مورغان قادمة، انزل عن الطريق وتوغّل في الغابة عميقًا.. وإلا

سيشمّك كما تشم القطة الفأر.. إنه يعرف فورًا إن كان هناك خلل، هذا نظامه.. إنه شيطان.»

"هل سأسمعها قادمة؟ عربته؟» سأل جاك بخجل، نظر إلى الطريق خلف كومة البراميل.. كان يرتفع بثبات، نحو حافة غابة صنوبرية المكان هناك مظلم، فكّر... ومورغان قادم من الاتجاه الآخر.

امتزج الخوف والوحدة في أشدّ موجة تعاسة عرفها في حياته وأكثرهم إحباطًا. «سبيدي، لا أستطيع فعل هذا! ألا تعرف ذلك؟ أنا مجرد طفل!»

قال فارين "يُجرّ عربة مورغان ستة أزواج من الخيول، وحصانٌ ثالث عشر يقودهم بأقصى سرعة، يُسمع صوت عربة النعش اللعينة كصوت رعدٍ يهزّ الأرض. ستسمعه، لا بأس.. هناك متسع من الوقت للاختباء فقط تأكد من ذلك».

همس جاك بشيء.

"ماذا؟" سأل فارين بحدة.

قال جاك بصوت أعلى قليلاً: «قلتُ إنني لا أريد الذهاب». كانت الدموع تسيل بغزارة، وكان يعلم أنه ما إن تبدأ بالتساقط حتى يفقد أعصابه، فقد رباطة جأشه تمامًا، طلب من القائد فارين أن يُخرجه من هذا الموقف، أن يحميه...

قال القائد فارين «أعتقد أن الوقت قد فات على أن تُدخل رغباتك في هذا الأمر، لا أعرف قصتك يا فتى، ولا أريد ذلك..

لا أريد حتى أن أعرف اسمك".

وقف جاك ينظر إليه، كتفاه منخفضتان، وعيناه تحترقان، وشفتاه ترتجفان.

"ارفع كتفيك!"

صرخ فارين في وجهه بغضب مفاجئ.. «من ستنقذ؟ إلى أين أنت ذاهب؟ ليس عشرة أقدام، بهذا الشكل! أنت صغير جدًا على أن تكون رجلاً، لكن يمكنك على الأقل التظاهر، أليس كذلك؟ تبدو ككلب تم ركله!".

شعر جاك باللطمة، فقام بتقويم كتفيه ومسح دموعه.

وقعت عيناه على بقايا ابن السائق وفكر.. على الأقل لست كذلك، ليس بعد. إنه محق.. الشعور بالأسف على نفسي رفاهية لا أستطيع تحملها، كان هذا صحيحًا. ومع ذلك، لم يستطع إلا أن يكره القائد ذو الندبة قليلاً لأنه تسلل إلى أعماقه وضغط على الأزرار الصحيحة بسهولة.

"أفضل،" قال فارين بجفاف.. «ليس كثيرًا، ولكن قليلًا.»

"شكرًا،" قال جاك ساخرًا.

"لا يمكنك البكاء يا فتى، أوزموند خلفك وسيكون مورغان خلفك قريبًا أيضًا، وربما..» ربما توجد مشاكل أينما حللت أيضًا، لكن خذ هذه.. لو أرسلك باركوس إليّ، لأراد مني أن أعطيك هذه، لذا خذها، وانصرف.

كان يمد يده بعملة معدنية، تردد جاك، ثم أخذها. كانت بحجم نصف دولار كينيدي، لكنها أثقل بكثير.. ثقيلة كالذهب، كما خمن، مع أن لونها فضي باهت..

أما ما لفت انتباهه هو وجه لورا دي لويسيان الجانبي، لقد صُدم مجددًا، لفترة وجيزة ولكن بقوة، بشبهها بوالدته.. لا، ليس مجرد تشابه فبرغم الاختلافات الجسدية كالأنف الأرفع والذقن المستديرة، كانت والدته...

أيقن جاك ذلك، قلب العملة المعدنية ورأى حيوانًا برأس وأجنحة نسر وجسم أسد. بدا وكأنه ينظر إلى جاك مما وتره بعض الشيء، فوضع العملة داخل سترته، حيث انضمت إلى زجاجة عصير سبيدي السحري، وسأل فارين "ما الغرض منها؟».

"ستعرف عندما يحين الوقت،" أجاب القائد.. «أو ربما لن تعرف.. على أي حال، لقد أديت واجبي تجاهك أخبر باركوس بذلك عندما تراه.»

شعر جاك بشعورٍ غريبٍ بالوهم يغمره مجددًا.

"انطلق يا بني،" قال فارين.. كان صوته منخفضًا، لكن ليس بالضرورة أكثر رقة. "قم بعملك... أو بقدر ما تستطيع."

في النهاية، كان ذلك الشعور بالوهم، ذلك الشعور السائد بأن ما يحدث ليس أكثر من خيال شخصٍ آخر.. هو ما دفعه للتحرك.

قدمٌ يسرى، قدمٌ يمنى، قدمٌ من القش، قدمٌ من القش. ركل جانبًا شظيةً خشبية منقوعة في البيرة، خطا فوق بقايا عجلةٍ محطمة، ثم انحرف حول نهاية العربة، غير مُعجبٍ بالدم الذي يجف هناك أو بالذباب الطنان.

ما معنى الدم أو الذباب الطنان في الحلم؟

وصل إلى نهاية الطريق الموحل، المليء بالأخشاب والبراميل، ونظر إلى الوراء... لكن القائد فارين استدار، ربما ليبحث عن رجاله، أو ربما حتى لا يضطر للنظر إلى جاك.

على أي حال، حسب جاك، الأمران متشابهان.. الظهر يبقى ظهرًا، لا شيء يُنظر إليه.

مد يده إلى داخل قميصه، ولمس بتردد العملة التي أعطاه إياها فارين، ثم قبض عليها بقوة، بدا له أنها جعلته يشعر بتحسن.. واصل جاك طريقه وهو يحملها كما يحمل طفل ربع دولار يُعطى له ليشتري بها حلوى.

7

لم يمضِ تقريبًا سوى ساعتين حتى سمع جاك الصوت الذي وصفه القائد فارين بأنه «رعدٌ يدوّي على الأرض»، أو ربما قد مر أربع ساعات. ما إن غابت الشمس عن الحافة الغربية للغابة (وهذا ما حصل بعد دخول جاك إليها بفترة وجيزة)، حتى أصبح من الصعب تقدير الوقت.

في العديد من المناسبات، تأتي المركبات من الغرب، متجهةً على الأرجح إلى جناح الملكة، حيث يمكنك تمييز صوت كل واحدة منها (وكانت المركبات تُسمع من مسافة بعيدة هنا؛ ووضوح الصوت جعل جاك يتذكر ما قاله سبيدي عن رجل يسحب فجلًا من الأرض وآخر يشمّه على بُعد نصف ميل) وجعله أيضًا يفكر في مورغان، وفي كل مرة كان يُسرع إلى الخندق في الأسفل ثم يصعد إلى الجانب الآخر، وهكذا إلى الغابة.

لم يكن يُحب التواجد في هذه الغابة المظلمة، ولو لمسافة قريبة من الطريق حيث مازال بإمكانه التواري خلف جذع الشجرة ومراقبة الطريق؛ لم يكن ذلك مُريحًا للأعصاب، لكنه لم يُعجب بفكرة أن يقبض عليه العم مورغان (لأنه كان لا يزال يعتقد أن أوزموند هو رئيسه، رغم ما قاله القائد فارين) وهما على الطريق.

لذا كان كلما سمع عربة أو مقطورة تقترب، يتوارى عن

الأنظار، وحين تمر المركبة، يعود إلى الطريق. في إحدى المرات، بينما كان يعبر الخندق الأيمن الرطب والمليء بالأعشاب البحرية، انزلق شيء ما فوق قدمه، فصرخ جاك.

كانت حركة المرور مزعجة للغاية، ولا تساهم في قضاء وقت أطيب، ولكن كان هناك أيضًا شيء من الطمأنينة في مرور العربات غير المنتظمة.. فلقد كانت تُشعره بأنه، على الأقل ليس وحيدًا.

لكم رغب في مغادرة الأراضي نهائيًا.. رغم أن عصير سبيدي السحري هو أسوأ عقار تناوله في حياته، لكنه كان ليتناول منه رشفةً خانقةً لو ظهر أمامه أحدهم ولو على سبيل المثال سبيدي نفسه، واطمئن لأنه عندما يفتح عينيه مجددًا، سيكون أول ما يراه أقواس ماكدونالدز الذهبية والتي أطلقت عليها والدته «أثداء أمريكا العظيمة».

شعر جاك بخطر داهم، فالغابة حقًا خطرة، وهناك أشياءً فيها تُدرك مروره، بل ربما كانت الغابة نفسها ربما تعلى علم بمروره.

لقد اقتربت الأشجار من الطريق، أليس كذلك؟ نعم. في السابق، كانت تتوقف عند حدود الخنادق، الآن تنتشر فيها أيضًا.

في السابق، بدت الغابة وكأنها تتكون فقط من أشجار الصنوبر والتنوب، الآن تسللت أنواع أخرى من الأشجار،

بعضها بجذوع سوداء ملتوية معًا كعقد من خيوط متعفنة، وبعضها يشبه هجينًا غريبًا من التنوب والسراخس، وهذه الأخيرة لها جذور رمادية قبيحة المظهر تتشبث بالأرض كأصابع عجينية...يا ولدنا؟

بدت تلك الأشياء البغيضة وكأنها تهمس في رأس جاك.. يا ولدنا؟

كل هذا في عقلك يا جاكي، فقط ينتابك القليل من الذعر. المشكلة هي أنه لم يصدق ذلك حقًا.

كانت الأشجار تتغير، ذلك الشعور الطاغي في الهواء، إحساسه بأنه مراقب.. كان حقيقيًا للغاية.

وبدأ يعتقد أن تلك الوساوس والأفكار الوحشية محض شيء التقطه من الغابة... كما لو أن الأشجار نفسها تبعثه إليه على هيئة موجات قصيرة مروعة.

أصبحت زجاجة عصير سبيدي السحرية نصف ممتلئة فقط، بطريقة ما، كان عليها أن تكفيه طوال طريقه عبر الولايات المتحدة.. لكنه إذا ارتشف القليل كلما شعر بالخوف فلن تدوم حتى يغادر نيو إنجلاند.

ظل يفكر في المسافة المذهلة التي قطعها في عالمه عندما عاد من الأراضي.

مئة وخمسون قدمًا هنا تعادل نصف ميل هناك، بهذا المعدل، ما لم تكن نسبة المسافة المقطوعة متغيرة بطريقة ما، أدرك

جاك أنه إذا كان قد مشي عشرة أميال هنا فقد اقترب من نيو هامبشاير هناك!

كان الأمر أشبه بارتداء حذاء رياضي يقطع في الخطوة الواحدة سبعة فراسخ.

مازالت الأشجار... تلك الجذور الرمادية الشاحبة...

عندما يبدأ الظلام في الحلول، وتتحول السماء من اللون الأزرق إلى الأرجواني، سأتراجع.

هذا كل شيء؛ هذا كل ما كتبته.. لن أسير في هذه الغابة بعد حلول الظلام، وإذا نفدت مني عصارة السحر في إنديانا أو ما شابه، فبإمكان العجوز سبيدي إرسال زجاجة أخرى لي عبر UPS(4)، أو ما شابه.

مازالت تلك الأفكار تختلج وجده، وفكر أيضًا في مدى شعوره بالراحة لوجود خطة (حتى لو كانت الخطة تشمل الساعتين التاليتين فقط أو نحو ذلك) أدرك جاك فجأة أنه يستطيع سماع سيارة أخرى وعدد كبير من الخيول، أمال رأسه وتوقف في منتصف الطريق، اتسعت عيناه، وتجلت فجأة صورتان خلف عينيه بسرعة فائقة.. السيارة الكبيرة التي كان فيها الرجلان (السيارة التي لم تكن مرسيدس) ثم شاحنة وايلد تشايلد، مسرعة في الشارع مبتعدة عن جثة العم تومي، والدم يقطر من أنيابها البلاستيكية المكسورة.. رأى الأيدي على عجلة قيادة الشاحنة... لكنها لم تكن أيادي

بل حوافر غريبة ومفصلية.

عند إنطلاقه بأقصى سرعة، دوى صوت ذلك النعش الملعون مثل صوت رعدي يتدحرج على الأرض.

والآن، وهو يسمعه، الصوت لا يزال بعيدًا ولكنه واضح تمامًا عبر الهواء النقي، تساءل جاك كيف ظن أن تلك العربات الأخرى المقتربة قد تكون نتاجًا لمقصورة مورغان! بالتأكيد لن يكرر هذا الخطأ أبدًا.. فالصوت الذي سمعه الآن نذير شؤم، كثيفًا يحمل احتمالًا للشر، صوت عربة نعش، نعم، عربة نعش يقودها شيطان.

وقف متجمدًا في الطريق، شبه منوم مغناطيسيًا، كما يُنوم الأرنب مغناطيسيًا بأضواء السيارة.. ازداد ارتفاع الصوت تدريجيًا.. هدير العجلات والحوافر، وصرير الحبال الجلدية.

الآن، سمع صوت السائق «هي-ياه! هي-ياه! هيي-ياه!».

وقف على الطريق، ورأسه يدقّ من الرعب.. "لا أستطيع الحركة، يا إلهي، يا إلهي، لا أستطيع الحركة، أمي، أمي، مااااااا..."

ظل واقفا في الطريق، ورأت عين مخيلته شيئا أسود ضخما مثل عربة تجرها الخيول وهي تشق الدرب، تجرها حيوانات سوداء تشبه الفهود أكثر من الخيول؛ ورأى ستائر سوداء ترفرف داخل وخارج نوافذ العربة؛ ورأى السائق واقفاً على لوح التوازن، وشعره منفوخ للخلف، وعيناه متوحشتان

ومجنونتان كعيني مختل عقليا يحمل سكينا قابلة للطي.

رآه مقبلًا عليه ولا يهدئ من سرعته نهائيًا...

رآه يسحقه...

كسر ذلك حالة الشلل التي أصابته.. فركض يمينًا، منزلقًا على جانب الطريق، علق قدمه بأحد تلك الجذور المتشابكة، فسقط وتدحرج، اشتعل ظهره، الذي كان قد هدأ نسبيًا خلال الساعتين الماضيتين، بألم جديد، فسحب جاك شفتيه إلى الوراء بعبوس.

نهض على قدميه واندفع منحنيًا عبر الغابة.

توارى أولًا خلف إحدى الأشجار السوداء، لكن ملامسة جذعها المتشابك الذي يشبه إلى حد ما أشجار البانيان التي رآها خلال إجازته في هاواي العام قبل الماضي كان دهني ومؤرق، فتحرك جاك يسارًا خلف جذع شجرة صنوبر.

ازداد هدير الحافلة وفرسانها طرديًا في كل ثانية، توقع جاك مرور المجموعة بسرعة نحو قرية «أول هاندز»، ضغط جاك بأصابعه على ظهر شجرة الصنوبر اللزج، ثم استرخى، عض شفتيه.. أمامه مباشرةً، كان هناك خط رؤية ضيق، ولكنه واضح تمامًا، يؤدي إلى الطريق، كنفقٍ تحيط به أوراق الشجر والسرخس وإبر الصنوبر، وما إن بدأ جاك يعتقد أن فرقة مورغان لن تصل أبدًا، حتى مرّ اثنا عشر جنديًا أو أكثر على صهوات جيادهم متجهين شرقًا، راكضين بسرعة.

كان الجندي الذي في المقدمة يحمل راية، لكن جاك لم يستطع تمييز تصميمها... ولم يكن متأكدًا من رغبته في ذلك، ثم لمع بريق المقصورة عبر خط رؤية جاك الضيق.

كانت لحظة مرورها وجيزة لم تزد عن ثانية، وربما أقل من ذلك... لكنها رسخت في ذهن جاك، تلك المركبة العملاقة، التي وبالتأكيد ترتفع اثني عشر قدمًا، أضافت الجذوع والحزم المربوطة بحبل قوي إلى الأعلى ثلاثة أقدام أخرى.. كان كل حصان في الفريق الذي سحبها يرتدي ريشة سوداء على رأسه، تلك الريشات تميل للخلف بشكل شبه مسطح في مواجهة سرعة الريح.

فكر جاك لاحقًا أن مورغان لا بد أنه بحاجة إلى فريق جديد لكل جولة، لأن هذه الجولات بدت قريبة من أقصى قدرتهم على التحمل، تناثرت الرغوة والدماء من أفواههم العاملة في اللبن الرائب؛ ودارت عيونهم بجنون، كاشفة عن أقواس بيضاء.

كما حدث في خياله.. أو رؤيته.. طارت ستائر الكريب السوداء ورفرفت عبر النوافذ الفارغة، فجأة ظهر وجه أبيض في أحد تلك المستطيلات السوداء، وجه أبيض مؤطر بنقوش غريبة ملتوية.. كان الظهور المفاجئ لذلك الوجه صادمًا كوجه شبح في نافذة مهدمة لمنزل مسكون، لم يكن وجه مورغان سلوت... ولكنه أيضًا كان كذلك!

وكان صاحب ذلك الوجه يعلم أن جاك أو خطرًا آخر،

مكروهًا وشخصيًا بنفس القدر موجود هناك.. رأى جاك ذلك في اتساع عينيه والتواء فمه المفاجئ.

قال القائد فارين «سيشمك كالفأر»، والآن فكّر جاك في كآبة «لقد شممتْ، حسنًا. إنه يعلم أنني هنا، تُرى ماذا سيحدث الآن؟ سيوقفهم جميعًا، أراهن، ويرسل الجنود إلى الغابة خلفي».

مرّت مجموعة أخرى من الجنود.. هؤلاء الذين يحمون مقصورة مورغان من الخلف.. مسرعين.

انتظر جاك، ويداه متجمدتان على لحاء الصنوبر، واثقًا من أن مورغان سيأمر بالتوقف، لكن لم يتوقف؛ سرعان ما بدأ دوي المقصورة الثقيل وفرسانها يتلاشى.

عيناه.. نعم إنها نفسها.. تلك العيون الداكنة في ذلك الوجه الأبيض...

نعم يا ولد إنها كذلك!

انزلق شيء ما فوق قدمه... وصعد إلى كاحله...

صرخ جاك وتعثر إلى الوراء، ظانًا أنه لا بد أن يكون ثعبانًا، لكن عندما نظر إلى أسفل، رأى أن أحد تلك الجذور الرمادية قد انزلق إلى قدمه... والآن أحاط بساقه!

هذا مستحيل، فكر ببلاهة.. الجذور لا تتحرك...

سحب ساقه بحدة، وخلصها من القيد الرمادي الخشن الذي

شكله الجذر.

تألمت ساقه بعض الشيء، كألم الاحتراق إثر سحب الحبل، رفع عينيه وشعر بخوف شديد يتسلل إلى قلبه.

ظن أنه يعرف الآن لماذا أحس مورغان به واستمر على أي حال؛ كان مورغان يعلم أن المشي في هذه الغابة أشبه بالسباحة في جدول مائي مليء بأسماك ضارية مفترسة.

لماذا لم يحذره القائد فارين؟ كل ما فكر فيه جاك هو أن القائد ذو الندوب لا بد أنه لم يكن يعلم؛ أو أنه لم يذهب إلى هذا الغرب البعيد أبدًا.

ظلت الجذور الرمادية لتلك الهجائن من السرخس والتنوب تتحرك والآن، ترتفع وتسقط وتسرع على طول الأرض الممهدة نحوه.

إنت وزوجات إنت، فكر جاك بجنون. إنت وزوجات إنت سيئات. أحد الجذور السميكة بشكل خاص، آخر ست بوصات منه داكنة بسبب التراب والرطوبة، ارتفع وتمايل أمامه مثل كوبرا خرجت من سلة فقير.. إنه ولدنا! نعم!

انطلق نحوه ثم تراجع جاك عنه، مدركًا أن الجذور قد شكلت الآن حاجزًا حيًا بينه وبين أمان الطريق.

اصطدم بشجرة... ثم تمايل بعيدًا عنها، يصرخ، بينما بدأ لحاؤها يتموج ويرتعش على ظهره، كان الأمر أشبه بشعور عضلة بدأت تتشنج بشدة.. نظر جاك حوله ورأى إحدى تلك

الأشجار السوداء ذات الجذوع المعقدة، الآن أصبحت جذوعها تتحرك وتتلوى، شكلت تلك العقد الملتوية من اللحاء وجهًا ممتلئًا بالخطوط، ذو عينٌ مفتوحةٌ على مصراعيها، وأخرى مغمضة ومسحوبةٌ ببشاعة إلى الأسفل، انقسمت الشجرة إلى قسمين في الأسفل مصدرة صوت طحن وتمزق، وبدأ النسغ ذو اللون الأصفر المبيض يسيل منها. ولدنا! أوه، أجل!

انزلقت جذور مثل الأصابع بين إبط جاك وقفصه الصدري، كما لو إنها تدغدغه.

انطلق بعيدًا، مُتشبثًا بآخرِ ما تبقى من عقلانيتهِ بإرادةٍ قوية، يتلمسُ في سروالهِ زجاجةَ سبيدي، أدرك بخفوت سلسلةً من أصواتِ تمزيقٍ هائلة حتى ظنّ أن الأشجارَ تُمزقُ نفسها من الأرض، لم يكن سليلنا هكذا من قبل.

سحب الزجاجة من عنقها وحاول فتح الغطاء، فانزلق أحدُ تلك الجذورِ الرماديةِ بسهولةٍ حولَ عنقه، وبعد لحظة، تم سحبه بقوة شديدة مثل حبل المشنقة.

توقف جاك عن التنفس، سقطت الزجاجة من بين أصابعه وهو يصارع الشيء الذي كان يخنقه حتى تمكن من إدخال أصابعه تحت الجذر الذي لم يكن باردًا ومتيبسًا، بل دافئًا ومرنًا كاللحم.. كافحه، مدركًا صوت الغرغرة المختنق الصادر منه ورائحة اللعاب اللزجة على ذقنه.

وبعد صراع وعناء.. انتزع الجذر الذي حاول أن يلتف حول

معصمه، فأبعده جاك بصرخة، نظر إلى الأسفل فرأى الزجاجة تتلوى وترتطم، وأحد تلك الجذور الرمادية يلتف حول عنقها.

قفز جاك لالتقاطها فأمسكت الجذور بساقيه، ودارت بهما حتى سقط على الأرض بثقله، ممددًا، يحاول التعلق بأي شيء، وأطراف أصابعه تحفر في تربة الغابة السوداء الكثيفة بوصة إضافية...

لمس الجانب الأخضر الأملس للزجاجة... وأمسك بها، سحبها بأقصى ما يستطيع، مدركًا أن الجذور كانت تغطي ساقيه الآن، متقاطعة كالأغلال، قابضةً عليه بقوة.. أدار غطاء الزجاجة فطفا جذر آخر، خفيفًا كشبكة العنكبوت، وحاول انتزاع الزجاجة منه فدفعه جاك بعيدًا ورفع الزجاجة إلى شفتيه، انتشرت رائحة الفاكهة الفاسدة فجأة في كل مكان، وكأنها غشاء حي.

سبيد، من فضلك دعها تعمل!

بينما انزلقت المزيد من الجذور على ظهره وحول خصره، تتقاذفه بلا حول ولا قوة هنا وهناك، شرب جاك، وتناثر النبيذ الرخيص على خديه.

ابتلع ريقه، وهو يئن ويدعو، لكنه لم يكن ذلك مفيدًا، لم يجدي نفعًا، كانت عيناه لا تزالان مغمضتين لكنه مازال يشعر بالجذور تتشابك مع ذراعيه وساقيه، استطاع الشعور بذلك...

8

تسرب الماء إلى بنطاله الجينز وقميصه، إنه يشمّ رائحة...

ماء؟

الطين والرطوبة، يستطيع سماع...

جينز؟ قميص؟

نعيق الضفادع المستمر،

وفتح جاك عينيه فرأى ضوء الشمس البرتقالي المنعكس على صفحة النهر الواسع، الغابة التي نمت بامتداد الضفة الشرقية من هذا النهر؛ وعلى الضفة الغربية، الضفة التي كان عليها، حقل طويل، الذي يغطيه جزئيًا ضباب المساء، ينزلق إلى حافة الماء.

كانت الأرض هنا رطبة ولينة، استلقى جاك على حافة الماء، في أكثر المناطق رطوبة.

مازالت الأعشاب الكثيفة تنمو هنا، بعد شهر أو أكثر سيقضي عليها الصقيع، وقد تعلق جاك بها، كما يتعلق رجل استيقظ للتو من كابوس في أغطية السرير.

نهض متعثرًا، مبللًا وملطخًا بالطين العطر، وأشرطة حقيبته محكمة تحت ذراعيه، ثم دفع الشظايا العشبية عن ذراعيه ووجهه برعب، قفز مبتعدًا عن الماء، ثم نظر إلى الوراء فرأى زجاجة سبيدي ملقاة في الوحل، والغطاء بجانبها، بعض

«العصير السحري» إما نفد أو انسكب في صراعه مع أشجار الأراضي الخبيثة، الآن، لم تعد يبقى بالزجاجة أكثر من ثلثها.

توقف هناك للحظة، حذاؤه الرياضي المتكتل مغروس في الوحل الرطب، ينظر إلى النهر.. كان هذا عالمه؛ هذه هي الولايات المتحدة الأمريكية القديمة الجميلة.

لم يرَ الأقواس الذهبية التي كان يأمل أن يراها، أو ناطحة سحاب، أو قمرًا صناعيًا أرضيًا يومض في السماء المظلمة، لكنه كان يعرف مكانه تمامًا كما يعرف اسمه. السؤال هو.. هل كان في ذلك المكان بالعالم الآخر من قبل؟ نظر حوله إلى النهر الغريب، والريف الغريب أيضًا، واستمع إلى خوار الأبقار البعيد الهادئ. فكّر.. أنت في مكان مختلف. هذا بالتأكيد لم يعد شاطئ أركاديا يا جاكي.

لا، لم يعد شاطئ أركاديا، لكنه لم يكن يعرف المنطقة المحيطة بشاطئ أركاديا جيدًا بما يكفي ليؤكد أنه على بُعد أكثر من أربعة أو خمسة أميال.. مسافة كافية في الداخل، لنقل، بحيث لا يستطيع شم رائحة المحيط الأطلسي، لقد عاد كما لو كان يستيقظ من كابوس.. أليس من الممكن أن يكون هذا كل ما حدث، الأمر برمته، من سائق العربة بحمولته من اللحم الذي تزاحم عليه الذباب إلى الأشجار الحية؟ نوع من كوابيس اليقظة الذي لعب فيه المشي أثناء النوم دورًا؟ بدا الأمر منطقيًا.

فوالدته تحتضر، وظن الآن أنه كان يعلم ذلك منذ فترة

طويلة فالعلامات كانت موجودة، وقد توصل عقله الباطن إلى الاستنتاج الصحيح بينما أنكره عقله الواعي... فكل هذا هيأ الجو المناسب لعملية التنويم الذاتي، وقد حفّزه ذلك السكير المجنون سبيدى باركر.. بالتأكيد.. كل شيء مرتبطًا ببعضه بعضًا.

كان العم مورغان سيُحب ذلك.

ارتجف جاك وابتلع ريقه بصعوبة، كانت عملية البلع مؤلمة.. ليس كوجع التهاب الحلق، بل كوجع عضلة مُرهَقة.

رفع يده اليسرى، التي لا تحمل الزجاجة، وفرك راحة يده برفق على حلقه، للحظة، بدا كامرأة تبحث عن ثنيات أو تجاعيد.

وجد خدشًا مُلتهبًا فوق تفاحة آدم لم ينزف كثيرًا، لكنه كان مؤلمًا جدًا حين لمسه.. الجذر الذي التف حول حلقه هو الذي فعل ذلك.

"صحيح،" همس جاك، وهو ينظر إلى المياه البرتقالية، ويستمع إلى صوت الضفادع وخوار الأبقار البعيدة. "كله صحيح."

9

بدأ جاك يصعد منحدر الحقل، موليًا ظهره للنهر والاتجاه الشرقي، بعد أن قطع نصف ميل، أثار احتكاك الحقيبة المستمر وتحركها على ظهره المتألم (ذكرته الحقيبة المتحركة أن ضربات أوزموند كانت لا تزال موجودة أيضًا).

لقد رفض شطيرة سبيدي الضخمة، ولكن ألم يضع سبيدي البقايا في حقيبته أصلًا، بينما كان جاك يفحص ريشة الجيتار؟

صرخت معدته بتلك الفكرة.

أخرج جاك الحقيبة في الحال، أثناء وقوفه وسط الضباب الكثيف تحت نجمة المساء، فك أحد الأغطية، فظهرت الشطيرة، ليس قطعة أو نصفًا فقط، بل الشطيرة كاملة، ملفوفة في ورقة جريدة، امتلأت عينا جاك بدفء الدموع، وتمنى لو كان سبيدي هنا ليتمكن من معانقته.

قبل عشر دقائق، كنتَ تناديه بـ»مدمن خمر مجنون».

احتقن وجهه عند سماع ذلك، لكن خجله لم يمنعه من التهام الشطيرة في ست لقيمات كبيرة، ثم أعاد ربط حقيبته وحملها على كتفيه، واصل طريقه، وهو يشعر بتحسن، ومع التخلص من صفير أحشائه مؤقتًا، استعاد جاك رباطة جأشه.

بعد فترة وجيزة، أضاءت الأضواء في قلب الظلام الداهم..

إنه منزل ريفي، بدأ كلب ينبح نباحًا ثقيلًا كرجل ضخم، فتجمد جاك للحظة.

فكر.. ربما كان في الداخل أومقيدًا.. آمل ذلك.

انطلق يمينًا، وبعد برهة توقف الكلب عن النباح.

خرج جاك سريعًا على طريق ضيق مُسفلت متخذًا أضواء المنزل الريفي دليلًا، ووقف ينظر من اليمين إلى اليسار، لا يدري أي اتجاه يسلك.

حسنًا يا رفاق، ها هو جاك سوير، في منتصف الطريق بين الصيحة والصراخ، مبللًا حتى الجلد وحذاءه الرياضي ملطخ بالطين.

أحسنت يا جاك!

عاد الشعور بالوحدة والحنين إلى الوطن يغمره قاوم جاك، وبثق على سبابته اليسرى، ثم أطلق القطرة بقوة فطار الجزء الأكبر منها إلى اليمين.. أو هكذا بدا لجاك، فالتف وبدأ يمشي، بعد أربعين دقيقة، انهكه التعب (وجاع مجددًا، وهو ما كان أسوأ نوعًا ما)، رأى حفرة حصى مع سقيفة من نوع ما تقف خلف طريق وصول مسدود بسلسلة.

انحنى جاك تحت السلسلة وذهب إلى السقيفة. كان الباب مغلقًا بقفل، لكنه رأى أن الأرض قد تآكلت تحت أحد جوانب المبنى الخارجي الصغير.

استغرق الأمر دقيقة واحدة لإخراج حقيبته، والتمايل تحت

جانب السقيفة، ثم سحب بابها خلفه، في الواقع، جعله قفل الباب يشعر بأمان أكبر.

نظر حوله فرأى أنه بين أدوات عتيقة جدًا، يبدوا أن هذا المكان لم يُستخدم منذ فترة طويلة، وهذا يناسب جاك تمامًا.. تجرد من ملابسه، لم يعجبه ملمسها الرطب الموحل، أحس بالعملة التي أعطاه إياها القائد فارين في أحد جيوب بنطاله، تستقر هناك كعملاق وسط نقوده الصغيرة، أخرجها جاك فرأى أن عملة فارين، برأس الملكة على جانب والأسد المجنح على الجانب الآخر، قد أصبحت دولارًا فضيًا من عام 1921 ! حدّق بثبات في صورة سيدة الحرية على العملة الدائرية لبعض الوقت، ثم أعادها إلى جيب سرواله.

أخرج ملابس نظيفة، ظنًا منه أنه سيضع الملابس المتسخة في حقيبته في الصباح، ستكون جفت حينها، وربما نظفها في طريقه في مغسلة ملابس، أو ربما في مجرى ماء مناسب.

بينما كان يبحث عن جواربه، صادفت يده شيئًا رفيعًا وصلبًا. أخرجه جاك فرأى أنها فرشاة أسنانه، على الفور، غمرته صور الوطن والأمان والعقلانية، كل ما يمكن أن تمثله فرشاة الأسنان.. لم يكن هناك سبيلٌ لكبح جماح هذه المشاعر أو تجاهلها هذه المرة.

فرشاة الأسنان شيءٌ يُفترض أن يُرى في حمامٍ مُضاء، شيءٌ يُستعمل مع بيجامات قطنية على الجسم ونعال دافئة على القدمين، لم تكن شيئًا يُعثر عليه في قاع حقيبة ظهرك

في سقيفة أدوات باردة ومظلمة على حافة حفرة حصى في بلدة ريفية مهجورة لا تعرف حتى اسمها.

اجتاحته الوحدة؛ واكتمل إدراكه لكم أصبح منبوذ.. بدأ جاك بالبكاء...

لم يبكي بهستيرية أو يصرخ كما يفعل الناس عندما يُخفون غضبهم بالدموع؛ بل بكى في شهقاتٍ مُنتظمة كمن اكتشف كم هو وحيد، وسيبقى كذلك لفترة طويلة.. بكى لأن كل الأمان والعقل بدا وكأنهما قد رحلا عن العالم.

الوحدة هنا، باتت حقيقة؛ لكن في حالته هذه، الجنون أيضًا احتمالًا كبيرًا.

نام جاك قبل أن تهدأ شهقاته تمامًا مُلتفًا حول حقيبته، عاريًا إلا من سرواله الداخلي وجواربه النظيفة.

سالت دموعه على خديه المتسخين، وكان يُمسك بفرشاة أسنانه بين يديه برقة.

الفصل الثامن

نفق أوتلي

1

بعد ستة أيام، تخلص جاك تقريبًا من يأسه.. وبحلول نهاية أيامه الأولى على الطريق، غمره شعور بالكمال حيث بدا له وكأنه قد نضج من الطفولة إلى المراهقة إلى الرشد، صحيح أنه لم يعد إلى الأراضي منذ أن استيقظ على الضفة الغربية للنهر، لكنه استطاع تبرير ذلك، وتباطؤه في العودة، من خلال إخبار نفسه أنه يوفر عصير سبيدي لوقت احتياجه إليه.

وعلى أي حال، ألم يأمره سبيدي بالسفر دائمًا على الطرق الرئيسية لهذا العالم، إنني أنفذ الأوامر فقط يا صديقي.

عندما أشرقت الشمس ودارت السيارات على بُعد ثلاثين أو أربعين ميلًا غربًا، وقد امتلأت معدته، بدت الأراضي محض حلم بعيد بشكل لا يُصدق.. بل أشبه بفيلم بدأ ينساه، خيالًا مؤقتًا.

أحيانًا، عندما كان جاك يتكئ على مقعد الراكب في سيارة أحد المارة الذي يسأله عن قصته كمعلم في أحد المدارس ويجيب عنها، كان ينسى بالفعل.. تركته الأراضي، وعاد.. أو كاد أن يعود.. إلى نفس الشاب الذي كان عليه في بداية الصيف.

خاصةً على الطرق السريعة الرئيسية، عندما كان ينزله سائق قرب منحدر الخروج، كان عادةً ما يرى السيارة التالية تنحرف جانبًا بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة من رفع إبهامه، الآن هو في مكان ما بالقرب من باتافيا، في الجزء الغربي من ولاية نيويورك، يسير للخلف في حارة الأعطال على الطريق السريع I-90، إبهامه مرفوع مرة أخرى، متجهًا نحو بوفالو، بعد بوفالو، سيبدأ بالانعطاف جنوبًا.

فكر جاك، إنها مسألة إيجاد أفضل طريقة لإنجاز شيء ما ثم القيام به. راند ماكنالي والقصة أوصلاه إلى هذا الحد؛ كل ما يحتاجه هو حظ كافٍ للعثور على سائق يسافر به إلى شيكاغو أو دنفر (أو لوس أنجلوس، لو كان يوم حظك يا جاكي)، ويمكنه العودة إلى منزله قبل منتصف أكتوبر.

كان أسمر البشرة، وفي جيبه خمسة عشر دولارًا من عمله السابق كغسال أطباق في مطعم جولدن سبون داينر في أوبورن، يشعر بشد في عضلاته، مع أنه كان يتمنى البكاء أحيانًا، إلا أنه لم يستسلم لدموعه منذ ليلته الأولى البائسة.. كان مسيطرًا على نفسه، وهذا هو الفرق...

الآن وقد عرف كيف يمضي قدمًا، وخطط للأمر بجهد بالغ، أصبح مدركًا لما يحدث له؛ ظن أنه يرى نهاية رحلته بالفعل، مع أنها لا تزال بعيدة. لو سافر في هذا العالم، كما أخبره سبيدي، لكان بإمكانه التحرك بأسرع ما يمكن والعودة إلى نيو هامبشاير مع التعويذة في وقت مبكر.. سينجح الأمر،

وسيواجه مشاكل أقل بكثير مما توقع.

هذا، على الأقل، ما تخيله جاك سوير بينما انحرفت سيارة فورد فيرلين زرقاء مغبرة إلى جانب الطريق وانتظرته ليركض إليها، محدقًا في الشمس الخافتة.

بقة ثلاثون أو أربعون ميلاً، فكّر داخل نفسه، وأخذ يتخيل الصفحة التي درسها من كتاب راند ماكنالي هذا الصباح، وقرّر الذهاب لأوتلي حيث بدت صغيرة ومملة آمنة، كان في طريقه، ولا شيء سيؤذيه الآن.

2

انحنى جاك ونظر من النافذة قبل أن يفتح باب السيارة الفورد فيرلين، ليجد كتب عينات سميكة ومنشورات مطبوعة ملقاة بشكل فوضوي على المقعد الخلفي؛ وحقيبتان كبيرتان شغلتا مقعد الراكب، نظر الرجل ذو الشعر الأسود والجسد الممتلئ قليلاً والذي بدا الآن وكأنه يقلد وضعية جاك تقريبًا، حيث ينحني فوق عجلة القيادة من النافذة المفتوحة إلى الصبي، كان بائعًا.. علق سترة بدلته الزرقاء على الخطاف خلفه؛ وربطة عنقه في منتصف الصاري، وأكمامه مطوية، إنه بائع في منتصف الثلاثينيات من عمره، يتجول براحة في منطقته، يحب التحدث، مثل جميع البائعين...

ابتسم له الرجل ورفع الحقيبة الكبيرة، فوق المقعد على كومة الأوراق خلفه، ثم التقط الحقيبة الأخرى، قال «دعنا نخلق لك مساحة صغيرة».

علم جاك أن أول ما سيسأله الرجل عنه هو سبب غيابه عن المدرسة.. فتح الباب، وقال "مرحبًا، شكرًا لك"، ثم صعد إلى السيارة.

سأل البائع وهو يتفقد مرآة الرؤية الخلفية أثناء تحريكه ذراع ناقل الحركة إلى وضع القيادة وعودته إلى الطريق.. «هل ستذهب بعيدًا؟».

رد جاك "أوتلي. أعتقد أنها على بُعد حوالي ثلاثين ميلًا.»

قال البائع «لقد رسبت في الجغرافيا.. أوتلي تبعُد فقط خمسة وأربعين ميلًا.»

أدار رأسه لينظر إلى جاك، وفجأة غمز الصبي، قال "لا أقصد الإساءة، لكنني أكره رؤية الأطفال الصغار يتنقلون، لهذا السبب أقلهم دائمًا عندما أراهم.. على الأقل أعرف أنهم بأمان معي.. لا مجال للمس، هل تفهم ما أقصد؟ هناك الكثير من المجانين يا فتى.. هل تقرأ الصحف؟ أعني، أنا أتحدث عن آكلي اللحوم، قد تحوّل نفسك إلى نوع مهدد بالانقراض."

رد جاك «أنت محق، لكنني أحاول أن أكون حذرًا جدًا.»

"أتعيش في مكان ما قريبًا؟ أوصلك إليه"

ظل الرجل ينظر إليه، يلتفت إليه التفاتات صغيرة كلمحات الطيور على الطريق، بحث جاك بجنون في ذاكرته عن اسم بلدة على الطريق.. «تدمر.. أنا من تدمر.» أومأ البائع، وقال "مكانٌ قديمٌ وجميل." ثم عاد إلى الطريق السريع...

استرخى جاك مجددًا على مقعده المريح، ثم قال الرجل أخيرًا «أنت لم تتغيب عن المدرسة حقًا، أليس كذلك؟» وحان وقت القصة مرةً أخرى.

تلك التي رواها مرارًا وتكرارًا، مُغيرًا أسماء البلدات المعنية أثناء ارتحاله غربًا، حتى بدا له الأمر سلسًا كحديثٍ مُنفرد.. «لا يا سيدي، الأمر فقط أنني يجب أن أذهب إلى أوتلي لأعيش مع عمتي هيلين لفترة قصيرة.. هيلين فوغان؟ إنها أخت

أمي، وتعمل مُعلمة. لقد توفي والدي في الشتاء الماضي، كما ترى، وأصبحت الأمور صعبة للغاية.. ثم قبل أسبوعين ازداد سعال أمي سوءًا وبالكاد استطاعت صعود الدرج وقال الطبيب إنها يجب أن تبقى في الفراش لأطول فترة ممكنة وسألت أختها إذا كان بإمكاني المجيء والبقاء معها لفترة.. كونها مُعلمة وكل شيء، أعتقد أنني سأذهب إلى مدرسة أوتلي، بالتأكيد لن تسمح العمة هيلين لأي طفل بالتغيب عن المدرسة، أليس كذلك"

سأله الرجل «هل تعني أن والدتك طلبت منك أن تسافر بمفردك على الطريق من بالميرا إلى أوتلي؟»

"أوه لا، إطلاقًا، أمي لن تفعل ذلك أبدًا.. لا، لقد أعطتني نقود الحافلة، لكنني قررتُ ادخارها، أعتقد أنني لن اتلقى أموالا من عائلتي لفترة طويلة، فعمتي هيلين لا تملك أي مال حقًا.. لو علمت أمي أنني أسافر على الطريق وأشير للشاحنات بإبهامي ستكره ذلك حقًا، لكن بدا لي السفر بالحافلة مضيعة للمال.. أعني، خمسة دولارات هي خمسة دولارات، لماذا أعطيها لسائق حافلة؟"

نظر إليه الرجل بطرف عينه "كم من الوقت تعتقد أنك ستبقى في أوتلي؟"

"من الصعب الجزم.. أتمنى حقًا أن تتعافى أمي قريبًا.»

"حسنًا، لا تعود للسفر على الطريق بهذا الشكل، اتفقنا؟»

"لم نعد نملك سيارة،" قال جاك، مُضيفًا إلى القصة، وقد بدأ يستمتع بوقته.. "هل تُصدق هذا؟ لقد خرجوا في منتصف الليل واستولوا عليها، يالهم من جبناء قذرون لقد علموا أن الجميع سيكونون نائمين، خرجوا في منتصف الليل وسرقوا السيارة من الجراج مباشرةً.. يا سيدي، لوددت لو قاتلت من أجل تلك السيارة، وليس لأجد توصيلة إلى منزل عمتي.. عندما تذهب أمي إلى الطبيب، عليها أن تمشي بطول التل ثم تقطع خمس بنايات أخرى لتصل إلى موقف الحافلات.. لم يكن ينبغي عليهم فعل ذلك، أليس كذلك؟ أن يأتوا ويسرقوا سيارتك؟ سنبدأ بسداد الأقساط حالما نستطيع.. أعني، ألا تعتبر ذلك سرقة؟"

قال الرجل: «لو حدث لي ذلك، لفعلت.. أتمنى أن تتحسن حالة والدتك بسرعة."

قال جاك بصراحة تامة «وأنا مثلك تمامًا»

واستمر هذا الوضع حتى بدأت لافتات أوتلي بالظهور.. عاد البائع إلى حارة الأعطال بعد منحدر الخروج مباشرة، وابتسم لجاك مرة أخرى قائلًا «حظًا سعيدًا يا بني.» أومأ جاك وفتح الباب.

"أتمنى ألا تضطر لقضاء الكثير من الوقت في أوتلي، على أي حال."

نظر إليه جاك متسائلاً.

"حسنًا، أنت تعرف المكان، أليس كذلك؟"

"قليلًا. ليس تمامًا."

"آه، إنه مكانٌ حقيرٌ حقًا.. مكانٌ يأكلون فيه ما يدوسونه على الطريق، وادي الغوريلات حيث يأكلون الجعة، ثم يشربون الأكواب، هكذا.»

"شكرًا على التحذير،" قال جاك ونزل من السيارة.

لوّح البائع بيده وأنطلق في لحظات بسيارته الفورد فيرلين، التي لم يبقى منها سوى ظل مظلمٍ يخترق الشمس البرتقالية المنخفضة.

3

لمسافة ميل تقريبًا، أخذه الطريق عبر ريفٍ مسطحٍ كئيبٍ وبعيدًا، رأى جاك منازل صغيرة من طابقين مبنية على أطراف الحقول.

حقول بنيةٌ جرداء، وبيوتها لم تعد بيوت مزرعة...

تباعدت المنازل بشكل كبير، وأطلت على الحقول المهجورة، الماكثة في هدوء رماديّ ساكن لا يقطعه إلا صرير حركة المرور على طول الطريق السريع I-90. لا أبقار تُخِر، ولا خيول تُصهل، لم تكن هناك حيوانات، ولا معدات زراعية. خارج أحد المنازل الصغيرة، فقط ست سيارات خردة صدئة، ربما تعود تلك المنازل لرجال كرهوا جنسهم تمامًا لدرجة أن أوتلي كانت مزدحمة جدًا بالنسبة إليهم، منحتهم الحقول الفارغة الخنادق التي يحتاجونها حول قلاعهم الإطارية المتقشرة.

في النهاية، وصل إلى مفترق طرق. بدا وكأنه مفترق طرق في فيلم رسوم متحركة، طريقان ضيقان فارغان يتقاطعان في لا مكان على الإطلاق، ثم يمتدان نحو نوع آخر من اللا مكان.. بدأ جاك يشعر بعدم الأمان بشأن إحساسه بالاتجاه، عدل وضع الحقيبة على ظهره وتحرك لأعلى نحو الأنبوب الحديدي الطويل الصدئ الذي يدعم المستطيلات السوداء، الصدئة هي الأخرى، لأسماء الشوارع.

هل كان يجب عليه أن ينعطف يسارًا بدلاً من اليمين من منحدر الخروج؟ كانت اللافتة التي تشير إلى الطريق الموازي للطريق السريع مكتوب عليها طريق دوغتاون.

دوغتاون؟ نظر جاك إلى أسفل هذا الطريق ولم يرَ سوى أرض مستوية لا نهاية لها، وحقول مليئة بالأعشاب الضارة وخط الأسفلت الأسود المتدحرج. كان خط الأسفلت الخاص به يسمى طريق ميل، وفقًا للافتة، على بعد ميل تقريبًا إلى الأمام انزلق إلى نفق مغطى تقريبًا بأشجار مائلة وسجادة غريبة من اللبلاب، علقت لافتة بيضاء في سمك اللبلاب، ويبدو أنها مدعومة به. كانت الكلمات صغيرة جدًا بحيث لا يمكن قراءتها...

وضع جاك يده اليمنى في جيبه وأمسك بالعملة التي أعطاها له القائد فارين.

حدثته معدته، سنحتاج للعشاء قريبًا، فاضطر إلى مغادرة المكان والبحث عن بلدة لكسب قوته.. على أضيق الأحوال الآن تمكن من الذهاب عبر طريق ميل رود، على الأقل ليتمكن من المضي بعيدًا بما يكفي لرؤية ما يوجد على الجانب الآخر من النفق ذلك الذي دفع جاك نفسه نحوه، ومع كل خطوة اتسعت فتحته المظلمة بين الأشجار. إنه بارد ورطب، تفوح منه رائحة غبار الطوب وشقوق الأرض، بدا النفق وكأنه يستوعب الصبي ثم يضيق حوله.. للحظة، خشي جاك أنه يُقاد إلى تحت الأرض، لم تظهر أي دائرة ضوء أمامه في نهاية

النفق، لكنه أدرك بعد ذلك أن مستوى أرضيته يختلف عن مستوى الأسفلت.

كُتب على اللافتة خارج النفق "أشعل الأنوار".

اصطدم جاك بجدار من الطوب وشعر بمسحوق حبيبي يتفتت على يديه، فقال في نفسه «أشعل الأنوار»، متمنيًا لو كان لديه مصبح ليشعله، أدرك أن النفق لا بد أن ينحني في مكان ما بامتداده، خطى بحذر، ببطء، بعناية، مباشرة نحو الحائط، مثل رجل أعمى مادًا يديه، أخذ جاك يتلمس طريقه على طول الجدار.

عندما يفعل الذئب في رسوم رود رانر الكرتونية شيئًا كهذا، ينتهي به الأمر عادةً متناثرًا على مقدمة شاحنة!

دوى صوت ارتطام قويًا على أرضية النفق، فتجمد جاك.

جرذ، فكّر.. أو ربما أرنبٌ يسلك طريقًا مختصرًا بين الحقول، لكن يبدوا أنه أكبر من ذلك...

دوى الصوت مجددًا، بعيدًا في الظلام، فخطا خطوةً أخرى عمياءَ إلى الأمام...

وأمامه مباشرة، لمرةٍ واحدةٍ فقط، سمع شهيقًا جعله يتوقف متسائلًا "هل هذا حيوان؟" وضع جاك أطراف أصابعه على جدار الطوب الرطب، منتظرًا الزفير.

لم يكن الصوت كصوت حيوان.. بالتأكيد لن يزفر جرذٌ أو أرنبٌ هذا الزفير العميق. زحف بضع بوصاتٍ إلى الأمام، رافضًا

تقريبًا الاعتراف لنفسه بأنّ ما كان هناك قد أخافه.

تجمد جاك مجددًا، إذ سمع صوتًا خافتًا كضحكةٍ خشنةٍ تخرج من الظلام أمامه، في الثانية التالية، انبعثت منه رائحةٌ مألوفةٌ لكنّها غير قابلةٍ للتحديد، خشنةٌ وقويةٌ ومسكية، عبر النفق.

نظر جاك من فوق كتفه.. كان المدخل الآن نصف مرئي، نصف محجوب بانحناء الجدار، بعيدًا جدًا، ويبدو بحجم جحر الأرنب.

"ماذا يوجد هنا؟" نادى.. «مهلاً! هل من شيء معي هنا؟ هل من أحد؟»

ظن أنه سمع همسًا عميقًا في النفق.

"أنا لست في الأراضي"، ذكّر نفسه بأنه في أسوأ الأحوال قد أفزع كلبًا أحمقًا دخل إلى الظلام البارد ليأخذ قيلولة، في تلك الحالة، قد أنقذ حياته بإيقاظه قبل مرور سيارة.

"أيها الكلب!» صرخ.. «كلب!»

فكوفئ على الفور بصوت أقدام تهرول عبر النفق، لكن هل كانت... تخرج أم تدخل؟ لم يستطع التمييز، وهو ينصت إلى صوت وقع الأقدام الناعمة، أن يُحدد ما إذا كان الحيوان يغادر أم يقترب، ثم خطر بباله أن الصوت ربما كان قادمًا نحوه من الخلف، ولفّ رقبته ناظرًا إلى الخلف فرأى أنه قد تحرك بعيدًا بما يكفي بحيث لم يعد يستطيع رؤية المدخل أيضًا.

"أين أنت أيها الكلب؟» قال..

خدش شيء الأرض على بُعد قدم أو قدمين فقط خلفه، فقفز جاك إلى الأمام وارتطم كتفه بقوة بالجدار المنحني.

ظن أنه رأى شكل كلبًا في الظلام.. تقدم جاك، لكنّه توقف فجأةً بسبب شعورٍ بالاضطراب الشديد، لدرجة أنه تخيّل نفسه عائدًا إلى الأراضي.. امتلأ النفق برائحةٍ مسكيةٍ لاذعةٍ كرائحة حديقة الحيوانات، وأيّ كان القادم نحوه فهو ليس كلبًا.

هب تيارًا من الهواء البارد فاحت منه رائحة الشحم والكحول، أحسّ بذلك الشكل يقترب.

وللحظةٍ واحدةٍ فقط، لمح وجهًا معلقًا في الظلام، يتوهج بضوء خبيث خافت، وجهًا طويلًا مريرًا، كان من المفترض أن يكون شابًا تقريبًا، لكنه لم يكن كذلك.

عرقٌ، شحمٌ، ورائحةٌ كحولٍ كريهةٌ في أنفاسه.. ارتطم جاك بالحائط، رافعًا قبضتيه، حتى اخفى وجهه في الظلام.

في خضمّ رعبه، ظنّ أنه سمع وقع أقدامٍ خفيفة، تعدوا فوق الأرض بسرعةٍ باتجاه مدخل النفق، فأدار وجهه عن مساحة الظلام الذي كان يخاطبه لينظر إلى الوراء.. ظلامٌ، صمتٌ.

أصبح النفق فارغًا الآن.. أحاط جاك جسده بذراعيه وانساب جسده برفق على الأرض الحجرية، فارتطمت حقيبته، بعد لحظات، عاد يتقدم للأمام مجددًا.

بمجرد أن خرج جاك من النفق، استدار لمواجهته.. لكن لم يصدر منه أي صوت، ولم تتسلل إليه أي مخلوقات غريبة.

تقدم ثلاث خطوات للأمام، وأطل عليه، ثم كاد قلبه أن يتوقف، إذ رأى عينان برتقاليتان ضخمتان تتجهان نحوه.. تقلصت المسافة بينهما وبين جاك إلى النصف في ثوانٍ.. لم يستطع الحركة.. وكأن قدماه غرقتا في الأسفلت حتى كاحليه.. وأخيرًا تمكن من مد يديه، موجها راحتيهما إلى الخارج، في لفتة غريزية للدفاع عن نفسه...

استمرت العيون تدنو منه، وانطلق بوق السيارة، قبل ثوانٍ من خروج السيارة من النفق، كاشفةً عن رجل أحمر الوجه يلوح بقبضته، ألقى جاك بنفسه بعيدًا.

"شيييييييييييي..." خرجت من فمه المتشنج.. لا يزال جاك مذهولًا، استدار وشاهد السيارة وهي تسرع إلى أسفل التل باتجاه قرية لا بد أنها أوتلي.

4

تقع أوتلي في منخفض طويل في الأرض، منبسطة على مساحة ضئيلة من شارعين رئيسيين. أولهما امتداد طريق ميل، المنحدر حذاء مبنى ضخم ومتهالك يقع في وسط موقف سيارات واسع -مصنع وفقًا لتصور جاك- ليفضي إلى شريط من مواقف السيارات المستعملة (منخفضة الأسعار)، ومطاعم الوجبات السريعة (أثداء أمريكا العظيمة)، وصالة بولينج مع لافتة نيون ضخمة (بول-أ-راما!)، ومتاجر بقالة، ومحطات وقود.. بعد كل هذا، بقيَ من طريق ميل خمسة أو ستة مبانٍ في وسط مدينة أوتلي، شريط من المباني القديمة المكونة من طابقين والتي توقفت السيارات أمامها بشكل متعامد.

أما عن الشارع الآخر فهو موقع أهم منازل في أوتلي على ما يبدو.. مبانٍ كبيرة خشبية ذات شرفات ومروج طويلة مائلة، وحيث يتقاطع هذان الشارعان تقف إشارة مرور تومض بعينها الحمراء في وقت متأخر من بعد الظهر، وإشارة أخرى على بُعد ثماني مبانٍ ومضت باللون الأخضر أمام مبنى مرتفع كئيب متعدد النوافذ يشبه مستشفى للأمراض العقلية، وربما كان المدرسة الثانوية.. وأنبثق من الشارعين مجموعة من المنازل الصغيرة تتخللها مبانٍ مجهولة الهوية مسيجة خلف سور عالٍ من الأسلاك الشائكة.

كانت العديد من نوافذ المصنع مكسورة، وبعض نوافذ

شارع وسط المدينة مُغطاة بألواح خشبية، أكوام من القمامة والأوراق المتطايرة تناثرت في الساحات الخرسانية المُسيجة، حتى المنازل المهمة بدت مهملة، بشرفاتها المنحنية نحو الأسفل وطلائها الباهت.

ربما يكون هؤلاء الناس هم مُلاك ساحات السيارات المستعملة المليئة بالسيارات غير القابلة للبيع.

للحظة، فكّر جاك في التخلي عن أوتلي والسير إلى دوغتاون، أينما كانت.. لكن هذا يعني السير عبر نفق ميل رود مرة أخرى، من وسط منطقة التسوق، دوّى صوت بوق سيارة، وانطلق الصوت نحو جاك، مفعمًا بوحدة وحنين لا يُوصفان.

لم يستطع الاسترخاء حتى وصل إلى بوابات المصنع، أصبح نفق طريق الطاحونة خلفه مباشرةً.. على ما يقرب من ثلث النوافذ على طول الواجهة المتسخة من حطام الطوب، بينما بدت العديد من النوافذ الأخرى مربعات بنية فارغة من الورق المقوى.

حتى على الطريق، اشتم جاك رائحة زيت الماكينات والشحم، وأحزمة المراوح المشتعلة، وأصوات التروس المزعجة.. وضع يديه في جيوبه وسار إلى أسفل التل بأسرع ما يمكن.

5

عند النظر إليها عن قرب، بدت المدينة أكثر كآبة مما بدت عليه من أعلى التل.

اتكأ الباعة في ساحات السيارات على نوافذ مكاتبهم، في ملل حتى عن الخروج.. علّقت راياتهم ممزقة وكئيبة، حتى اللافتات التي من المفترض أن تبعث على التفاؤل على طول الرصيف المتصدع أمام صفوف السيارات -مالك واحد! صفقة رائعة! سيارة الأسبوع!- قد اصفرّت، تناثر عليها الحبر كما تناثر على بعض اللافتات، وكأنها هُجرت تحت المطر.

لم يتحرك سوى عدد قليل جدًا من الناس في الشوارع، وبينما كان جاك يتجه نحو وسط المدينة، رأى رجلاً عجوزًا ذو خدود غائرة وبشرة رمادية يحاول رفع عربة تسوق فارغة إلى الرصيف، عندما اقترب منه، صرخ الرجل العجوز بشيء من العداوة والخوف وكشف عن لثة سوداء كلثة الغرير ظنًا منه أن جاك سيسرق عربته! قال جاك وقلبه يخفق مرة أخرى.. «آسف».

كان الرجل العجوز يحاول احتضان هيكل العربة الضخم، يحميه، وفي الوقت نفسه يُظهر لثته المسودة لعدوه. كرر جاك «آسف، كنتُ سأفعل...».

"فوشهينغفيف(5)! فوشهينغفيف!» صرخ الرجل العجوز، وتسللت دموعه عبر أخاديد خديه.

فانطلق جاك مسرعًا.

قبل عشرين عامًا، خلال الستينيات، لا بد أن أوتلي كانت مزدهرة.. فالتألق النسبي لشارع ميل رود المؤدي إلى خارج المدينة كان نتاجًا لتلك الحقبة التي شهدت فيها أسواق الأسهم ازدهارًا كبيرًا، وكان البنزين لا يزال رخيصًا، ولم يسمع أحد بمصطلح «الدخل التقديري» لكثرة ما كان لديهم...

استثمر الناس أموالهم في فروع الامتيازات التجارية والمتاجر الصغيرة، ولفترة من الوقت، وإن لم يزدهروا بالفعل، فلقد استطاعوا النجاة رغم هول الشدائد، لا تزال هذه السلسلة القصيرة من المباني تحمل ذلك الأمل السطحي، قلة من المراهقين الملولين كانوا يجلسون في مطاعم الامتياز، يشربون مشروبات كوكاكولا متوسطة الحجم، وعلى نوافذ الزجاج المسطح للعديد من المتاجر الصغيرة، ظهرت اللافتات باهتة كلوحات ساحات السيارات المستعملة تعلن «يجب بيع كل شيء!»، لم يرَ جاك أي لافتات تطلب موظفين، فواصل سيره.

أظهر وسط مدينة أوتلي الواقع الكامن خلف الألق والحيوية المبالغ فيهم التي خلّفتها الستينيات، بينما كان جاك يشق طريقه بصعوبة عبر هذه الكتل من المباني الطوبية التي تبدو وكأنها محترقة، ازدادت حقيبته ثقلًا، وارتخت قدماه.. كان سيصل إلى دوغتاون في النهاية، لولا قدميه وضرورة عبور نفق طريق ميل مرة أخرى. بالطبع، لم يكن هناك ذئبٌ هائجٌ

يختبئ في الظلام هناك.. لقد فهم ذلك الآن، ولم يكن هناك أحدٌ يتحدث إليه في النفق...

أربكته الأراضي.. أولًا رؤية الملكة، ثم ذلك الصبي الميت تحت العربة وقد اختفى نصف وجهه، ثم مورغان؛ الأشجار.. لكن كل هذا كان هناك، حيث يمكن أن تحدث مثل تلك الأشياء.. ربما حتى يعتبرونها طبيعية، أما هنا، فلم تكن الطبيعية تسمح بمثل هذا الصخب.

وصل أمام نافذة طويلة وقذرة، من الصعب قراءة شعار «مستودع الأثاث» المتقشر الذي كُتب على الطوب.

وضع يديه حول عينيه وحدق في الداخل، كان هناك أريكة وكرسي، كل منهما مغطى بملاءة بيضاء، على بُعد خمسة عشر قدمًا من بعضهما البعض على أرضية خشبية عريضة. أخذ جاك يجوب نهاية الشارع، متسائلًا عما إذا كان سيضطر إلى التسول للحصول على الطعام.

كان أربعة رجال يجلسون في سيارة أمام متجر مغلق على بُعد مسافة قصيرة من الشارع، استغرق الأمر من جاك لحظة ليرى أن السيارة من طراز ديسوتو سوداء قديمة تبدو وكأنها سيارة برودريك كروفورد(6)، خالية من الإطارات، كان هناك بطاقة صفراء مقاس 5 × 8 بوصة مثبتة على الزجاج الأمامي مكتوب عليها «نادي الطقس الجيد»، جلس الرجال داخلها، اثنان في المقعدين الأماميين الأمام واثنان في الخلف،

يلعبون الورق، صعد جاك إلى نافذة الراكب الأمامية.

قال «معذرةً»، فرفع لاعب الورق الأقرب إليه عينًا رمادية مريبة نحوه.. «هل تعرف أين.."

"اغرب عن وجهي،" قالها الرجل بصوتًا جافًا متحشرج، وكأنه غير معتاد على الكلام.. كان وجهه نصف ملتفت نحو جاك، مليئًا بآثار حب الشباب، ومسطحًا بشكل غريب، كما لو أن أحدهم داس عليه عندما كان رضيعًا.

"كنت أتساءل إن كنت تعرف مكانًا يمكنني الحصول فيه على عمل لبضعة أيام.»

"جرب تكساس،" قال الرجل الجالس في مقعد السائق، فانفجر الجالسان في المقعد الخلفي ضاحكين، وبصقا البيرة على أوراق اللعب.

"قلت لك يا فتى، اغرب عن وجهي،" قالها الرجل ذو الوجه الشاحب والعينين الرماديتين الأقرب إلى جاك.. "وإلا سأضربك ضربًا مبرحًا."

لقد أدرك جاك حقيقة أنه لو بقي هناك لحظة أخرى، لثار غضب هذا الرجل، وخرج من السيارة وضربه ضربًا مبرحًا.. ثم عاد لداخلها ليتجرع زجاجة أخرى من البيرة.

غطت علب رولينج روك الأرضية، المفتوحة منها مائلة في كل اتجاه، والطازجة منها مربوطة بحبال بلاستيكية بيضاء.

تراجع جاك للخلف، وتدحرجت عين السمكة عنه.. قال

"أعتقد أنني سأجرب تكساس في النهاية". أصغى لصوت صرير باب ديسوتو وهو ينفتح أثناء ابتعاده، وكل ما سمعه فتح عبوة رولينج روك أخرى.

طقطقة! هسهسة!

استمر في التحرك...

حتى وصل إلى نهاية الشارع ووجد نفسه ينظر عبر الشارع الرئيسي الآخر للمدينة إلى حديقة ميتة مليئة بالأعشاب الصفراء، تطل منها تماثيل من الألياف الزجاجية لظباء تشبه ظباء ديزني، حدقت نحوه امرأة عجوز عديمة الملامح تمسك بمضرب ذباب أطلت عليه من أرجوحة الشرفة.

أدار جاك وجهه عن نظراتها المريبة ورأى أمامه آخر البنايات الطوبية الخالية من الحياة على طريق ميل.

ثلاث درجات خرسانية تؤدي إلى باب شبكي مفتوح، نافذة طويلة مظلمة احتوت على لافتة متوهجة من ماركة بادوايزر(7)، وعلى بُعد قدم إلى يمينها، عُلّقت عبارة «براميل أبديك من أوتلي". وتحتها ببضع بوصات، مكتوبة بخط اليد على بطاقة صفراء بحجم 5×8، كتلك الموجودة على ديسوتو، كلمات عجيبة.. وهي "مطلوب موظفين".

سحب جاك حقيبة ظهره، ووضعها تحت ذراعه، ثم صعد الدرج، للحظة، وهو ينتقل من ضوء الشمس المُرهق إلى ظلام البار، تذكر مروره عبر حافة اللبلاب الكثيفة إلى نفق طريق

میل.

الفصل التاسع

جاك داخل نبات الإبريق(8)

1

وبعد أقل من ستين ساعة، عمل جاك سوير، الذي تبدلت حالته النفسية تمامًا عن جاك سوير الذي غامر بدخول نفق أوتلي يوم الأربعاء، في مخزن أوتلي البارد للبراميل، أخفى حقيبته خلف البراميل المزروعة كشجيرات تقبع في الزاوية البعيدة من الغرفة فتبدوا كقطع بولينج من الألومنيوم المنتشرة عبر زقاق عملاق، وفي أقل من ساعتين، حين حل الليل وأغلق مخزن البراميل أبوابه أخيرًا، عزم جاك على الهرب.. إن مجرد تفكيره في الأمر بهذه الطريقة لا مغادرة، لا رحيل، بل هرب يُظهر إلى أي مدى صار في وضع ميؤوس منه.

(كنث في السادسة، السادسة، جون ب. سوير في السادسة، وجاكي في السادسة. السادسة.)

خطرت له هذه الفكرة، التي بدت غير منطقية، والتي أخذت تتكرر في ذهنه هذا المساء، حيث رأى من خلالها مدى خوفه، وتيقن بأن كل الأشياء بدأت تُحكم عليه الحصار...

لم يكن لديه أدنى فكرة عن معناها؛ فقد ظلت تدور وتدور، كحصان خشبي مُثبت في دوامة خيل.

(ستة.. كنت في السادسة.. جاكي سوير في السادسة.)

مرارًا وتكرارًا، تدور وتدور...

جدار واحد يفصل بين المخزن والحانة، والليلة ارتج الجدار بالضوضاء؛ نبض كطبلة.

فحتى العشرون دقيقة التي مضت لم تكن ليلة الجمعة قد بدأت بعد.. حيث أن عطلة كل من شركة أوتلي للغزل والنسيج وشركة دوغتاون الخاصة للمطاط يوم الجمعة، وها هي الآن حانة أوتلي امتلأت حتى فاضت...

على صفحة ملصق كبير مثبت يسار البار كُتب «الإشغال بأكثر من 220 شخصًا يُعد انتهاكًا لقانون الحرائق 331 في مقاطعة جينيسي»، يبدو أن قانون الحرائق 331 كان يُعلق في عطلات نهاية الأسبوع، لأن جاك خمن أن هناك أكثر من ثلاثمائة شخص هناك في تلك اللحظة، يرقصون على أنغام فرقة موسيقى الريف الغربية التي تُطلق على نفسها اسم «جيني فالي بويز»، وهي فرقة سيئة للغاية، لكن لديهم جيتار بيدال ستيل، "هناك رجال في هذه المنطقة مستعدون لفعل أي شيء من أجل مصلحة بلدنا، يا جاك»، هذا ما قاله سموكي.

"جاك!" صرخت لوري بصوتٍ عالٍ.

لوري هي زوجة سموكي، لم يكن جاك قد عرف لقبها بعد.. بالكاد سمعها بسبب صوت الموسيقى، الذي كان يُعزف بأعلى

صوت بينما كانت الفرقة في استراحة! حيث يقف خمستهم في أقصى البار، كما يعلم جاك، يشربون بيرة بلاك راشنز بنصف السعر.

أخرجت رأسها من باب المخزن، ولمع شعرها الأشقر المُرهق، المُثبت بمشابك بلاستيكية بيضاء طفولية، تحت ضوء المصباح المشع.

"جاك، إن لم تُفرغ برميلك بسرعة، فسيتدبر أمره معك."

"حسنًا،" قال جاك.. «قولي له إني سأكون هناك حالًا.»

شعر بقشعريرة تسري في ذراعيه، ولم تكن نابعة تمامًا من برودة المخزن الرطبة...

لم يكن سموكي أبدايك شخصًا يمكنك العبث معه...

سموكي الذي وضع على رأسه النحيل سلسلة من قبعات الطهاة، ذو أطقم الأسنان البلاستيكية الكبيرة، التي طلبها بالبريد، كانت بشعةً وجنائزيةً بشكلٍ ما رغم استواءها المثالي، صاحب العينين البنيتين العنيفتين، وبياضهما المصفر القديم والقذر...

لم يكن جاك يعرف سموكي أبديك جيدًا مما أخافه بشكل ما وجعل الآخر ينجح في أن يجعله سجينه.

ساد الصمتُ مؤقتًا في صندوق الموسيقى، لكن هدير الجمهور المُستمر بدا وكأنه قد ازداد قليلًا ليُعوّض عن ذلك.. رفع أحد رعاة البقر من بحيرة أونتاريو صوته وصاح وهو

ثمل «يااااهووووا!"، ثم صرخت امرأة، انكسر كأس، وانطلق صندوق الموسيقى مجددًا، مُصدرًا صوتًا يُشبه إلى حدٍ ما صاروخ زحل الذي نجح في الإفلات سريعًا.

"مكانٌ يأكلون فيه ما يدهسونه به على الطريق."

نيء...

انحنى جاك فوق أحد براميل الألومنيوم وسحبه مسافة ثلاثة أقدام تقريبًا، وفمه مشدودٌ في ألمٍ عارم، والعرق يتصبب من جبينه رغم برودة التكييف، وظهره يئن باحتجاج.. أصدر البرميل صريرًا فوق الأرضية الاسمنتية الغير مستوية، توقف هو، يتنفس بصعوبة، وتطن أذناه.

دفع عربة اليد إلى برميل بوش، وأوقفها، ثم التفت إلى البرميل مرة أخرى، تمكن من دفعه من الحافة للأمام، نحو عربة اليد، وبينما كان يضعه، فقد السيطرة عليه حيث كان وزن برميل البار الكبير أخفّ ببضعة أرطال فقط من وزن جاك نفسه.. سقط بقوة على قاعدة عربة اليد، التي كانت مبطنة ببقايا سجادة لتخفيف مثل تلك السقطات، حاول جاك تحريكه ثم إبعاد يديه عن الطريق في الوقت المناسب، لكنه كان بطيئًا فدهست أصابعه بين البرميل وظهر عربة اليد، ودوّى صوت الارتطام المؤلم، ثم تمكن بطريقة ما من إخراج أصابعه النابضة.. وضع جاك أصابع يده اليسرى في فمه ومصها، والدموع تملأ عينيه.

لكن الأسوأ من ارتطام أصابعه، أنه كان يسمع تنفسًا بطيئًا للغازات التي أخذت تتسرب عبر غطاء البرميل. ماذا لو علق سموكي البرميل فأخرج رغوًا؟ أو الأسوأ من ذلك، ماذا لو فتح الغطاء وانفجرت البيرة في وجهه؟؟

من الأفضل ألا تفكر في تلك الأمور.

أمس.. في ليلة الخميس، عندما حاول «إخراج إحدى براميل سموكي الصغيرة"، انقلب البرميل على جانبه، انطلق غطاء التنفيس عبر الغرفة فارتطمت رغوة البيرة البيضاء الذهبية بأرضية المخزن وتدفقت إلى البالوعة، وتجمد جاك هناك بإعياء، غافلًا عن صيحات سموكي.. لم تكن بوش، بل كينغزلاند، وهي ليست أي بيرة، بل بيرة الملكة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ضربه فيها سموكي استدار وضربه سريعًا فأطاح بجسد جاك إلى أحد جدران المخزن المتشققة...

صاح سموكي «ها قد ذهب أجرك اليوم. ولا تريد أن تفعل ذلك مرة أخرى يا جاك».

أكثر ما أرعب جاك في عبارة «لا تريد أن تفعل ذلك مرة أخرى» هو افتراضه أن هناك الكثير من الفرص ليكرر فعلته مرة أخرى؛ كما لو أن سموكي أبدايك يتوقع منه البقاء هنا طويلًا جدًا.. "جاك، أسرع!"

قال جاك وهو يلهث "قادم"، جرّ عربة اليد عبر الغرفة

إلى الباب، وتحسس من خلفه المقبض، أداره، ثم دفع الباب ليفتحه، اصطدم بشيء كبير وناعم ومرن.

يا إلهي، انتبه!

قال جاك «عفوًا، آسف».

أجابه الصوت «عفوًاا.. أيها المخنث".

انتظر جاك حتى سمع خطوات ثقيلة تتحرك في الردهة خارج المخزن، ثم حاول فتح الباب مرة أخرى.

كانت الردهة ضيقة ومطلية بلون أخضر كريه، تفوح منها رائحة القذارة والبول و"تيدي بول"(9)، وتم ثقب الجص والشبك هنا وهناك؛ وتناثرت كتابات الجرافيتي في كل مكان، كتبها سكارى ملولين يتوقعون فهم رموزهم وخطوطهم، أكبرها جميعًا كان قد شُقّ على الطلاء الأخضر بقلم تحديد سحري أسود، وبدا وكأنه يصرخ بكل غضب أوتلي الكئيب والغير مبرر.. "أرسلوا جميع الزنوج واليهود الأمريكيين إلى إيران"، هكذا كُتب.

كان ضجيج حانة البراميل عاليًا في المخزن؛ أما هنا، فكانت موجة صوتية هائلة لم يبدُ أنها ستهدأ أبدًا.. ألقى جاك نظرة خاطفة إلى المخزن من فوق البرميل المائل على عربة اليد، محاولاً التأكد من نجاحه في إخفاء حقيبته.

عليه أن يخرج.. يجب عليه ذلك.. وأخرًا دبت الحرارة في الهاتف المعطل، ذلك الذي بدا وكأنه غُلف في كبسولة جليدية

مظلمة... كان ذلك سيئًا.. بل إن راندولف سكوت(10) أسوأ، لم يكن الرجل راندولف سكوت حقًا؛ لم يكن يبدو إلا كما بدا سكوت في أفلامه الخمسينية.. ربما كان سموكي أبدايك أسوأ... على الرغم من أن جاك لم يعد متأكدًا من أي شيء.. ليس منذ أن رأى (أو ظن أنه رأى) تغير ألوان عيني الرجل الذي يشبه راندولف سكوت.

لكن أن أوتلي نفسها كانت الأسوأ على الإطلاق... كان متأكدًا من ذلك.

بدا أن أوتلي، نيويورك، في أعماق مقاطعة جيني، أصبحت الآن فخًا فظيعًا نُصب له... نوع من نبات الإبريق المحلي.. إنه إحدى عجائب الطبيعة الحقيقية، فكم يسهل الولوج لداخله وكم يستحيل الخروج منه...

2

وقف أمامه رجلٌ طويل القامة، ذو بطنٍ ضخمٍ متأرجح، ينتظر دخول حمام الرجال، ينخر أسنانه بعود أسنان بلاستيكي، ويُحدّق في جاك.. حتى ظنّ أن بطنه الضخم هي ما ارتطم بالباب.

أخذ الرجل البدين ينعته "مخنث"، ثم انفتح باب حمام الرجال فجأة، خرج رجل متعجل، للحظةٍ خاطفة، التقت عيناه بعيني جاك.. كان الرجل الذي يشبه راندولف سكوت، لكن هذا لم يكن نجمًا سينمائيًا؛ بل مجرد عامل مطحنة في أوتلي ينفق أجره الأسبوعي على الشراب، ولاحقًا سيغادر في سيارة موستانج دفع نصف ثمنها أو ربما على دراجة نارية دفع ثلاثة أرباع ثمنها، على الأرجح ستكون دراجة هارلي كبيرة قديمة مثبت على محركها ملصق «اشترِ المنتجات الأمريكية».

اصفرّت عيناه.

لا، إنه خيالك يا جاك، حتمًا هي محض مخيلتك.. إنه مجرد عامل طاحونة كان ينظر إليك بعينيه لأنك جديد.

ربما ارتاد المدرسة الثانوية هنا في المدينة، ولعب كرة القدم، وحملت منه مشجعة كاثوليكية فتزوجها، وقد ازداد وزنها بعد الزواج بسبب الشوكولاتة وعشاء ستوفر المعلج؛ مجرد شخص أحمق آخر من عائلة أوتلي، مجرد...

لكن اصفرّت عيناه مجددًا...

كفى! لم تصفرا!

ومع ذلك، كان هناك شيء فيه جعل جاك يفكر فيما حدث عندما كان قادمًا إلى المدينة... ما حدث في الظلام...

تراجع الرجل البدين الذي وصف جاك بالمخنث وحل محله الرجل الآخر.. النحيل الذي يرتدي بنطال ليفيز وقميصًا أبيض نظيفًا.

انطلق راندولف سكوت نحو جاك، تأرجحت يداه الكبيرتان المتعرقتان على جانبيه، لمعت عيناه بلون أزرق ثلجي... ثم بدأتا تتغيران، إلى حمرة مضيء، ثم نادى «يا فتى!»، فانطلق جاك مسرعًا، ضاربًا الباب المتأرجح بمؤخرته، غير مبالٍ بمن يرتطم.

انقضّ عليه الضجيج.. كان كيني روجرز يصدح بحماسٍ ريفيٍ لشخصٍ يُدعى روبن جيمس "لقد حولت خدك إلى الآخر، شهد كيني على هذه الغرفة المليئة بالسكارى ذوي الوجوه العابسة، ‹وقال إن هناك عالماً أفضل ينتظر الودعاء!"

لم يرَ جاك أحدًا هنا تبدو عليه الوداعة.. كان فتيان جيني فالي يعودون إلى المنصة ويلتقطون آلاتهم وجميعهم يبدون في حالة سُكر وحيرة... باستثناء عازف البيدال ستيل(11)، ربما لم يكونوا مدركين حقًا لموقعهم، أما عازف البيدال ستيل، فقد بدا عليه الملل فقط.

على يسار جاك، وقفت امرأة تتحدث بجدية على هاتف الحانة العمومي هاتف لن يلمسه جاك مجددًا حتى لو أراد ذلك، ولو مقابل ألف دولار، وبينما هي تتحدث، تحسس رفيقها الثمل قميصها الكاوبوي نصف المفتوح، على حلبة الرقص الكبيرة، كان هناك ما يقرب من سبعين زوجًا يتلامسون ويتحركون، غافلين عن إيقاع الأغنية السريع، يضغطون ويطحنون، يضعون أيديهم على مؤخرات بعضهم البعض، وشفاههم ملتصقة، والعرق يسيل على خدودهم ويشكل دوائر كبيرة تحت إبطهم.

"الحمد لله"، قالت لوري، وقلبت له الحاجز المفصلي على جانب البار، كان سموكي في منتصف البار، يملأ صينية غلوريا بمشروبات الجن والتونيك، والفودكا الحامضة، مما أبدى أنه المنافس الوحيد لمشروب أوتلي تاون بلاك راشانز.

رأى جاك راندولف سكوت يخرج من خلف الباب المتأرجح، نظر إلى جاك، فالتقت عيناه الزرقاوان بعينا جاك على الفور، أومأ برأسه قليلًا، كأنه يقول "سنتحدث.. حسنًا سيدي، ربما سنتحدث عما قد يكون أو لا يكون في نفق أوتلي، أو عن سياط الثيران، أو الأمهات المريضات، ربما سنتحدث عن كيف ستبقى في مقاطعة جيني طويلًا جدًا... ربما حتى تصبح عجوزًا تبكي على عربة تسوق، ما رأيك يا جاكي؟"

ارتجف جاك.

ابتسم راندولف سكوت، كما لو أنه لمح رعشته... أو شعر

بها.. ثم انصرف إلى الحشد والهواء الكثيف.

بعد لحظة، عضّت أصابع سموكي النحيلة والقوية كتف جاك باحثةً عن أكثر مكان مؤلم، وكالعادة، وجدته.. كانت أصابعًا مثقفة، تستهدف الأعصاب.

قال سموكي «جاك، عليك أن تتحرك أسرع». أبدى صوته تعاطفًا، لكن أصابعه كانت تحفر وتتحرك وتتحسس، رائحة أنفاسه كرائحة حلوى النعناع الكندية الوردية التي يمصها باستمرار، كانت أسنانه الاصطناعية التي طلبها عبر البريد تُصدر طقطقة.. أحيانًا تنزلق قليلًا فيمتصها بفُحش ويعيدها إلى مكانها.

"عليك أن تتحرك أسرع وإلا سأضطر لإشعال نار أسفل مؤخرتك.. هل تفهم ما أقول؟»

"نعم،" رد جاك محاولًا ألا يتأوه.

"حسنًا إذن، هذا جيد" لثانية مؤلمة أخرى، غرست أصابع سموكي أعمق، تطحن بحماس مرير من ذلك العش الصغير الأنيق من الأعصاب هناك.. تأوّه جاك، كان ذلك كافيًا لسموكِي.. فحرره.

"ساعدني في ملء هذا البرميل بسرعة يا جاك، إنها ليلة الجمعة، على الناس أن يشربوا.»

"لصباح السبت،» ردد جاك بغباء.

"إذن، هيا بنا."

تمكن جاك بطريقة ما من مساعدة سموكي في رفع البرميل إلى الحجرة المربعة أسفل البار، برزت عضلات سموكي النحيلة والهزيلة وتقلصت تحت قميصه ذي النقشة «أوتلي للبراميل"، بقيت قبعة الطباخ الورقية على رأسه النحيل ثابتة في مكانها، وكادت حافتها الأمامية تلامس حاجبه الأيسر، في تحدٍّ واضح للجاذبية. راقب جاك، حابسًا أنفاسه، سموكي وهو ينزع غطاء التنفس البلاستيكي الأحمر عن البرميل. كان البرميل يتنفس بقوة أكبر مما ينبغي... لكنه لم يُرغَ.. زفر جاك أنفاسه في ارتياح صامت.

أدار سموكي البرميل الفارغ نحوه.. «أعده إلى المخزن، ثم اخرج من الحمام.. تذكر ما قلته لك بعد ظهر اليوم."

تذكر جاك. في الساعة الثالثة، انطلقت صفارة إنذار كصافرة إنذار غارة جوية، كادت أن تجعله يقفز من جلده. ضحكت لوري، وقالت: انظر إلى جاك، سموكي أعتقد أنه قد تبول للتو في سرواله الجينز..

ألقى عليها سموكي نظرة ضيقة وغير مبتسمة وأشار لجاك، أخبره أن هذه هي صافرة الإنذار في حانة أوتلي، وأخبره جاك أن صافرة تشبهها كثيرًا تنطلق فى دوغتاون رابر، وهى شركة تصنع ألعاب الشاطئ ودمى المطاط القابلة للنفخ والواقيات الذكرية بأسماء مثل أضلع البهجة.

أخبره إن حالة أوتلي ستبدأ قريبًا في الامتلاء، قال سموكي

«وأنت وأنا ولوري وغلوريا سنتحرك بسرعة البرق، لأنه عندما يصرخ النسر يوم الجمعة، يتعين علينا التعويض عما لا يصنعه هذا المكان كل يوم أحد وإثنين وثلاثاء وأربعاء وخميس.. عندما أطلب منك أن تخرج لي برميلًا، فأنت تريد أن تخرجه لي قبل أن أنهي ما أقوله.. وأنتِ تدخلين حمام الرجال كل نصف ساعة بممسحتكِ ففي ليالي الجمعة، يقضي الرجال حاجاتهم كل خمس عشرة دقيقة تقريبًا.

"لديّ حمام النساء،" قالت لوري وهي تقترب، كان شعرها خفيفًا، ذهبيًا مموجًا، وبشرتها بيضاء كبشرة مصاص دماء من القصص المصورة.

وهي إما مصابة بنزلة برد أو بإدمان مشروبات كحولية سيئة؛ كانت تشمّ باستمرار. خمن جاك أنها نزلة برد، شك في أن أحدًا في أوتلي يستطيع تحمّل إدمان مشروبات كحولية سيئة.. "مع ذلك، النساء لسن سيئات كالرجال.. تقريبًا، ولكن ليس تمامًا."

"اصمتي يا لوري."

"إلى الأعلى الآن» قالتها، فمضت يد سموكي كالبرق الذي أحدث صدعًا، وفجأة انطبعت بصمة كف سموكي الحمراء على أحد خدي لوري الشاحبين كوشوم الأطفال، بدأت تبكي... لكن جاك شعر بالغثيان والحيرة لرؤية تعبير في عينيها يكاد يكون سعيدًا! كانت نظرة امرأة تعتقد أن هذه المعاملة علامة على الاهتمام.

قال سموكي: «استمر في العمل الجاد ولن نواجه أي مشكلة.. تذكر أن تتحرك بسرعة عندما أصرخ عليك لتخرج برميلًا لي، وأن تدخل إلى حمام الرجال بممسحتك كل نصف ساعة وتنظف القيء.»

ثم أخبر سموكي مجددًا أنه يريد المغادرة، وكرر سموكي وعده الكاذب بشأن عصر الأحد... ولكن ما فائدة التفكير في ذلك؟

ارتفع الصراخ الآن، ونعيق الضحكات الخشنة.. صوت كسر كرسي وصرخة ألم متقطعة، اندلع شجار بالأيدي على حلبة الرقص وهو الثالث من تلك الليلة، لعن سموكي ودفع جاك بقوة قائلاً «تخلص من هذا البرميل».

وضع جاك البرميل الفارغ على العربة وسحبه عائدًا نحو الباب المتأرجح، ناظرًا بقلق باحثًا عن راندولف سكوت.. رأى الرجل الواقف وسط الحشد الذي كان يشاهد الشجار، فاسترخى قليلًا.

في المخزن، وضع البرميل الفارغ مع البراميل الأخرى بجانب رصيف التحميل استهلكت حانة أوتلي أبدايك بالفعل ستة براميل في تلك الليلة، بعد أن انتهى مما يفعل، تفقد حقيبته بذعر فللحظة ظن أن العصير السحري قد نفد وبدأ قلبه يخفق بشدة، وتفحص كذلك عملة الأراضي التي أصبحت دولارًا فضيًا في هذا العالم.. تحرك إلى اليمين،

والعرق يتصبب من جبينه، وتحسس ما بين برميلين آخرين. ها هو ذا.. استطاع تتبع منحنى زجاجة سبيدي من خلال النايلون الأخضر للحقيبة. بدأ قلبه يتباطأ، وشعر برجفة وثقل في ساقيه.. كما تشعر بعد النجاة بأعجوبة.

كان حمام الرجال مرعبًا.. في وقت سابق من المساء، ربما تقيأ جاك انفعالا، لكنه الآن بدا وكأنه يعتاد على الرائحة الكريهة... وذلك هو الأسوأ على الإطلاق..

فتح الماء الساخن، وسكب عليه سائل التنظيف، ثم بدأ يُمرر ممسحته ذهابًا وإيابًا عبر الفوضى العارمة على الأرض، بدأ ذهنه يعود إلى الأيام القليلة الماضية، بقلق كحيوان وقع في شرك لا فرار منه...

3

كانت حانة أوتلي مظلمة وقذرة، وبدت فارغة تمامًا عندما دخلها جاك..

حيث تم فصل جميع مقابس الجوك وآلة البينبول ولعبة سبيس إنفيدرز، أما عن الضوء الوحيد في المكان فمصدره شاشة غسالة الأطباق الموضوعة خلف البار التي بدت كساعة رقمية عالقة بين قمتي جبلين، أو كأغرب طبق طائر يمكنك تخيله.

ابتسم جاك ابتسامة خفيفة، وسار نحو البار، قبل أن يصل سمع صوتًا هادئًا من خلفه يقول «هذه حانة، ممنوع دخول القاصرين.. ماذا تفعل أيها غبي؟ اخرج.»

كاد جلد جاك أن يسقط هلعًا، أخذ يتلمس النقود في جيبه، مُعتقدًا أن الأمر سيسير كما حدث في مطعم الملعقة الذهبية.. حين جلس على مقعد وطلب شيئًا ثم سأل عن وظيفة، ولأن توظيف طفلًا مثله عملًا غير قانوني على الأقل بدون تصريح عمل موقع من والديه أو ولي أمره.. ويعني هذا أن توظيفه سيكون بأجر بخس جدًا ومن هنا تبدأ المفاوضات، وعادةً ما تصحبها قصة جاك الثانية مع زوج أمه الشرير.

استدار فرأى رجلاً جالسًا وحيدًا في إحدى الكبائن، ينظر إليه ببرود وازدراء.

كان الرجل نحيفًا، لكن عضلاته برزت تحت فانلته البيضاء

وعلى جانبي رقبته، كان يرتدي سروال طباخ أبيض فضفاضًا وقبعة ورقية مائلة للأمام فوق حاجبه الأيسر ذو رأس نحيل، كرأس ابن عرس، كان شعره قصيرًا، رماديًا عند أطرافه، بين يديه الكبيرتين، كومة من الفواتير وآلة حاسبة من نوع تكساس إنسترومنتس.

قال جاك ببصوت خالٍ من التفاؤل «رأيت في الخارج لافتة (مطلوب موظفين)»،

لم يكن هذا الرجل ليوظفه، ولم يكن جاك متأكدًا من رغبته في العمل معه على أي حال حيث بدا له شريرًا.

قال الرجل من داخل الكابينة.. «قرأت، أليس كذلك؟ لا بد أنك تعلمتَ القراءة في أحد الأيام التي لم تكن فيها متغيبًا عن المدرسة»، كانت هناك علبة من حلوى فيليز تشيروتس موضوعة على الطاولة فأهرج منها واحدة.

"حسنًا، لم أكن أعلم أنه بار"، قال جاك وهو يتراجع خطوةً نحو الباب.. بدا ضوء الشمس وكأنه قد اخترق الزجاج المتسخ ثم سقط فجأةً على الأرض، كما لو أن حانة أوتلي تقع في بُعدٍ آخر.. «أعتقد أنني ظننتُ أنه... كما تعلم، بار ومطعم. شيءٌ من هذا القبيل.. سأذهب فحسب.»

" تعال هنا." نظر الرجل إليه بعيونه البنية بثبات.

" لا، لا بأس،" قالها جاك بتوتر.. "سأمضي فقط.."

"تعال هنا، اجلس"، دفع الرجل فجأة عود ثقاب خشبي

بظفره وأشعل سيجاره، طارت ذبابة كانت تزين قبعته الورقية عبر الظلام، بقيت عيناه مثبتتان على جاك... "لن أعضك"

اقترب جاك ببطء من الكابينة، وبعد لحظة انتقل إلى الجانب الآخر في استسلام، وها هو ذا بعد حوالي ستين ساعة، خارجًا من حمام الرجال في الثانية عشرة والنصف صباحًا وشعره المتعرق ملتصقًا بعينيه، فكر جاك.. لا لقد علمت، لكن سذاجتك وثقتك هي ما سمحت بإحكام الفخ حولك.. (وقد أُحكم في اللحظة التي جلس فيها مقابل سموكي أبدايك، رغم أنه لم يكن يدرك ذلك حينها).

تستطيع مصائد فينوس(12) الانغلاق على حشراتها التعساء؛ أما نبات الإبريق، برائحته اللذيذة وجوانبه الملساء القاتلة والزجاجية، فلا ينتظر سوى حشرة طائرة صغيرة لتنزل إلى الداخل... حيث تغرق أخيرًا في مياه الأمطار التي تجمعها نباتات الإبريق، في أوتلي، كان الإبريق مليئًا بالبيرة بدلاً من مياه الأمطار وهذا هو الفرق الوحيد...

لو كان قد هرب...

لكنه لم يهرب، وربما، فكّر جاك في ذلك، وهو يبذل قصارى جهده لمواجهة تلك النظرة البنية الباردة، ستكون هناك وظيفة هنا في النهاية.

مينيت بانبيري، مالكة ومُديرة مطعم «الملعقة الذهبية»

في أوبورن، كانت لطيفة بما يكفي مع جاك، حتى أنها عانقته برفق وقبلته برفق، بالإضافة إلى إعطائه ثلاث شطائر متخمة عندما غادر، لكنه لم ينخدع باللطف، وحتى ولو كان قليلًا من اللطف، لم يمنعها من الاهتمام المبالغ فيه بالأرباح، والذي يشبه الجشع الصريح.

كان الحد الأدنى للأجور في نيويورك ثلاثة دولارات وأربعين سنتًا في الساعة، وقد نُشرت هذه المعلومات في مطبخ الملعقة الذهبية بموجب القانون، على قطعة ورق وردية زاهية بحجم ملصق فيلم تقريبًا، لكن طاهي الوجبات السريعة كان هايتيًا يتحدث القليل من الإنجليزية وكان من المؤكد تقريبًا أنه موجود في البلاد بشكل غير قانوني، كما اعتقد جاك، كان الرجل طاهٍ عبقري، لم يترك أبدًا البطاطس والمحار المقلي للاحتراق في المقلاة العميقة بالمطبخ، أما الفتاة التي عملت كنادلة لدى السيدة بانبيري فعقلها فارغ ومسجلة في برنامج روما للمتخلفين عقليًا المعفون من العمل، في مثل تلك الحالات، لا يتم تطبيق الحد الأدنى للأجور، وأخبرت الفتاة المتخلفة عقليًا جاك برهبة غير مصطنعة أنها كانت تحصل على دولار وخمسة وعشرين سنتًا في الساعة، وكل هذا فقط من أجلها.

وحصل جاك نفسه على دولار ونصف، بعد مفاوضات، وكان يعلم أنه لو لم تكن السيدة بانبيري في ضائقة مالية بعد تعطل غسالة أطباقها القديمة صباح ذلك اليوم، وقت استراحة

القهوة ولم تعد للعمل إطلاقًا؛ لكانت قالت له ببساطة «خذ الدولار وربعه يا بني، أو سر في طريقك لترى ما سيحدث".. "إنها دولة حرة".

الآن، فكّر، بسخرية غير متعمدة باتت جزءًا من ثقته الجديدة بنفسه، ها هي السيدة بانبيري أخرى، ذكر بدلًا من أنثى، نحيف كالحبل بدلًا من سمين، ولطيف كالجدة، عبوس لا يتبسم، لكنه حتمًا السيدة بانبيري، بكل ما تحمله الكلمة من معنى...

"تبحث عن عمل، أليس كذلك؟" وضع الرجل ذو البنطال الأبيض والقبعة الورقية سيجاره في منفضة سجائر معدنية قديمة نقشت عليها كلمة «جمال» فتوقفت الذبابة عن غسل أرجلها وانطلقت.

"نعم سيدي، ولكن كما قلت، هذا بار وكل شيء..."

عاد القلق يدب في نفسه.. أزعجته تلك العيون البنية بصلابتها الصفراء.. كعينا قطة صيد عجوز رأت الكثير من الفئران الضالة مثله من قبل...

"نعم إنه مكاني» قالها الرجل ثم مد سموكي أبدايك يده فجأة مما أفزع جاك، وصافحه ضاغطًا بقوة على يده حتى كاد أن يسحقها، ثم أرخى قبضته... لكنه لم يُفلتها، قال «حسنًا؟»

"هاه؟» قالها جاك، مُدركًا كم يبدوا عليه الخوف والغباء..

غمره خوفه وشعوره بالبلاهة أمام كل ما يحدث، لكنه أراد أن يُفلت يده من يد أبدايك.

" ألم يعلمك ذويك أبدًا كيفية تقديم نفسك؟»

كان هذا مفاجئًا لدرجة أن جاك كاد أن ينطق باسمه الحقيقي بدلًا من الاسم الذي استخدمه في مطعم الملعقة الذهبية، والذي كان يستخدمه أيضًا مع رفاق الطريق، وهو الاسم الذي أطلق عليه جاك «اسم الطريق» وهو لويس فارين.

رد " جاك سو-آه- سوتيل ، ".

أمسك أبدايك بيده للحظة، وعيناه البنيتان لا تتحركان. ثم تركها، قال «جاك سو-آه- سوتيل! لا بد أنه أطول اسم في دليل الهاتف، أليس كذلك يا فتى؟»

احمر وجه جاك، لكنه لم يقل شيئا.

" أنت لست ضخمًا جدًا هل تعتقد أنك تستطيع أن تحرك برميلًا من البيرة يزن تسعين رطلاً على جانبه وتحمله على عربة يدوية ؟»

" أعتقد ذلك "، رد وهو لا يدري إن كان يستطيع ذلك أم لا.. على أي حال، لم يبدُ الأمر مشكلة كبيرة ففي مكانٍ مُهمَل كهذا، ربما لم يكن على الرجل تغيير البراميل إلا عندما يفرغ البرميل المتصل بالصنبور.

كأنه يقرأ أفكاره، قال أبدايك «أجل، لا أحد هنا الآن.. لكننا ننشغل كثيرًا بحلول الرابعة أو الخامسة، وفي عطلات نهاية

الأسبوع، يمتلئ المكان بالناس، حينها ستكسب رزقك يا جاك.»

"حسنًا، لا أعرف،" قال جاك.. "كم سيبلغ راتب الوظيفة؟"

" دولار في الساعة، أتمنى لو أستطيع أن أدفع لك أكثر، لكن...» هز كتفيه ونقر على كومة الأوراق النقدية.. حتى أنه ابتسم قليلاً، وكأنه يقول " أرأيت يا بني، كل شيء في أوتلي ينهار كساعة جيب رخيصة نسي أحدهم لفها.. منذ عام ١٩٧١ تقريبًا، وهي تنهار»، لكن عينيه لم تبتسما.. كانت عيناه تراقبان وجه جاك بتركيز ثابت كعيون القطط.

"يا إلهي، هذا قليل جدًا»، قال جاك متحدثًا ببطء، رغم سرعة بديهته.

حانة أوتلي كانت أقرب إلى مقبرة فلم يكن هناك حتى رجل مخمور واحد يجلس على البار ويتجرع البيرة وهو يشاهد مسلسل المستشفى العام على شاشة التلفاز... في أوتلي يبدوا أن الناس يفضلون تناول الشراب في سياراتهم ويطلقون عليها نوادٍ، والحصول على دولار ونصف في الساعة كان صعبًا خاصة حين تعمل بجد؛ بينما في مكان كهذا يبدوا دولارًا فى الساعة أجرًا مرضيًا.

" لا مشكلة" قلها أبدايك موافقًا، وعاد إلى حاسبته، «كما تشاء" قال صوته إن جاك يمكنه أن يأخذ الأمر أو يرفضه؛ ولن تكون هناك مفاوضات.

"لكن يمكن أن يسير كل شيء على ما يرام"، قال جاك...

"حسنًا، هذا جيد،" قال أبدايك.. "لكن علينا تبيّن أمر آخر.. ممن تهرب ومن يبحث عنك؟" عادت عيناه البنيتان إليه، وهما تحفران بداخله بقوة. «إذا كان هناك من يتعقبك، فلا أريده أن يُفسد حياتي.»

لم يُزعزع هذا ثقة جاك كثيرًا. ربما لم يكن أذكى طفل في العالم، لكنه كان ذكيًا بما يكفي ليعلم أنه لن يصمد طويلًا في السفر دون قصة ثانية تغطية أمام أصحاب العمل المحتملين.. والقصة الثانية هي (زوج الأم الشرير).

قال « أنا من بلدة صغيرة في فيرمونت، فيندرفيل انفصل والداي منذ عامين، حاول والدي الحصول على حضانتي، لكن القاضي سلمني لأمي.. كما يحدث في الغالب".

"يا إلهي!" قالها أبديك، عاد إلى أوراقه المالية، وانحنى على الآلة الحاسبة حتى كاد أنفه يلامس مفاتيحها، لكن جاك ظن أنه يستمع رغم ذلك...

"حسنًا، ذهب والدي إلى شيكاغو وحصل على وظيفة في مصنع هناك،" أكمل جاك، «يُراسلني أسبوعيًا تقريبًا، على ما أعتقد، لكنه توقف عن العودة منذ العام الماضي، عندما اعتدى عليه أوبري بالضرب، أوبري..."

"زوج أمك"، وللحظة ضاقت عينا جاك، وعاد إليه شعوره بعدم الثقة.. لم يكن في صوت أبدايك أي تعاطف، بل بدا كأنه

يضحك عليه، كما لو كان يعلم أن القصة كلها ليست سوى خدعة كبيرة.

"نعم"، أكمل.. "تزوجته أمي منذ عام ونصف، يضربني كثيرًا".

"محزن يا جاك.. محزن جدًا.." رفع أبدايك رأسه، وعيناه ساخرتان وغير مصدقتين... «إذن أنت ذاهب الآن إلى شايتاون، حيث ستعيش أنت ووالداك في سعادة دائمة."

" حسنًا، آمل ذلك"، وقد خطرت له فكرة مفاجئة.. «كل ما أعرفه هو أن والدي الحقيقي لم يعلقني قط في خزانتي»، سحب عنق قميصه، كاشفًا عن العلامة هناك. كادت الآن أن تتلاشى؛ خلال فترة عمله في الملعقة الذهبية، كان لونها لا يزال أحمر بنفسجيًا قبيحا كعلامة تجارية، لكن في الملعقة الذهبية لم تتح له الفرصة أبدًا لكشفها.. وهي، بالطبع، العلامة التي تركها الجذر الذي خنقه وكاد أن يُفقده حياته في العالم الآخر.

سُرّ برؤية عيني سموكي أبدايك تتسعان دهشةً، وهو ما كاد أن يكون صدمة.. انحنى إلى الأمام، مُبعثرًا بعض صفحاته الوردية والصفراء، قال "يا إلهي يا صغيري، هل فعل زوج أمك ذلك؟"

" عندها قررت أنني يجب أن ابتعد."

" هل سيأتي إلى هنا ليبحث عن سيارته أو دراجته النارية

أو محفظته أو مخبأ مخدراته اللعين؟» هز جاك رأسه نافيًا.

نظر سموكي إلى جاك للحظة، ثم ضغط على زر إيقاف الآلة الحاسبة، وقال «عد معي إلى المخزن يا فتى».

"لماذا؟"

"أريد أن أرى إن كنتَ قادرًا على رفع أحد تلك البراميل على جانبه، إن استطعتَ إخراج برميلٍ لي عندما أحتاجه، ستحصل على الوظيفة."

4

أثبت جاك لسموكي أبدايك أنه قادر على رفع أحد البراميل الكبيرة المصنوعة من الألومنيوم من حافته وتحريكه إلى الأمام بما يكفي لوضعه على قاعدة العربة، حتى أنه جعل الأمر يبدو سهلًا نسبيًا.. فإسقاط البرميل وتلقيه لكمة في الأنف لا يزال على بُعد يوم واحد.

"حسنًا، هذا ليس سيئًا للغاية"، قال أبدايك.. «أنت لست كبيرًا بما يكفي لهذه المهمة، وربما تُسبب لنفسك تمزقًا لعينًا، لكن لا بأس بذلك.»

أخبر جاك أنه يستطيع البدء عند الظهيرة والعمل حتى الواحدة صباحًا «طالما أنك قادر على التحمل، على أي حال»، قال أبدايك إن جاك سيتقاضى أجره عند إغلاق كل ليلة، نقدًا وبشكل فوري.

عادا إلى الواجهة، وهناك كانت لوري، ترتدي شورت كرة سلة أزرق داكن قصيرًا جدًا لدرجة أن حواف سراويلها الداخلية المصنوعة من الحرير الصناعي ظاهرة، وبلوزة بلا أكمام من شبه المؤكد أنها من ماموث مارت في باتافيا(13)، ثبتت شعرها الأشقر الخفيف للخلف بمشابك بلاستيكية، وأخذت تُدخّن سيجارة بال مال، بللت طرفها ولطخته بأحمر الشفاه، تدلّى صليب فضي كبير بين ثدييها.

قال سموكي "هذا جاك.. يُمكنك إزالة لافتة «مطلوب

موظفين" من النافذة."

قالت لوري «أهرب يا صغيري، مازال هناك وقت.»

"اصمتي."

"أجبرني."

صفعها أبدايك على مؤخرتها، ليس بعطف، بل بقوة كافية لإسقاطها على حافة البار. رمش جاك وفكّر في صوت سوط أوزموند.

قالت لوري «يالك من فحل"، امتلأت عيناها بالدموع... ورغم ذلك بدت راضية، كما لو أن هذه هي الطريقة التي من المُفترض أن تسير بها الأمور.

أصبح قلق جاك السابق الآن أكثر وضوحًا وحِدة... بل استحال إلى الرعب...

قالت لوري، وهي تمر بجانبه نحو اللافتة في النافذة «لا تشغل بالك بنا يا فتى وستكون بخير.»

قال سموكي "اسمه جاك، وليس فتى». كان قد عاد إلى الكابينة حيث أجرى المقابلة مع جاك وبدأ يجمع فواتيره.. "الطفل صغير جدًا.. ألم يعلموكِ ذلك في المدرسة؟ اصنعي له بعض البرغر.. عليه أن يبدأ العمل في الظهيرة."

أخرجت لافتة «مطلوب مساعدة» من النافذة ووضعتها خلف جهاز الموسيقى، وكأنها فعلت ذلك مرات عديدة من

قبل، مرت بجانب جاك، وغمزت له.

رن الهاتف.

نظر الثلاثة نحوه، وقد فزعوا من صراخه المفاجئ.. بدا لجاك للحظة كدودة سوداء عالقة في الحائط.

كانت لحظة غريبة، خالدة تقريبًا.. كان لديه الوقت ليلاحظ شحوب لوري، اللون الوحيد في وجنتيها إثر بثور حب الشباب الحمراء التي تلاشت في مرحلة المراهقة، الوقت لدراسة ملامح وجه سموكي أبدايك القاسية والغامضة نوعًا ما، وليرى كيف برزت الأوردة على يدي الرجل الطويلتين.. والوقت لرؤية اللافتة الصفراء على الهاتف والتي كُتب عليها «يرجى تحديد مدة مكالماتك بثلاث دقائق».

رن الهاتف ورنّ وسط الصمت.

فكّر جاك، وقد انتابه الرعب فجأة «إنها لي. مكالمة طويلة... طويلة، طويلة جدًا».

قال أبدايك «أجيبي على هذا يا لوري، هل أنت مغفلة؟» توجهت لوري إلى الهاتف.

قالت بصوت مرتجف خافت «أوتلي تاب».. استمعت.. «مرحبًا؟ مرحبًا؟... أوه، ابتعد عني».

أغلقت سماعة الهاتف بصوت عالٍ.

"لا أحد هناك.. يا لهم من أطفال.. أحيانًا يريدون معرفة إن

كنا قد حصلنا على الأمير ألبرت في علبة! ما رأيك في البرجر يا صغيري؟"

"جاك!" صرخ أبدايك.

"جاك، حسنًا، حسنًا يا جاك.. كيف تريد البرجر الخاص بك يا جاك؟»

أخبرها جاك، فجاءه متوسط النضج، مثاليًا، ساخنًا مع الخردل البني وبصل برمودا. التهمه وشرب كوبًا من الحليب، خفّ شعوره بالجوع.. يا لهم من أطفال، كما قالت.. ومع ذلك، كانت عيناه تعودان إلى الهاتف بين الحين والآخر، ويتساءل.

5

حلت الساعة الرابعة، وكأن الفراغ التام للحانة لم يكن سوى خدعة ذكية لجذبه كنبات الإبريق بمظهره البريء ورائحته الزكية...

فُتح الباب ودخل ما يقرب من اثني عشر رجلاً يتسكعون بملابس العمل، شغّلت لوري جهاز الموسيقى، وآلة البينبول(14)، ولعبة غزاة الفضاء.

هتف العديد من الرجال مُحيّين سموكي، الذي ابتسم ابتسامة عريضة، كاشفاً عن طقم الأسنان الكبير الذي طلبه عبر البريد. معظمهم طلب بيرة عدا اثنان أو ثلاثة طلبوا بلاك راشنز، أحدهم من محبي المرح منعدمي المسؤولية كما تأكد جاك خاصة حين وضع عملات معدنية في جهاز الموسيقى، مُستحضراً أصوات ميكي جيلي، وإيدي رابيت، ووايلون جينينغز، وآخرين.

طلب منه سموكي إخراج الدلو والممسحة من المخزن، ومسح حلبة الرقص أمام منصة الفرقة الموسيقية، التي كانت خالية في انتظار ليلة الجمعة وحفل فرقة جيني فالي بويز، وجعل جاك يعده أن يجففها تمامًا، قال سموكي «ستعلم ذلك حين ترى فيها انعكاس وجهك الباسم».

6

وهكذا بدأ عمله في حانة أوتلي تاب التابعة لأبدايك.

نصبح مشغولين جدًا بحلول الساعة الرابعة أو الخامسة.

حسنًا، لم يكن بإمكانه الجزم بأن سموكي كذب عليه، حتى اللحظة التي دفع فيها جاك طبقه بعيدًا وبدأ العمل من أجل قوت يومه، ظل المقهى مهجورًا، ولكن بحلول الساعة السادسة، كان هناك حوالي خمسين شخصًا في المقهى، ودخلت النادلة قوية البنية غلوريا إلى الخدمة وسط صراخ واستهجان بعض الزبائن، انضمت غلوريا إلى لوري، وقدمت بضعة أباريق من النبيذ، والكثير من بلاك راشن، وكميات هائلة من البيرة.

إلى جانب براميل بوش، كان جاك يحمل صندوقًا تلو الآخر من بيرة بودوايزر المعبأة، وأيضًا أنواعًا محلية مفضلة مثل جينيسي، ويوتيكا كلوب، ورولينج روك، حتى بدأت التقرحات في الظهور على يداه وآلمه ظهره...

بين رحلاته إلى المخزن لجلب صناديق البيرة المعبأة، ورحلاته إلى المخزن لـ «أخرج لي برميلًا يا جاك" (وهي عبارة بدأ يشعر بخوفٍ شديد منها)، عودته إلى حلبة الرقص، بالدلو والممسحة، وزجاجات بليدج الكبيرة، في إحدى المرات، طارت زجاجة بيرة فارغة من فوق رأسه، وكادت أن تصيبه.. انحنى، وقلبه ينبض بقوة، وهي تتحطم على الحائط، طرد

سموكي المخمور، كاشفًا عن طقم أسنانه بابتسامة عريضة كاذبة.. نظر جاك من النافذة، فرأى المخمور يضرب عداد مواقف السيارات بقوة كافية لرفع علامة المخالفة الحمراء!

" هيا يا جاك،" نادى سموكي بفارغ الصبر من البار، "لقد أخطأتك، أليس كذلك؟ هيا نظف هذه الفوضى!»

بعد نصف ساعة، أرسله سموكي إلى حمام الرجال، حيث رأى رجل في منتصف العمر، بقصة شعر جو باين، يقف مترنحًا عند أحد المبولتين المتجمدتين، يدٌ مثبتة على الحائط، والأخرى تلوح بقضيب ضخم غير مختون، بركة من القيء تتصاعد بين حذائه الرياضي المبطّن...

" نظّفها يا بنيّ"، قال الرجل وهو يشقّ طريقه عائدًا نحو الباب ويصفّق على ظهر جاك بقوة كادت أن تُسقطه أرضًا.. «على الرجل أن يصنع فرصته حتى لو اضطر لأفعال مكروهة، أليس كذلك؟»

انتظر جاك بصعوبة حتى أغلق الرجل الباب خلفه، ولم يعد بقادر على كبح برازه...

تمكن من دخول مقصورة التبرز الوحيدة بالحانة، ليجد في استقباله ما خلفه آخر زبون من آثار قذرة ذات رائحة كريهة ونفاذة.. تقيأ جاك ما تبقى من عشائه، ثم أخذ نفسين متقطعين، وتقيأ مرة أخرى.. تحسس المرحاض بيد مرتعشة ودفعه.

ترددت أغنيات وايلون وويلي الريفية عبر الجدران، وهما يغنيان عن لوكنباخ تكساس(15).

فجأة، ظهر وجه أمه أمامه، أجمل مما رآه في أي فيلم، عيناها واسعتان داكنتان وحزينتان.. رآها وحيدة في غرفتهما في قصر الحمراء، وجارها سيجارة مشتعلة منسية في منفضة السجائر، كانت تبكي.. تبكي من أجله.. بدا قلبه يؤلمه بشدة لدرجة أنه ظن أنه سيموت من حبها وحاجته إليها... حياتهما البسيطة التي لا توجد فيها أشياء في الأنفاق، ولا نساء يرغبن بطريقة ما في أن يُصفعن ويُجبرن على البكاء، ولا رجال يتقيأن بين أقدامهن أثناء التبول، أراد أن يكون معها وكره سبيدي باركر كرهًا أسودًا كاملًا لأنه وضع قدميه على هذا الطريق الرهيب غربًا.

في تلك اللحظة، دُمّر كل ما بقى في نفسه من ثقة، دُمّرت تلك الثقة تمامًا وإلى الأبد، وسيطرت صرخة طفولية، عميقة، وبدائية «أريد أمي يا رب، أريد أمي".

خرج مرتجفًا من المرحاض بخطى دامعة، يفكر "حسنًا، إلى هنا ينتهي الأمر، فليخرج الجميع من المسبح، فلتذهب إلى الجحيم يا سبيدي، هذا الطفل سيعود إلى المنزل.. أو أيًا كان ما تسميه."

في تلك اللحظة لم يهتم إذا كانت والدته قد تموت. في تلك اللحظة من آلام جاك المكبوتة، تحول جاك لشخص

أناني يعدوا بلا وعي تاركًا نفسه عُرضة لأي مفترس.. كغزال أو أرنب أو سنجاب أو صيدناني(16)، في تلك اللحظة كاد أن يصبح على استعداد تام لتركها تموت إثر السرطان الذي ينتشر بعنف عبر رئتيها إذا فقط احتضنته وقبلته قبل النوم وأخبرته ألا يشغل جهاز الترانزستور اللعين في السرير أو يقرأ بمصباح يدوي تحت الأغطية لمنتصف الليل.

استند بيده على الحائط، وشيئًا فشيئًا تمكن من السيطرة على نفسه.. لم يكن هذا التمسك أمرًا واعيًا، بل مجرد شدٌ للعقل، وهو أمرٌ يُشبه إلى حد كبير شخصيتي فيل سوير وليلي كافانو.. لقد أخطأ، أجل، لكنه لن يتراجع...

كانت الأراضي حقيقية، ولذا قد تكون التعويذة حقيقية أيضًا؛ لم يكن ليترك جبنه يتسبب في قتل والدته.

ملأ جاك دلو الممسحة بالماء الساخن من الصنبور الموجود في المخزن ونظف الفوضى.

عندما خرج مرة أخرى، وجد الساعة قد صارت العاشرة والنصف وبدأ الجمهور في الحانة يتضاءل... فأوتلي مدينة عاملة، وعمالها الذين يشربون الخمر يعودون إلى منازلهم في وقت مبكر في ليالي الأسبوع.

قالت لوري، «تبدو شاحبًا كالعجينة يا جاك. هل أنت بخير؟»

سألها "هل يمكنني أن أتناول مشروب الزنجبيل؟»

أحضرت له واحدًا وشربه جاك بينما كان يُنهي تنظيف

حلبة الرقص، في الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا، أمره سموكي بالعودة إلى المخزن «ليُخرج برميلًا»، وبصعوبة بالغة تمكّن جاك من إخراج البرميل، في الساعة الواحدة إلا ربعًا، بدأ سموكي بالصراخ ليُنهي الناس شرابهم، فصلت لوري جهاز الجوك، ثم أطلق ديك كور أنينًا طويلًا متقطعًا، ثم هدأ وسط صيحات الاحتجاج الفاترة.

فصلت غلوريا الألعاب، وارتدت سترتها (كانت وردية كحلوى كندا مينتس التي كان سموكي يأكلها بانتظام، وكاللثة الاصطناعية لأسنانه)، وغادرت.

بدأ سموكي بإطفاء الأنوار وحثّ آخر أربعة أو خمسة من شاربي الخمر على الخروج من الباب.

"حسنًا يا جاك"، قال بعد أن انصرفا.. "لقد أحسنتَ صنعًا، هناك مجال للتحسين، لكن بداية موفقة على كل حال، يمكنكَ النوم في المخزن".

بدلاً من أن يطلب راتبه (الذي لم يعرضه سموكي على أية حال)، تعثر جاك في طريقه إلى المخزن، كان متعبًا للغاية لدرجة أنه بدا وكأنه نسخة مصغرة من السكارى الذين تم إخراجهم للتو.

في المخزن، رأى لوري تجلس القرفصاء في إحدى الزوايا حيث تسببت طريقة جلوسها في رفع شورت كرة السلة الخاص بها إلى مستوى كاد أن يُثير القلق، وللحظة، قلق جاك

من إنها ربما ثُفتّش حقيبته، ثم رأى أنها فرشت بطانيتين فوق طبقة من أشولة التفاح الخيشية، ووضعت وسادة ساتان صغيرة كُتب على أحد جانبيها «معرض نيويورك العالمي».

حين رأته قالت " لقد فكرت في أن أصنع لك عشًا صغيرًا، يا صغيري".

رد «شكرًا» كانت لفتة طيبة بسيطة، شبه عفوية، لكن جاك وجد نفسه يكافح من أجل تجنب البكاء.. حتى تمكن أخيرًا من الابتسام "شكرًا جزيلاً، لوري».

"لا مشكلة.. ستكون بخير هنا يا جاك، سموكي ليس سيئًا جدًا، بمجرد أن تتعرف عليه، لن يكون سيئًا على الإطلاق." قالت هذا بحنين لا شعوري، كما لو كانت تتمنى ذلك...

"على الأرجح لا"، ثم أضاف باندفاع "لكنني سأنتقل غدًا.. أوتلي ليس مناسبًا لي، على ما أظن"

قالت "ربما ستذهب يا جاك... وربما تقرر البقاء قليلًا. لمَ لا تنام؟" كان هناك شيءٌ مُصطنع وغير طبيعي في هذا الكلام القصير، لم يكن يحمل أيًا من صدق ابتسامتها عندما قالت "فكرت في أن أصنع لك عشًا صغيرًا".

لاحظ جاك ذلك، لكنه كان متعبًا جدًا لفعل ما يتعدى ملاحظته.

رد " حسنًا، سنرى"

"بالتأكيد،" صدقّت لوري على كلماته وهي تخطو نحو الباب،

نفخت عليه قبلة من راحة يدها المتسخة.. "تصبح على خير يا جاك"

"طاب مساؤك"

بدأ في خلع قميصه... ثم تركه عليه، مُقررًا خلع حذائه الرياضي فقط.

كان المخزن قارس البرودة.. جلس على أكياس التفاح، فكّ العقد، الأولى ثم الأخرى، وقد أوشك على الاستلقاء على هدية لوري التذكارية من معرض نيويورك العالمي، حتى كاد أن يغط في نوم عميق حتى قبل أن تلمس رأسه الوسادة، عندما بدأ الهاتف يرن في البار، ممزقًا الصمت، مُغرقًا إياه في التفكير في جذور شعر رمادية باهتة، وسياط ثيران، ومهور برأسين.

رن، رن، رن، في الصمت، في الصمت المميت.

رن، رن، رن، بعد أن خلد الأطفال الذين اتصلوا ليسألوا عن الأمير ألبرت في علبة إلى النوم. رن، رن، رن، مرحباً يا جاكي، أنا مورغان، وشعرتُ بك في غابتي، أيها الوغد الصغير الذكي، شممتُك في غابتي، كيف خطر ببالك أنك بأمان في عالمك؟ غابتي هناك أيضاً.. إنها فرصتك الأخيرة يا جاكي عد إلى المنزل وإلا سنرسل القوات.. لن تُتاح لك فرصة. لن ...

نهض جاك وركض عبر أرضية المخزن مرتديًا جواربه وقد كسى جسده عرق خفيف، وبارد كالثلج!

فتح الباب قليلا.

رن، رن، رن، رن.

وأخيرًا «مرحبًا، أوتلي تاب، خيرًا؟" صوت سموكي.. ثم صمت.. «مرحبًا؟»

صمت آخر.. "ابتعد عني!" أغلق سموكي الهاتف بصوت عالٍ، وسمعه جاك يعبر الطابق ثم يصعد الدرج إلى الشقة الصغيرة العلوية التي يتشاركها مع لوري.

7

في حيرة ودهشة نظر جاك بين الورقة الخضراء في يده اليسرى وكومة الأوراق النقدية الصغيرة كلها فئة الواحد دولار وما بقى بيده اليمنى.

كانت الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي.. صباح الخميس، وقد طلب راتبه.

سأل، وهو لا يزال غير مصدق «ما هذا؟». قال سموكي "أنت تستطيع القراءة والعد، وإن كنت لا تتحرك بالسرعة التي أريدها يا جاك.. على الأقل ليس بعد.. فأنت ذكي بما يكفي.» جلس الآن والورقة الخضراء في يده والمال في اليد الأخرى، غضب كئيب بدأ ينبض كالوريد في منتصف جبهته «شيك الضيف»، كُتب على رأس الورقة الخضراء.

نفس التصميم الذي استخدمته السيدة بانبيري في الملعقة الذهبية، كُتب عليها:

1 مشروب غازي ١.٣٥ دولار

1 مشروب غازي ١.٣٥ دولار

1 كبير مارك ٢.٥٥ دولار

1 جين-إيل ٢.٥٥ دولار

ضريبة ٣٠ دولار

في الأسفل، كُتب الرقم ٤.١٠ دولار بأعداد كبيرة ومُحاط

بدائرة.

ربح جاك تسعة دولارات من حصته بنسبة أربعة إلى واحد، سدد سموكي نصف المبلغ تقريبًا؛ فما تبقى بيده اليمنى كان أربعة دولارات وتسعين سنتًا.

رفع نظره غاضبًا أولًا إلى لوري، التي أشاحت بنظرها بعيدًا كما لو كانت تشعر بإحراج طفيف، ثم إلى سموكي، الذي بادله النظر ببساطة.

قال بنبرة رقيقة «هذا غش».

"جاك، هذا ليس صحيحًا، انظر إلى أسعار القائمة»

"ليس هذا ما أقصده، وأنت تعلم ذلك!"

ارتجفت لوري قليلًا، كما لو كانت تتوقع من سموكي أن يضربه ضربة... لكن سموكي نظر إلى جاك بصبرٍ شديد.

"لم أطلب منك ثمن سريرك، أليس كذلك؟"

"سريرا" صرخ جاك، وشعر بدمه يغلي في خديه.. "سريرا أشولة خيش مفتوحة على أرضية خرسانية! سريرا أود أن أراك تحاول أن تطلب مني ثمنه، أيها المحتال القذرا»

أصدرت لوري صوتًا خائفًا ونظرت إلى سموكي... لكن سموكي جلس فقط مقابل جاك في الكشك، ودخان سيجارة شيروت زرقاء كثيفة تتصاعد بينهما.. كانت قبعة الطبخ الورقية الجديدة مائلة للأمام على رأس سموكي الصغير.

"تحدثنا عن غطائك في الفراش هناك،" قال سموكي.. "سألتَ إن كان ذلك مُضمنًا في العمل، قلتُ إنه مُضمن، لم يُذكر شيء عن وجباتك، لو طُرح الأمر، لربما كان من الممكن فعل شيء ما، ربما لا.. النقطة المهمة هي أنك لم تُثر الأمر أبدًا، لذا عليك الآن التعامل معه."

جلس جاك يرتجف، ودموع الغضب تملأ عينيه، حاول التحدث، لكن لم يخرج منه سوى تأوه مكتوم.. كان غاضبًا جدًا لدرجة أنه لم يستطع الكلام.

"بالتأكيد، إذا أردت مناقشة خصم الموظفين على وجباتك الآن"

"اذهب إلى الجحيم!" تمكن جاك من الكلام أخيرًا، وانتزع الأوراق النقدية الأربع والقليل من الفكة، "يمكنك مناقشة وتعليم الطفل الذي يأتي بعدي للعمل هنا! سأذهب!"

اتجه نحو الباب، ورغم غضبه، كان يعلم.. لم يعتقد فقط، بل كان يعلم يقينًا أنه لن يصل إلى الرصيف.

"جاك."

لمس مقبض الباب، وفكر في الإمساك به وتدويره، لكن ذلك الصوت كان لا يُنكر، ومليئًا بتهديد ما أسقط يده واستدار، واختفى غضبه بل شعر فجأة بالضآلة والشيخوخة.. ذهبت لوري لخلف البار، حيث راحت تكنس وتدندن. يبدو أنها ظنت أن سموكي لن يضغط على جاك بقبضتيه، وبما أن لا شيء

آخر يهم حقًا، فكل شيء على ما يرام.

"لا تريد أن تتركني في ورطة مع رفاق عطلة نهاية الأسبوع القادمين."

"أريد الخروج من هنا. لقد خدعتني."

"لا سيدي،" قال سموكي، "لقد أوضحت ذلك.. إذا كان هناك من شوّه دفتر ملاحظاتك يا جاك، فأنت من فعلت، الآن يمكننا مناقشة وجباتك خصم 50% على الطعام، ربما، وحتى مشروبات غازية مجانية.. لم أتجاوز هذا الحد من قبل مع المساعدين الأصغر سنًا الذين أستأجرهم من حين لآخر، لكن عطلة نهاية الأسبوع هذه ستكون صعبة للغاية، مع كل العمال المهاجرين في المقاطعة لقطف التفاح، وأنا معجب بك يا جاك، لهذا السبب لم أضربك عندما رفعت صوتك عليّ، مع أنه ربما كان عليّ ذلك.. لكنني أحتاجك خلال عطلة نهاية الأسبوع.»

شعر جاك بعودة غضبه لفترة وجيزة، ثم خمد مجددًا. "ماذا لو ذهبتُ على أي حال؟" سأل.. "أنا أمتلك خمسة دولارات، وخروجي من هذه البلدة الصغيرة القذرة قد يكون بمثابة مكافأة."

نظر سموكي إلى جاك، ولا يزال يبتسم بابتسامته الضيقة، وقال "أتتذكر دخولك إلى حمام الرجال الليلة الماضية للتنظيف خلف الرجل الذي فقد السيطرة على معدته؟»

أومأ جاك بالإيجاب.

"أتتذكر شكله؟"

"قصّة شعره القصيرة. بنطاله الكاكي. وماذا في ذلك؟"

"هذا الحفار أتويل. اسمه الحقيقي كارلتون، لكنه أمضى عشر سنوات في رعاية مقابر البلدة، لذلك أصبح الجميع ينادونه الحفار.. كان ذلك.. أوه، قبل عشرين أو ثلاثين عامًا، حين هاجم شرطة البلدة في الوقت الذي انتُخب فيه نيكسون رئيسًا، الآن هو رئيس الشرطة.»

أخذ سموكي سيجارته، ونفخ فيها، ونظر إلى جاك.

قال سموكي.. "لنعد لي ولالحفار.. ولو خرجت من هنا الآن يا جاك، لا أضمن لك أنك لن تواجه أي مشكلة مع الحفار، قد ينتهي بك الأمر بالعودة إلى المنزل، قد ينتهي بك الأمر بقطف التفاح من أراضي البلدة فبلدة أوتلي بها... أوه، أعتقد أربعون فدانًا من الأشجار الجيدة، قد ينتهي بك الأمر بالتعرض للضرب، أو... سمعت أن الحفار العجوز يشتهي الأطفال الذكور المشردين على الطريق...»

فكّر جاك في ذلك العضو الذكري الشبيه بسلاح النادي، شعر بالغثيان والبرد في آنٍ واحد.

قال سموكي "أنت هنا تحت جناحي، إن صح التعبير فبمجرد أن تصل إلى الشارع، من يستطيع الجزم؟ من الطبيعي أن يتجول الحفار في أي مكان.. قد تعبر حدود

المدينة دون عناء، من ناحية أخرى، قد تراه يتوقف بجانبك في سيارة بليموث الكبيرة التي يقودها، الحفار ليس ذكيًا تمامًا، لكن حاسته ستمكنه من العثور على ما يشتهيه، أحيانًا، أو... قد يتصل به أحدهم.»

خلف البار، كانت لوري قد غسلت الأطباق، جففت يديها، ثم شغّلت الراديو، وبدأت تغني مع أغنية قديمة لفرقة ستيبنوولف.

قال سموكي «أخبرك شيئًا.. تماسك يا جاك، اعمل في عطلة نهاية الأسبوع، ثم سأضعك في شاحنتي وأوصلك بنفسي عبر حدود المدينة.. ما رأيك في ذلك؟ ستخرج من هنا ظهر الأحد ومعك ما يقارب الثلاثين دولارًا في جيبك وهو ما لم تكن تمتلكه عند قدومك.. ستخرج وأنت تعتقد أن أوتلي ليست مكانًا سيئًا على الإطلاق، فماذا تقول؟"

نظر جاك في تلك العيون البنية، ولاحظ بياضها المصفر والبقع الحمراء الصغيرة؛ ولاحظ ابتسامة سموكي العريضة الصادقة المبطنة بأسنانه الصناعية؛ حتى أنه رأى بشعور غريب ومرعب من ديجا فو أن الذبابة عادت إلى قبعة طباخ البطاطس الورقية، وأخذت تنظف وتغسل أرجلها الأمامية الرقيقة كالشعر.

كان يشك في أن سموكي أبديك يعلم بإدراكه حول كذب كل ما نطق به، ولم يكترث حتى.. بعد العمل في الساعات الأولى من صباح السبت ثم صباح الأحد، كان جاك ينام حتى

الثانية ظهر الأحد تقريبًا، كان سموكي يخبره أنه لا يستطيع توصيله لأن جاك استيقظ متأخرًا جدًا؛

الآن ها هو، سموكي، مشغول جدًا بمشاهدة فريقي كولتس وباتريوتس، ولن يخشى جاك من أن يتعب من المشي فحسب، بل خشى أيضًا أن يفقد سموكي اهتمامه بالكولتس والباتريوتس لفترة كافية للاتصال بصديقه العزيز الحفار أتويل ليخبره «إنه يسير في طريق ميل الآن، يا صديقي القديم، لماذا لا تقله؟ ويمكنك القدوم في النصف الثاني من اليوم للحصول على بيرة مجانية، لكن لا تتقيأ داخل مبولتي حتى أستعيده»

كان هذا أحد السيناريوهات، ضمن سيناريوهات أخرى يمكنه التفكير فيها، كل منها مختلف قليلًا، وكلها متشابهة تمامًا في أعماقها.

اتسعت ابتسامة سموكي أبدايك قليلًا.

الفصل العاشر

الملك

1

عندما كنت في السادسة...

مازالت الحانة التي بدأ الهدوء في التسلسل إليها بعد الليلتين السابقتين، تعجّ بالزبائن كما لو كانوا في انتظار الفجر الجديد...

اختفت طاولتين إثر عراك بالأيدي اندلع قبل رحلته الأخيرة إلى الحمام، الآن، يرقص الناس مكانهما.

قال سموكي بينما كان جاك يترنح على طول الشريط من الداخل ويضع العلبة داخل الثلاجة «حان الوقت.. خذها واذهب بها إلى ذاك الشخص اللعين، كان عليك إحضارها له أولا على أية حال»

"لم تقل لوري شيئًا..."

اكتسح الألم قدم جاك عندما دهسها سموكي بحذائه الثقيل، وأطلق صرخة مكتومة وشعر بالدموع الحارقة تتدفق من عينيه.

قال سموكي "اخرس. لوري جاهلة وعديمة التمييز، وأنتَ ذكيٌ بما يكفي لتدرك ذلك.. اذهب هناك وخلصني من تلك المسألة أيها الولد."

عاد إلى المخزن، وهو يعرج على القدم التي دهسها سموكي، متسائلاً عما إذا كُسرت عظام أصابع قدميه وقد بدا الأمر وارداً للغاية.. ضجّ رأسه بالدخان والضجيج، وإيقاع فرقة "جيني فالي بويز" الخشن، أثناء تمايل إثنام منهم بشكل ملحوظ على المنصة، برزت فكرة واحدة بوضوح.. ربما لا يجب أن ينتظر حتى الإغلاق.. حقًا لن يصمد طويلا، لو كانت أوتلي سجناً، و»أوتلي تاب» زنزانته، لكان الإرهاق حارسه بقدر سموكي أبدايك، بل وربما أكثر.

وعلى الرغم من مخاوفه بشأن ما قد تكون عليه الأراضي في هذا المكان، إلا أن العصير السحري بدا وكأنه سبيله الوحيد والمؤكد لمغادرة هذا المكان.

يمكنه أن يشرب بعضًا منه وينتقل... وإذا استطاع السير ميلًا واحدًا غربًا هناك، أو ميلين بحد أقصى، يمكنه أن يشرب المزيد ويعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية متجاوزًا حدود هذه المدينة الصغيرة المريعة، ربما يجد نفسه في أقصى الغرب مثل بوشفيل أو حتى بيمبروك.

عندما كنت في السادسة، عندما كان جاكي في السادسة، عندما... عاد ولدًا صغيرًا يخطو متعثرًا عبر الباب مرة بعد مرة... وكان راعي البقر الطويل النحيل ذو اليدين الكبيرتين، الذي يشبه راندولف سكوت، يقف هناك ناظرًا إليه.

قائلا «مرحبًا يا جاك، لينظر جاك برعبٍ شديد إلى قزحية

عيني الرجل الصفراوين كصفار مخالب الدجاج.. "هل طلب أحدهم منك أن تخرج؟ أنت لا تُنصت جيدًا، أليس كذلك؟"

وقف جاك متمعنًا في مسألة هذا الشخص وقد عقد ذراعيه، محدقًا في تلك العيون الصفراء، وفجأة خطرت في ذهنه فكرة مروعة.. إنه هو ما كان مختبئًا داخل النفق.. هذا الرجل صاحب العيون الصفراء الميتة.

"اتركني وحدي"، قالها وقد خرجت الكلمات في همسات قليلة مرتعشة.

اقترب منه أكثر.. «كان من المفترض أن ترحل.»

حاول جاك التراجع... لكنه الآن محاصر، وبينما كان راعي البقر الذي يشبه راندولف سكوت ينحني نحوه، استطاع جاك أن يشمّ رائحة الموت في أنفاسه.

2

بين بدء جاك عمله ظهر يوم الخميس وحتى الرابعة عصرًا، عندما بدأ رواد الحانة في التوافد، كعادتهم ، رن الهاتف مرتين بمكالمة مدفوعة وكُتب عليه «الرجاء تحديد مدة مكالماتكم بثلاث دقائق».

في المرة الأولى، لم يشعر جاك بأي خوف، واتضح أنه مجرد محامٍ يعمل لصالح الصندوق المتحد.

بعد ساعتين، وبينما كان جاك يُعبئ آخر زجاجات الليلة السابقة، بدأ الهاتف يُصدر صوتًا حادًا. هذه المرة، انتفض رأسه كحيوان حاصرته النار في غابة جافة... إلا أنه لم يكن يختنق بدخان النار، بل بالجليد...

استدار نحو الهاتف، الذي كان على بُعد أربعة أقدام فقط من مكان عمله، فسمع صرير أوتار رقبته، ظن أنه لا بد أن يرى الهاتف العمومي مُغطىً بالجليد، جليدٌ يتصبب عرقًا من خلال غلافه البلاستيكي الأسود، يبرز من ثقوب سماعة الأذن وقطعة الفم خطوط من الجليد الأزرق رقيقة كسنون أقلام الرصاص، تدلت من القرص الدوار والعملة المعدنية العائدة وكأنها لحى جليدية.

لكنه وجد الهاتف فقط، أما كل تلك البرودة والموت فقد سكنا بداخله...

حدق فيه، منومًا مغناطيسيًا.

"جاك!" صرخ سموكي.. "أجب على الهاتف اللعين! على ماذا أدفع لك بحق الجحيم؟"

نظر جاك إلى سموكي، يائسًا كحيوان محاصر... لكن سموكي كان يحدق به بتعبير شفتيه الرقيقتين ونفاد صبره الذي ارتسم على وجهه قبل أن تقرع لوري.. انطلق نحو الهاتف، بالكاد يُدرك أن قدميه تتحركان؛ خطا أعمق فأعمق في تلك الكبسولة من البرودة، يشعر بقشعريرة تسري في ذراعيه، ويشعر بالرطوبة تشق أنفه مدّ يده وأمسك بالهاتف، فخدرت يده.

وضع سماعة الهاتف على أذنه فخدرت أذنه.. ردد عبر ظلمته القاتلة بفم خدر.. «أوتلي تاب».

كان الصوت الصادر من الهاتف نقيقًا متشققًا أجشًا لشيء ميت منذ زمن، مخلوق لا يمكن للأحياء رؤيته.. فرؤيته كفيلة بإصابة الحي بالجنون، أو قتله بنقش الصقيع على شفتيه وعينين الجاحظتين العميان إثر إعتام عدسة العين الجليدية، همس هذا الصوت الأجشّ المخشخش من سماعة الأذن.. «جاك»، فانسابت خيوط الخدر لكامل وجهه، كما يحدث عندما تحتاج لقضاء يوم شاق على كرسي طبيب الأسنان، فيحقنك الطبيب بجرعة نوفوكايين زائد.. «عد إلى منزلك يا جاك».

بدا أنه يسمع صوته من بعيد، على بُعد سنوات ضوئية..

"أوتلي تاب، هل من أحد هنا؟ مرحبًا؟ ... مرحبًا؟" ... "بارد، باردٌ جدًا."

كان حلقه مخدرًا.. التقط أنفاسه، وبدا أن رئتيه تتجمدان، سرعان ما ستتجمد حجرات قلبه، وسيسقط ميتًا.

همس ذلك الصوت البارد.. «قد تحدث أشياء سيئة لصبي وحيد على الطريق يا جاك. اسأل أي شخص.»

أغلق الهاتف، بحركة سريعة وخرقاء.. سحب يده ثم وقف ينظر إلى الهاتف.

سألت لوري «هل كان ذلك الأحمق يا جاك؟» كان صوتها بعيدًا... لكنه أقرب قليلًا مما بدا عليه صوته قبل لحظات.. العالم يعود، على سماعة الهاتف العمومي استطاع أن يرى أثر يده، محاط بطبقة من الصقيع اللامع، وبينما كان ينظر، بدأ الصقيع يذوب ويسيل على البلاستيك الأسود.

3

في تلك الليلة، الخميس، رأى جاك لأول مرة جيني كاونتي تجيب راندولف سكوت.

كان الحشد أقلّ قليلاً مما كان عليه ليلة الأربعاء، كما هي العادة قبل يوم صرف الرواتب، لكن هناك عدد كافٍ من الرجال حاضرين لملء البار والتفاف حول الطاولات والكباين.

كانوا رجالاً من بلدة في منطقة ريفية حيث تركوا محاريثهم صدأة منسية في حظائرهم الخلفية، رجال ربما أرادوا أن يكونوا مزارعين ولكنهم نسوا كيف يفعلون ذلك.. بدليل قبعات جون ديري العديدة، ولكن بالنسبة لجاك، بدا القليل منهم كمن يمكثون لتركيب جرارات منزلية الصنع، بسراويلهم القطنية الرمادية والبنية والخضراء؛ وبأسمائهم المطرزة بخيوط ذهبية على قمصانهم الزرقاء؛

ورجال يرتدون أبوات دينجو(17) ذات المقدمة المربعة ورجال يرتدون ملابس واقية ضخمة. علق هؤلاء الرجال مفاتيحهم على أحزمتهم، كانت وجوههم مجعدة خلت من خطوط ضحك؛ وأفواههم كئيبة، يخفون رؤوسهم تحت قبعات رعاة البقر، وعندما نظر جاك إلى البار من خلف المقاعد، رأى ما يقرب إلى ثمانية أشباه لتشارلي دانييلز في إعلانات التبغ الممضوغ، لكن هؤلاء الرجال لم يمضغون التبغ؛ بل إنهم يدخنون الكثير من السجائر...

كان جاك ينظف واجهة صندوق الموسيقى عندما دخل ديجر أتويل.

كان صندوق الموسيقى مغلقًا؛ ومباراة فريق يانكيز تُبث عبر الكابل، ورجال البار يتابعونها باهتمام.

في الليلة السابقة، كان أتويل يرتدي ملابس أوتلي الرياضية الرجالية (بنطال قطني، وقميص كاكي مع أقلام كثيرة في أحد جيبيه الكبيرين، وحذاء عمل ذي مقدمة فولاذية).

أما الليلة، فكان يرتدي زي شرطة أزرق، يعلق مسدس كبير بمقابض خشبية في جراب حزامه الجلدي الذي يصدر صريرًا.

نظر إلى جاك، الذي تذكر سموكي وهو يقول «سمعتُ أن الحفار العجوز يُحبّ أطفال الشوارع.. أولادً في الغالب»، ثم تراجع كما لو كان مُذنبًا. ابتسم الحفار أتويل ابتسامةً عريضةً بطيئة.. «هل قررتَ البقاء هنا قليلا يا فتى؟»

تمتم جاك قائلًا «أجل، سيدي»، ورشّ المزيد من المنظف على واجهة صندوق الموسيقى مع أنها كانت نظيفةً تمامًا.. في انتظار أن يرحل أتويل، بعد برهة، رحل أتويل.

استدار جاك ليشاهد الشرطي الضخم وهو يعبر إلى البار... وعندها استدار الرجل الموجود في أقصى يسار البار ونظر إليه.

فكّر جاك على الفور: راندولف سكوت، إنه يشبه تماما..

ولكن على الرغم من تجاعيد وجهه العريضة والصارمة، كان

راندولف سكوت الحقيقي يتمتع بنظرة بطولة لا تُنكر؛ وإن كانت ملامحه الجميلة قاسية، إلا أنها كانت جزءًا من وجهٍ باسم حيث بدا هذا الرجل ملولًا ومجنونًا في آنٍ واحد.

وبفزعٍ شديد، أدرك جاك أن الرجل ينظر إليه، إلى جاك... ولم يكن يكتفي بالاستدارة أثناء الإعلان التجاري ليرى من قد يكون في البار؛ بل استدار لينظر إلى جاك الذي أدرك ذلك.

رن الهاتف.

بجهدٍ هائل، أزاح جاك بصره، نظر إلى الوراء إلى مقدمة جهاز الموسيقى فرأى وجهه المرعوب يحوم، كالشبح، فوق الأسطوانات الموجودة بداخله.

بدأ الهاتف يصرخ على الحائط.

نظر إليه الرجل في الطرف الأيسر من الحانة... ثم نظر إلى جاك، الذي كان يقف متجمدًا بجانب جهاز الموسيقى، يحمل زجاجة ويندكس في يده وقطعة قماش في الأخرى، شعره متيبس، وجلده متجمد.

"إذا كان ذلك الوغد مرة أخرى، فسأحضر صافرة لأبدأ بالنفخ في سماعة الهاتف عندما يتصل، يا سموكي»، قالت لوري وهي تسير نحوه.. «أقسم بالله سأفعل ذلك."

ربما كانت ممثلة في مسرحية، وجميع الكومبارس يدفعون أجر نقابة ممثلي الشاشة القياسي وهو خمسة وثلاثون دولارًا في اليوم، الشخصان الحقيقيان الوحيدان في العالم هما هو

وهذا راعي البقر المروع ذو اليدين الكبيرتين والعينين اللتين لم يستطع جاك... أن يراهما تمامًا.

فجأة، وبشكل صادم، تمتم راعي البقر بهذه الكلمات "عد إلى المنزل"، وغمز.

توقف الهاتف عن الرنين حين مدت لوري يدها إليه.

استدار راندولف سكوت، وقد فرغ كأسه، صائحًا "أحضر لي جرعة آخرى، حسنًا؟»

قالت لوري «يا إلهي، هذا الهاتف مليء بالأشباح».

4

لاحقًا، في المخزن، سأل جاك لوري "من هو الرجل الذي يُشبه راندولف سكوت".

سألته "من يُشبه من؟".

"ممثل رعاة بقر عجوز جلس في نهاية البار.»

هزت كتفيها.. «جميعهم يبدون لي متشابهين يا جاك مجرد مجموعة من الأوغاد يتبادلون أطراف الحديث لقضاء وقت ممتع، في ليالي الخميس، عادةً ما يدفعون مقابل الاستمتاع رفقة امرأة."

"إنه ينقر لطلب البيرة".

لمعت عيناها.. «أوه، أجل! ذاك الرجل.. يبدو لئيمًا.» قالت هذه الجملة الأخيرة بتقدير حقيقي... كما لو كانت تُعجب باستقامة أنفه أو بياض ابتسامته.

"من هو؟"

"لا أعرف اسمه،" ردت لوري.. "لقد ظهر هنا منذ أسبوع أو أسبوعين فقط، أعتقد أن المصنع بدأ في توظيف موظفين جُدد.. إنه.."

"يا إلهي يا جاك، هل طلبتُ منك أن تُخرج لي برميلًا أم لا؟"

كان جاك يُحاول جرّ أحد براميل بوش الكبيرة إلى قاعدة العربة اليدوية، ولأن وزنه كان مُتقاربًا جدًا من وزن البرميل،

فقد تطلب الأمر موازنة دقيقة، عندما صرخ سموكي من المدخل، صرخت لوري وقفز جاك ففقد السيطرة على البرميل وانقلب على جانبه، واندفع الغطاء كالفلينة، وتبعته البيرة كنهر دافق بلوني الأبيض والذهبي، وسموكي لم يزال يصرخ عليه، لكن جاك لم يستطع سوى التحديق في البيرة، مُتجمدًا... حتى لكمه سموكي.

عندما عاد إلى حانة البيرة بعد حوالي عشرين دقيقة، مُمسكًا بمنديل ورقي على أنفه المُتورم، كان راندولف سكوت قد اختفى.

5

أنا في السادسة.

جون بنجامين سوير في السادسة.

السادسة...

هز جاك رأسه، محاولًا طرد هذه الفكرة الثابتة والمتكررة بينما كان عامل الطاحونة النحيل، الذي لم يكن عامل طاحونة، يميل تجاهه أقرب فأقرب، بعيناه... الصفراوين والمتقشرتان نوعًا ما.. لقد رمش... هو... رمشًا سريعًا، حليبيًا، سابحًا، وأدرك جاك أن لديه جفن إضافي شفاف يتحرك فوق مقلتي عينيه.

"كان من المفترض أن ترحل"، همس مجددًا، ومد يده نحو جاك بأيدٍ بدأت تلتوى وتتصلب.

انفتح الباب بقوة، سامحًا بدخول سيل صاخب من أولاد أوك ريدج.

قال سموكي من خلف راندولف سكوت "جاك، إذا لم تتوقف عن التسكع، فسأجعلك تندم".

تراجع سكوت إلى الخلف.. لا حوافر ذائبة ومتصلبة هنا؛ عادت يداه إلى طبيعتهما كبيرتين وقويتين، تتقاطع على ظهرهما عروق بارزة كالثنايا، رمشت عيناه بلون حليبي ودائريّ، لم تلامس الجفون إطلاقًا... ثم لم تعد عينا الرجل

صفراء، بل زرقاء باهتة، ألقى نظرة أخيرة على جاك، ثم توجه نحو حمام الرجال.

اقترب سموكي من جاك، بقبعته الورقية مائلة إلى الأمام، ورأسه النحيل كرأس ابن عرس مائل قليلاً، وشفتاه مفتوحتان لتكشفا عن أسنانه الشبيهة بأسنان التمساح.

قال سموكي «لا تُجبرني على التحدث إليك مرة أخرى.. هذا آخر تحذير لك، ولا تظن أنني لا أقصد ذلك».

وكما حدث مع أوزموند، ثار غضب جاك فجأة.. ذلك النوع من الغضب، المرتبط ارتباطًا وثيقًا بشعور الظلم اليائس، ربما لا يبدوا قويًا أبدًا فمازال في الثانية عشرة ولا يضاهي شعور طلبة الجامعة، وعادةً ما يكون مجرد صدى فكري.

لكن هذه المرة تفجر الغضب.

قال جاك «أنا لست كلبًا، فلا تعاملني كما لو كنتَ كذلك»، واتخذ خطوة نحو سموكي أبدايك بساقين لا تزالان مطاطيتين من الخوف.

فوجئ سموكي.. وربما ذُهل بغضب جاك الذي لم يتوقعه نهائيًا، فتراجع خطوة.

"جاك، أنا أحذرك..."

"لا يا رجل، أنا أحذرك،" سمع جاك نفسه يقول.. «أنا لست لوري... لا أريد أن أضرب، وإن ضربتني، فسأضربك ردًا على ذلك، أو ما شابه."

كان انزعاج سموكي أبدايك خاطف.. من المؤكد أنه لم ير كل شيء، لأنه لم يكن يعيش في أوتلي، ولم يفعل.. لكنه أعتقد أنه رأى كل شيء، وبالنسبة للاعب صغير، قد يكون هذا كافيًا للأطمئنان في بعض الأحيان.

مد يده وأمسك بياقة جاك، قال وهو يجذبه نحوه «لا تُعاتبني يا جاك.. ما دمت في أوتلي، فأنت كلبي، وطالما أنت في أوتلي، سأداعبك متى أشاء وسأضربك متى أشاء."

ثم دفعه دفعة قوية في رقبته كانت كافية ليعض جاك لسانه ويصرخ... توهجت بقع الغضب المحمومة الآن على وجنتي سموكي الشاحبتين كأحمر شفاه رخيص.

"قد لا تظن أن الأمر كذلك الآن، لكن يا جاك، إنه كذلك.. ما دمتَ في أوتلي، فأنتَ كلبي، وستبقى فيها حتى أُقررَ السماحَ لك بالرحيل، ولعلّنا نبدأ بتعلم ذلك الآن."

سحب قبضته للخلف وفي لحظة، انعكست المصابيح الثلاثة العارية ذات الستين واط، المُعلّقة في هذا الممر الضيق، بجنون على شظايا الماس في خاتم إصبعه الصغير على شكل حدوة حصان، ثم دفع قبضته للأمام مصطدما بجانب وجه جاك الذي اندفع للخلف نحو الجدار المُغطّى بالرسومات، واشتعل جانب وجهه في البداية ثم خُدِّر، غمرته رائحة دمائه.

نظر إليه سموكي بنظرةٍ مُحكمةٍ كنظرة رجلٍ قد يفكر في

شراء بقرةٍ أو رقم يانصيب.. لا بد أنه لم يرَ التعبير الذي أراد رؤيته في عيني جاك، لأنه أمسك بالصبي المذهول مرةً أخرى، عازما على إطلاق رصاصةٍ ثانية.

في تلك اللحظة، صرخت امرأةٌ عبر الحانة «لا يا جلين! لا!»، تداخلت أصوات الرجال، معظمهم مُنذِرون، صرخت امرأةٌ أخرى بصوتٍ عالٍ وحاد، ثم دوّت طلقةٌ نارية.

"يا له من أمر مثير للاشمئزاز!" صرخ سموكي، مُنطقاً كل كلمةٍ بدقةٍ كممثلٍ على مسرح برودواي، رمى جاك على الحائط، واستدار، ثم اندفع خارجاً عبر الباب المُتأرجح، انطلقت طلقةُ المسدس مرةً أخرى، وسمعتُ صرخةَ ألم.

كان جاك مُتأكداً من شيءٍ واحدٍ فقط.. حان وقت الخروج.. ليس في نهاية مناوبة الليلة، ولا مناوبة الغد، ولا صباح الأحد بل الآن.

بدا أن الضجيج قد هدأ، لم تكن هناك صفارات إنذار، لذا ربما لم يُصب أحد...

لكن، تذكر جاك، وهو يرتجف، أن عامل الطاحونة الذي يشبه راندولف سكوت كان لا يزال في كابينة مرحاض الرجال.

دخل جاك إلى المخزن البارد ذي رائحة البيرة، وركع بجانب البراميل، وتحسس حقيبته، ومرة أخرى، غمره ذلك اليقين الخانق، بينما لم تصطدم أصابعه إلا بالهواء الخفيف والأرضية الخرسانية المتسخة، بأن أحدهما، سموكي أو لوري، قد

رآه يخفي الحقيبة وأخذها.. هذا أفضل لإبقائك في أوتلي يا عزيزتي.. ثم شعر بارتياح، خانق كالخوف تقريبًا، عندما لامست أصابعه النايلون.

ارتدى جاك الحقيبة ونظر بشوق نحو باب التحميل في الجزء الخلفي من المخزن. كان يفضل استخدام ذلك الباب، لم يكن يريد النزول إلى باب الحريق في نهاية الردهة الذي كان قريبًا جدًا من حمام الرجال، لكن إذا فتح باب التحميل، سيضيء ضوء الإنذار الأحمر في البار.. وحتى لو كان سموكي لا يزال يُسيطر على الفوضى، سترى لوري ذلك الضوء وتُخبره.

لذا...

ذهب إلى الباب المُطل على الممر الخلفي، فتحه قليلاً وفحصه بإحدى عينيه.

كان الممر فارغًا.. حسنًا، يا له من أمر الرائع... لو أفرغ راندولف كليتيه ثم عاد لمكان الحدث بينما جاك يحضر حقيبته، رائع.

أجل، وربما لا يزال هناك.. هل تريد مقابلته في الردهة يا جاكي؟ هل تريد مشاهدة عينيه تصفران مرة أخرى؟ انتظر حتى تتأكد...

لكنه لم يستطع فعل ذلك، لأن سموكي سيرى أنه ليس في الحانة، يُساعد لوري وغلوريا في مسح الطاولات، أو خلف

البار، يُفرغ غسالة الأطباق، سيعود إلى هنا ليُكمل تعليم جاك مكانته في الحياة. لذا...

ماذا في ذلك؟ هيا بنا!

ربما هو بالداخل ينتظرك يا جاكي... ربما سيقفز خارجًا كعفريت العلبة الشرير...

السيدة أم النمر؟ سموكي أم عامل الطاحونة؟ حار جاك للحظة أخرى من عذابات التردد.

كان احتمال أن يكون الرجل ذو العيون الصفراء لا يزال في الحمام قائمًا؛ أما عودة سموكي فكانت مؤكدة.

فتح جاك الباب وخرج إلى الممر الضيق، بدت الحقيبة التي على ظهره وكأنها تكتسب وزنًا... كتهمة بالغة أمام أي شخص قد يراه أثناء هروبه، بدأ ينزل في الممر، يتحرك بشكل غريب على أطراف أصابعه رغم الموسيقى الصاخبة وزئير الحشد، وقلبه يدق في صدره.

كنت في السادسة، وجاكي في السادسة.

وماذا في ذلك؟ لماذا يستمر هذا التكرار؟

في السادسة.

بدا الممر أطول.. كان الأمر أشبه بالمشي على جهاز المشي الرياضي!

بدا باب الحريق في الطرف البعيد وكأنه يقترب بخطوات

أليمة، غطى العرق جبينه وشفته العليا... لمح بثبات الباب على اليمين، المرسوم عليه رسم كلب أسود، تحت هذا الرسم كُتبت كلمة «مؤشرات»، وفي نهاية الممر، باب أحمر باهت ومتقشر. كُتب عليه «للاستخدام في حالات الطوارئ فقط!» سينطلق صوت الإنذار!

في الواقع، كان جرس الإنذار معطلاً لمدة عامين.. أخبرته لوري بذلك عندما تردد جاك في استخدام الباب لإخراج القمامة.

وأخيرًا، اقتربنا.. مباشرةً مقابل "مؤشرات".

إنه هناك، أعرف أنه... وإذا قفز للخارج سأصرخ... أنا... سأفعل...

مد جاك يده اليمنى المرتعشة ولمس قضيب الحماية من الصدمات في باب الطوارئ، شعر ببرودة مباركة عند لمسه.. للحظة، ظنّ أنه سيطير من نبات الإبريق إلى الليل... حرّاً.

ثم انفتح الباب خلفه فجأةً، باب السلم، وأمسكت يدٌ بحقيبته.. أطلق جاك صرخةً عاليةً يائسةً كحيوانٍ محاصر، وانقضّ على باب الطوارئ، غافلاً عن الحقيبة والعصير السحري بداخلها، لو انقطعت الأشرطة، لكان قد فر هارباً عبر الأرض القاحلة المليئة بالأعشاب خلف الحانة، غير عابئ بشيء آخر.

لكن الأشرطة كانت من النايلون المتين ولم تنقطع.. انفتح

الباب قليلاً، كاشفاً عن شعاعٍ قصيرٍ من الظلام، ثم أُغلق مجدداً، سُحب جاك إلى حمام النساء، دار حول نفسه ثم رُمي إلى الخلف.

لو اصطدم بالحائط مباشرةً، لكانت زجاجة العصير السحري قد تحطمت بلا شك في الحقيبة، مُبللة ملابسه بالقليل من مشروب راند ماكنالي القديم برائحة العنب المتعفن، لكن بدلًا من ذلك، ضُرب أسفل ظهره بحوض الغسيل الوحيد في الغرفة فتألم ألمًا هائلًا، مُبرحًا.

كان عامل الطاحونة يسير نحوه ببطء، يرفع بنطاله الجينز بيديه اللتين بدأتا بالالتواء والتكاثف.

"كان من المفترض أن ترحل يا فتى"، قالها بصوته الأجش الذي استحال بين لحظة وأخرى لما يشبه زمجرة الحيوان.

بدأ جاك يتجه نحو يساره، وعيناه لا تفارقان وجه الرجل الذي بدت عيناه الآن شبه شفافتين، ليسا صفراوين فحسب، بل تشعّان من الداخل... كعينا فانوس هالوين بشع.

قال الكائن الشبيه براعي البقر «لكن يمكنك الوثوق بإلروي العجوز»، ثم ابتسم كاشفًا عن فم مليء بالأسنان المنحنية، بعضها مكسور بشكل خشن، وبعضها أسود من العفن، صرخ جاك.. فقال "أوه، يمكنك الوثوق بإلروي"، وبكلماته التي بالكاد يمكن تمييزها عن نباح الكلب.. "لن يؤذيك كثيرًا". زمجر وهو يتجه نحو جاك.. «ستكون بخير، ستكون بخير، أوه، أجل،

ستكون...».

استمر في الحديث، لكن جاك لم يعد يفهم ما يقوله. الآن كان يزأر فقط.

ارتطمت قدم جاك بسلة المهملات الطويلة عند الباب، وبينما مدّ الكائن الشبيه براعي البقر يده الشبيهة بالحوافر نحوه، أمسك جاك بالعلبة ورماها، ارتدت العلبة عن صدر الكائن الشبيه بإلروي، فتح جاك باب الحمام واندفع يسارًا، نحو باب الطوارئ، فتحه بقوة متجهًا للخارج، مدركًا أن إلروي خلفه مباشرةً.. مندفعًا في الظلام خلف حانة أوتلي.

كانت هناك مجموعة من صناديق القمامة المكتظة على يمين الباب. حرّك جاك ثلاثًا منها بنظرة عمياء خلفه، فسمعها تصطدم وتخشخش، ثم دوت صرخة غضب عندما تعثر إلروي بها.

استدار في الوقت المناسب ليرى شيء ما يسقط بل هي اللحظة التي أدرك فيها "يا إلهي، ذيل، له ما يشبه الذيل.. أن الشيء أصبح الآن حيوانًا بالكامل تقريبًا."

سقط ضوء ذهبي من عينيه بأشعة غريبة، كضوء ساطع يسقط من ثقبي مفتاح.

تراجع جاك عنه، ساحبًا الحقيبة من ظهره، محاولًا فك المزاليج بأصابعه التي بدت كقطع خشبية، وعقل تغلفه الحيرة...

كان جاكي في السادسة من عمره، يا إلهي ...

زأر الشيء وضرب صناديق القمامة، رأى جاك إحدى يديه ترتفع ثم تهبط مصفرةً، محدثةً شقًا حادًا في جانب علبة معدنية مموجة طولها ياردة...

نهض مجددًا، وتعثر، حتى كاد أن يسقط، ثم بدأ يندفع نحو جاك، ووجهه الهادر المتموج الآن على مستوى صدره تقريبًا، وبطريقة ما، من خلال نباحه، استطاع أن يفهم ما كان يقوله.. "الآن لن أمزقك فقط أيتها الدجاجة الصغيرة بل سأقتلك... بعد ما فعلته."

أسمعه بأذنيه؟ أم برأسه؟

لا يهم.. تقلصت المسافة بين هذا العالم وذاك من كونين منفصلين إلى مجرد غشاء.

زأر الشيء إلروي واقترب منه، الآن غير مستقر ومرتبك يتحرك على قدميه الخلفيتين، بملابس مبعثرة، ولسانه يتدلى متأرجحًا من فمه ذي الأنياب.

هنا حيث الأرض الشاغرة خلف حانة سموكي أبدايك «أوتلي تاب»، أجل، هنا حيث الأرض المكسوة بالأعشاب الضارة والمكتظة بالقمامة، وها هو هنا زنبرك سرير صدئ، وهناك شبكة سيارة فورد موديل ١٩٥٧، يعلوهم قمر منجلي كئيب كعظمة منحنية في السماء، تحوّل كل شظية زجاج مكسور إلى عين ميتة تحدق به،

ولم تكن البداية في نيو هامبشاير، أليس كذلك؟

لا...

ولا عندما مرضت والدته، أو مع ظهور ليستر باركر.

بل كانت البداية عندما كان جاكي في السادسة من عمره..

عندما كنا نعيش جميعًا في كاليفورنيا ولم يكن أحد يعيش في أي مكان آخر وكان جاكي...

تلمس أحزمة حقيبته.

عاد مجددًا، وكأنه يرقص تقريبًا، ذكّره للحظة بشخصية كرتونية من ديزني في ضوء القمر المتقلب، بدأ جاك يضحك بجنون.. فزمجر الشيء وقفز نحوه، أخطأته ضربة مخالب الحوافر الثقيلة تلك ببضع بوصات وهو يرقص عائدًا عبر الأعشاب والفضلات، هبط الكائن الإيلروي على زنبرك السرير وتشابك فيه بطريقة ما، عوى، ناشرًا كتلًا بيضاء من الرغوة في الهواء، شدّ والتوى واندفع، وإحدى قدميه مغروسة عميقًا في اللفائف الصدئة.

تلمس جاك الزجاجة داخل حقيبته، حفر بين جواربه وسرواله الداخلي المتسخ وسروال الجينز المعطر حتى أمسك عنق الزجاجة وسحبها.

شق الكائن الإيلروي الهواء بصرخة غضب، وتمكن أخيرًا من التحرر من زنبرك السرير.

ارتطم جاك بالأرض المليئة بالرماد والعشب الأشعث، وتدحرج، والإصبعان الأخيران من يده اليسرى ملتفتان حول حزام الحقيبة، ويده اليمنى ممسكة بالزجاجة. عمل على الغطاء بإبهام وسبابة يده اليسرى، والعبوة تتدلى وتتأرجح حتى انفصل الغطاء.

هل يمكنه أن يتبعني؟ تساءل وهو يميل الزجاجة إلى شفتيه عندما أنتقل هل سأخلف ورائي ثقب يمكنه من اتباعي وإنهاء حياتي هناك؟

امتلأ فم جاك بطعم العنب الميت الفاسد، تقيأ، وانغلق حلقه، وكأنه يعكس اتجاهه... الآن، امتلأت جيوبه الأنفية وممراته الأنفية بتلك النكهة البغيضة، وأطلق أنينًا عميقًا مرتجفًا، استطاع سماع صراخ إلروي الآن، لكن الصرخة بدت بعيدة، كما لو كانت في أحد طرفي نفق أوتلي، وها هو، جاك، يسقط بسرعة تجاه الطرف الآخر، وهذه المرة، شعر بالسقوط، وفكر.. "يا إلهي، ماذا لو انتقلت بنفسي الغبية لفوق جرف أو جبل هناك؟"

تشبث بالحقيبة والزجاجة، وعيناه مغمضتان بشدة، ينتظر ما قد يحدث لاحقًا، إلروي أو لا إلروي.. الأراضي أو النسيان، والفكرة التي طاردته طوال الليل عادت تتأرجح كحصان دائري راقص، سيلفر ليدي، أو ربما إيلا سبيد!

تشبث به وركبه عبر سحابة من رائحة العصير السحري الكريهة، ممسكًا به، منتظرًا ما سيحدث لاحقًا؛ يشعر بتبدل

ملابسه على جسده.

"يا إلهي، عندما كنا جميعًا في السادسة من عمرنا ولم يكن هناك أحدٌ غيرنا،

وكانت كاليفورنيا هي من تعزف على الساكسفون يا أبي، هل هو دكستر جوردون أم هو؟ ماذا عنت أمي عندما قالت إننا نعيش على خط صدع؟ وأين وأين أوه أين تذهب يا أبي؟، أنت والعم مورغان يا أبي، أحيانًا ينظر إليك كما لو أن هناك صدعًا في رأسه وزلزالًا يحدث خلف عينيه وأنت تموت ضحيته يا أبي!

السقوط، والالتواء، والانعطاف في منتصف النسيان، في وسط رائحة كسحابة أرجوانية، جاك سوير، جون بنجامين سوير، جاكي، جاكي

كنت في السادسة من عمري عندما بدأ كل هذا، ومن عزف على الساكسفون يا أبي؟ من عزف عليه عندما كنت في السادسة، عندما كان جاكي في السادسة، عندما جاكي..."

الفصل الحادي عشر
وفاة جيري بليدسو
1

كنت في السادسة... وقتما بدأ كل شيء، وأبي، عندما بدأت المحركات التي سحبته في النهاية إلى أوتلي وما تبع ذلك كمعزوفة ساكسفونيه صاخبة تُعزف بلا توقف...

ستة، كان جاكي في السادسة.. في البداية كان انتباهه منصبًا بالكامل على اللعبة التي أهداها له والده، وهي نموذج مصغر لسيارة أجرة لندنية، كانت السيارة اللعبة ثقيلة كالطوب، وعبر الأرضيات الخشبية الملساء للمكتب الجديد، دفعها دفعة قوية وأرسلها مباشرة عبر الغرفة، في وقت متأخر من بعد الظهيره، في النصف الثاني من شهر أغسطس حين كان جاك في الصف الأول الابتدائي، يدحرج سيارته الجديدة الأنيقة مثل دبابة على شريط الخشب العاري خلف الأريكة، شاعرًا بالرضا والاسترخاء داخل المكتب المكيف... حيث لا مزيد من العمل للقيام به، لا مزيد من المكالمات الهاتفية التي لا يمكن أن تنتظر حتى اليوم التالي، وجاك يدفع سيارة الأجرة الثقيلة في الأسفل على شريط الخشب العاري، بالكاد يستطيع سماع هدير الإطارات المطاطية الصلبة تحت عزف الساكسفون المنفرد.

اصطدمت السيارة السوداء بإحدى أرجل الأريكة،

واستدارت جانبًا، وتوقفت.. زحف جاك إلى الأسفل، وجلس العم مورغان على أحد الكراسي على الجانب الآخر من الأريكة، ارتشف كل رجل منهما مشروبًا؛ وسرعان ما وضعوا كوبيهما، وأطفأوا القرص الدوار ومكبر الصوت، ونزلوا إلى سياراتهم.

عندما كنا في السادسة ولم يكن هناك أحدٌ غيرنا، حدث ذلك في كاليفورنيا.

"من يعزف على الساكسفون؟" سمع العم مورغان يسأل، وبينما كان في حالة من التأمل، كان هناك شيء جديد تردد داخل الصوت الذي ألفه.. شيء هامس ومخفي في صوت مورغان سلوت تسلل لأذن جاكي الذي لمس الجزء العلوي من سيارة الأجرة اللعبة وكانت باردة كما لو إنها صُنعت من جليد، وليس من الفولاذ الإنجليزي.

أجاب والده «أعتقد أنه دكستر جوردون»، بصوته الكسول الودود كما اعتاده.. ثم مرر جاك يده حول سيارة الأجرة الثقيلة من جديد.

"تسجيل جيد.»

"أبي يعزف على البوق(18).. يا لها من أسطوانة قديمة جميلة.. أليس كذلك؟"

"سأبحث عنها."

فكّر جاك أنه يعرف سرّ تلك الغرابة في صوت العم مورغان

فلم يكن العم مورغان يُحبّ موسيقى الجاز إطلاقًا، بل كان يتظاهر بذلك أمام والده، عرف جاك هذه الحقيقة عن مورغان سلوت طوال طفولته، ورأى أنه من المثير للسخرية ألا يلاحظها والده أيضًا.

لم يكن العم مورغان ليبحث أبدًا عن أسطوانة بعنوان «أبي يعزف على البوق»، إنه يُجامل فيل سوير فحسب وربما كان سبب عدم ملاحظة فيل سوير له هو أنه، كغيره، لم يُعر مورغان سلوت الاهتمام الكافي... العم مورغان، الذكي والطموح (كما قالت ليلي «ذكي كالوشق(19)، ومخادع كمحامي محكمة»)، كان العم مورغان الطيب شخص غير ملحوظ، تتخطاه عيناك تلقائيًا، عندما كان جاكي طفلاً، جزم أن معلميه سيواجهون صعوبة في تذكر اسمه...

تخيلوا حال هذا الرجل هناك؛

قال العم مورغان، وقد استحوذ على انتباه جاك بالكامل للمرة الأولى، لا يزال الزيف يتردد في صوته، لكن نفاق سلوت لم يكن ما أثار جاكي وشد أصابعه على لعبته الثقيلة، فقد تسللت الكلمات هناك إلى ذهنه وترددت كرنين الأجراس...

حين تحدث والده والعم مورغان عن أرض الأحلام متناسين وجوده خلف المقعد...

علم والده بشأن أرض أحلام اليقظة، لم يكن جاك ليذكر أحلام اليقظة لأبيه أو والدته، لكن والده عرفها ببساطة، أما

المرحلة التالية والتي جعلت ملامح جاك تكتسي بالجدية، هي معرفته بأن والده كان يحافظ على أمان أحلام اليقظة.

لكن لسببٍ ما، يصعب ترجمته من مشاعر إلى لغة، اقتران مورغان سلوت بعالم أحلام اليقظة جعل الصبي يشعر بالقلق.

قال العم مورغان «مهلاً؟» «هذا الرجل سيقلب أحوالهم رأسًا على عقب، أليس كذلك؟ ربما سيجعلونه دوق الأراضي الملعونة، أو ما شابه.»

رد فيل سوير «حسنًا، ربما ليس كذلك.. ليس إذا كانوا يحبونه بقدر ما نحبه.»

فكّر جاكي، وقد أدرك فجأةً أهمية هذا الأمر، أن العم مورغان لا يحبه يا أبي.. إنه لا يحبه على الإطلاق، ليس حقًا، كما يرى أن الموسيقى عالية جدًا، وأنها تسلبه شيئًا ما.

قال العم مورغان بصوتٍ بدا هادئًا ومريحًا «أوه، أنت تعرف عن هذا الأمر أكثر مني بكثير.»

"حسنًا، لقد زرت هذا المكان أكثر مني، لكنك تُحسن اللحاق بي."

سمع جاكي ابتسامة والده..

"أوه، لقد تعلمتُ بعض الأشياء يا فيل، لكن في الحقيقة، كما تعلم فأنا لن أنسى أبدًا امتناني لك لإظهار كل ذلك لي." امتلأ مقطعيّ كلمة «ممتن» بالدخان وصوت تحطم الزجاج.

لكن كل هذه التحذيرات الصغيرة لم تفعل أكثر من أن تُضعف رضا جاك العميق، الذي يكاد يكون سعيدًا فهم يتحدثون عن أحلام اليقظة وكم هو ساحرًا، أن يكون هذا الشيء ممكنًا...

ما قالوه فاق إدراكه، فمصطلحاتهم ومفرداتهم ناضجة جدًا، لكن جاك، البالغ من العمر ست سنوات، اختبر مرة أخرى روعة وبهجة أحلام اليقظة، وكان على الأقل كبيرًا بما يكفي لفهم سير حديثهم، أن أحلام اليقظة حقيقية، ويشترك بها جاكي ووالده بطريقة ما.. وهو ما احتل نصف سعادته.

2

قال العم مورغان: «دعني أضع بعض الأمور في نصابها".

رأى جاكي كلمة «نصابها" كخطين متشابكين كالأفاعي...

"لديهم سحر كما لدينا فيزياء، أليس كذلك؟ نحن نتحدث عن ملكية زراعية، تستخدم السحر بدلًا من العلم.»

رد فيل سوير "بالتأكيد".

"ومن المفترض أنهم استمروا على هذا المنوال لقرون، لم تختلف حياتهم كثيرًا.»

"باستثناء الاضطرابات السياسية، نعم هذا صحيح.»

توتر صوت العم مورغان، وبدا حماسه وكأنه يخفي رعشة خفيفة بين حروفه الساكنة.. "حسنًا، انسَ أمر السياسة، لنفكر في أنفسنا على سبيل التغيير.. ستقول وأنا أتفق معك يا فيل.. إننا حققنا نجاحًا كبيرًا في الأقاليم بالفعل، وأن علينا أن نكون حذرين بشأن كيفية إدخال التغييرات هناك، لا مشكلة لدي على الإطلاق مع هذا الموقف.. بل أنني أشعر بنفس الشعور."

استشعر جاكي صمت والده.

"حسنًا،" تابع سلوت.. "لنبدأ بمفهوم أنه في ظل وضعٍ مفيدٍ لنا أساسًا، يمكننا توزيع المنافع على من يوالينا. دون التضحية بتميزنا، أو الطمع في مردود فنحن مدينون لهؤلاء

الناس يا فيل.. انظر ماذا فعلوا لنا، أعتقد أنه يمكننا نؤازرهم بشكل فعلي هناك، يمكن لطاقتنا أن تُغذي طاقتهم ونبتكر أشياءً لم تخطر لنا من قبل يا فيل، وننتهي بأن نبدو كرماء، وهو ما نحن عليه بالفعل.. ولكن أيضًا بما لا يضرنا.»

عقد حاجبيه وضم راحتا يديه لبعضهما البعض.. «بالطبع ليس لديّ رؤيةٌ شاملةٌ لهذا الوضع، كما تعلم، لكنني أعتقد أن التآزر في حد ذاته يستحق الاعتراف، لأكون صادقًا معك.. لكن يا فيل، هل يمكنك تخيل مدى النفوذ الذي سنتمتع به لو زودناهم بالكهرباء؟ لو زودنا الأشخاص المناسبين هناك بأسلحة حديثة؟ هل لديك أي فكرة؟ أعتقد أنه سيكون رائعًا. رائع." دوى صوت تصفيق يديه الرطب والهش.. "لا أريد أن أفاجئك على حين غرة، لكنني اعتقدت أنه قد حان الوقت لنفكر على هذا المنوال.. أن نفكر، في شراكة أكبر فيما يخص الأقاليم."

لم ينطق فيل سوير بكلمة...

صفق العم مورغان بيديه مجددًا، أخيرًا، قال فيل سوير، بلا اكتراث، «يجب أن تفكر في زيادة مشاركتنا.»

"أعتقد أن هذا هو الحل.. ويمكنني أن أشرح لك بالتفصيل يا فيل، لكن لا ينبغي لي ذلك، ربما تتذكر جيدًا كيف كان الوضع قبل أن نبدأ بالذهاب إلى هناك معًا.. مهلاً، ربما كان بإمكاننا إنجاز كل شيء بمفردنا، وربما كنا سنفعل، لكن بالنسبة لي، أنا ممتن لعدم تمثيلي لراقصتين عاريتين و«ليتل

تيمي تيبتوي"(20) بعد الآن."

"انتظر،" قال والد جاك.

"طائرات،" قال العم مورغان.. "فكر في طائرات."

"انتظر، انتظر يا مورغان، لديّ الكثير من الأفكار التي يبدو أنها لم تخطر ببالك بعد."

"أنا دائمًا مستعد لأفكار جديدة،" قال مورغان، وكان صوته دخانيًا مرة أخرى.

"حسنًا. أعتقد أنه يجب علينا أن نكون حذرين بشأن ما نفعله هناك يا شريكي، في اعتقادي أن أي شيء كبير بل إن أي تغييرات حقيقية نحدثها.. قد تنقلب علينا وتؤذينا هنا فلكل فعل عواقب، وبعض هذه العواقب قد تكون غير مريحة.»

"مثل ماذا؟" سأل العم مورغان.

"مثل الحرب."

"هذا جنون يا فيل." لم نرَ شيئًا قط... إلا إذا كنت تقصد بليدسو..."

"بالطبع أقصد بليدسو.. هل كانت مصادفة؟"

"بليدسو؟| تساءل جاك.. لقد سمع الاسم من قبل؛ لكنه كان غامضًا.

"حسنًا، هذا بعيد كل البعد عن الحرب، على أقل تقدير، ولا أعترف بالصلة على أي حال."

"حسنًا، هل تتذكر سماعك كيف اغتال غريب الملك العجوز هناك.. منذ زمن بعيد؟ هل سمعت عن ذلك من قبل؟»

"أجل، أعتقد،" قال العم مورغان، وسمع جاك مرة أخرى الزيف في صوته.

صدر صرير من كرسي والده الذي كان يرفع قدميه عن مكتبه، ويميل إلى الأمام. "أشعل الاغتيال حربًا صغيرة هناك، كان على أتباع الملك العجوز إخماد تمرد قاده نبلاء ساخطون، رأى هؤلاء الرجال فرصتهم للسيطرة على الأمور وإدارتها بالاستيلاء على الأراضي، ومصادرة الممتلكات، وسجن أعدائهم، إثراء أنفسهم."

"مهلاً، كن منصفًا،" قاطعه مورغان.. "سمعت بهذا أيضًا، ولقد سعوا لإدخال ما يشبه النظام السياسي إلى نظام مجنون وغير فعال.. أحيانًا عليك أن تكون صارمًا في البداية، أستطيع أن أفهم ذلك.."

"وليس من حقنا إصدار أحكام على سياساتهم، أتفق معك.. لكن هذه هي وجهة نظري.. لقد استمرت تلك الحرب الصغيرة هناك حوالي ثلاثة أسابيع، وعندما انتهت، ربما كان قد قُتل مئة شخص وهو أقل تقدير مُرجح.. هل أخبرك أحد متى بدأت تلك الحرب؟ في أي عام كانت؟ وفي أي يوم؟»

"لا،" تمتم العم مورغان بصوت عابس.

"كان ذلك في الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩، أما هنا، فكان ذلك اليوم الذي غزت فيه ألمانيا بولندا.»

توقف والده عن الكلام، وتثاءب جاكي، ممسكاً بسيارته الأجرة السوداء خلف الأريكة، عم الصمت..

وفجأة بصوت عالٍ.. "هذا جنون" صاح العم مورغان أخيرًا.. "حربهم بدأت مع حربنا؟ هل تصدق ذلك حقًا؟»

"أصدق ذلك،" رد والد جاك.. «أعتقد أن شجارًا دام ثلاثة أسابيع هناك أشعل بطريقة ما حربًا هنا استمرت ست سنوات وقتلت ملايين الأشخاص.. لذا نعم.»

"حسنًا..." قال العم مورغان، ورأى جاك أنه بدأ يلهث وينفخ.

"هناك المزيد.. لقد تحدثت إلى الكثير من الناس هناك عن هذا، والشعور الذي ينتابني هو أن الغريب الذي اغتال الملك كان غريبًا حقًا، إن كنت تفهم ما أقصده. أولئك الذين رأوه شعروا أنه لم يكن مرتاحًا لملابس الأقاليم، كان يتصرف وكأنه غير متأقلم مع العادات المحلية حيث لم يفهم المال على الفور.»

"آه."

"نعم، لو لم يمزقوه إربًا بعد أن طعن الملك بسكين، لكنا متأكدين من هذا، لكنني متأكد على أي حال أنه كان... مثلنا.»

"مثلنا.. هذا صحيح... زائر، مورغان، لا أعتقد أننا نستطيع العبث كثيرًا هناك... لأننا ببساطة لا نعرف ما ستكون عليه العواقب، لأكون صادقًا، أعتقد أننا نتأثر دائمًا بما يحدث في الأراضي.. أم هل علي أن أخبرك بأمر غريب آخر؟»

"لم لا؟" أجاب سلوت.

"إن هذا ليس العالم الآخر الوحيد هناك.»

3

صاح سلوت "هذا هراء".

"أعني ما أقول.. لقد شعرتُ، مرةً أو مرتين عندما كنتُ هناك، أنني قريبٌ من مكانٍ آخر... أراضي الأراضي.»

نعم، فكّر جاك، هذا صحيح، لا بد أن يكون كذلك فأحلام اليقظة تعكس مكان أجمل، وعلى الجانب الآخر توجد أيضًا أحلام يقظة بمكان آخر أكثر جمالاً،وهكذا... وللمرة الأولى شعر جاك بالنعاس.

أحلام اليقظة...

نام على الفور تقريبًا، وسيارة الأجرة الصغيرة الثقيلة بين أحضانه، وجسده كله غرق في النوم في آنٍ واحد، مرتكزًا بخفة وسلام على قطعة الأرضية الخشبية.

لا بد أن المحادثة استمرت، لا بد أن جاكي فاته الكثير...

نهض وسقط، ثقيلاً وخفيفاً، حتى النصف الآخر من «أبي يعزف على البوق»، وخلال ذلك الوقت، لا بد أن مورغان سلوت قد جادل في البداية بهدوء، ولكن بأي ضغطات من قبضتيه، وبأي التواءات من جبينه! بشأن خطته؛

لا بد أنه سمح لنفسه أن يبدو مقنعاً، ثم في النهاية أقنعته شكوك شريكه، في نهاية هذه المحادثة، التي عادت إلى جاكي سوير البالغ من العمر اثني عشر عامًا في المنطقة

الحدودية الخطرة بين أوتلي، نيويورك، وقرية مجهولة الاسم في الأقاليم، سمح مورغان سلوت لنفسه أن يبدو ليس فقط مقتنعًا بل ممتنًا للغاية للتعلم.

عندما استيقظ جاك، كان أول ما سمعه هو سؤال والده «مهلاً، هل اختفى جاك أم ماذا؟» والشيء الثاني كان قول العم مورغان "يا إلهي، أعتقد أنك محق يا فيل.. لديك طريقة لرؤية جوهر الأشياء مباشرة، أنت رائع في طريقتك."

"أين جاك بحق الجحيم؟" سأل والده، فنهض جاك من خلف الأريكة، وقد استيقظ فعلاً، ارتطمت سيارة الأجرة السوداء بالأرض.

"آها،" قال العم مورغان.. "على الكبار أن يكونوا حذرين فيما يقولونه أمام الأطفال، أليس كذلك؟»

"أنت في الخلف يا صغيري؟" قال والده، أصوات كراسي تُدفع للخلف عبر الأرضية الخشبية، ورجال واقفون.

رد، «أوه،» ورفع سيارة الأجرة ببطء إلى حجره، شعر بتيبس وعدم ارتياح في ساقيه، عندما وقف، كانتا ترتجفان.

ضحك والده، وخطا نحوه، ظهر وجه مورغان سلوت الأحمر المنتفخ فوق سطح الأريكة.

تثاءب جاك ودفع ركبتيه في ظهر الأريكة، ظهر وجه والده بجانب وجه سلوت. ابتسم والده، للحظة، بدا وكأن رأسا هذين الرجلين البالغين يطفوان فوق سطح الأريكة.

قال والده «هيا بنا إلى المنزل، أيها النعس".

عندما نظر الصبي إلى وجه العم مورغان، لمح حساباته وهي تغرق تحت جلده، تزحف تحت خدّيه البدينين المرحين كالأفعى تحت صخرة، وعاد يبدوا كوالده ريتشارد سلوت من جديد، العم مورغان الطيب الذي كان دائمًا يُقدّم هدايا رائعة في أعياد الميلاد والمناسبات، العم مورغان الطيب المتعرق، الذي لا تدرك وجوده، لكن كيف كان يبدو من قبل؟ كزلزال بشري، كرجل ينهار فوق خط الصدع خلف عينيه، كبركان خامد محتقن ينتظر الانفجار.

"ماذا عن القليل من الآيس كريم في طريق العودة يا جاك؟" سأله العم مورغان.. «هل هذا يبدو جيدًا لك؟»

"حسنًا"، رد جاك.

"نعم، يُمكننا التوقف في ذلك المكان في الردهة"، قال والده.

"لذيذ، لذيذ، لذيذ"، قال العم مورغان.. "يمكننا التحدث عن التآزر حقًا»، وابتسم لجاك مرة أخرى.

" حدث هذا وهو في السادسة من عمره، وفي خضم تقلباته في عالم النسيان، تكرر الأمر مرة أخرى، عاد طعم عصير سبيدي الأرجواني المربع إلى فمه، وعبر الممرات خلف أنفه، وعادت أحداث تلك الظهيرة الرتيبة التي عاشها قبل ست سنوات إلى ذهنه.. تذكّر الأمر كما لو أن العصير السحري أعاد

إليه ذاكرته الكاملة، وبسرعة جعله يعيش تلك الظهيرة عبر الثواني القليلة التي أخبرته أن العصير السحري هذه المرة سيجعله يتقيأ.

عينا العم مورغان تدمعان، وداخل جاك سؤال يتصاعد أ، يطالب بالخروج أخيرًا...

من لعب

ما الذي تغير؟

من عبث بالمتغيرات يا أبي؟

من...

قتل جيري بليدسو؟

اندفع العصير السحري إلى فم الصبي، وتسللت خيوط لاذعة منه إلى أنفه بشكل مقزز، وما إن شعر جاك بتراب طري تحت يديه حتى استسلم وتقيأ بدلًا من الغرق. ما الذي قتل جيري بليدسو؟

انطلقت رائحة أرجوانية كريهة من فم جاك، خانقة إياه، فدفع نفسه إلى الخلف غير مبال بالعشب الطويل الصلب الذي تعلق بقدميه وساقيه.

نهض جاك على يديه وركبتيه وانتظر، صبورًا كالبغل، بفم مفتوح، الهجمة الثانية. تقلصت معدته، ولم يتسنَّ له الوقت للتأوه قبل أن يحترق المزيد من العصير النتن في صدره

وحلقه ويتناثر من فمه.

تدلت خيوط وردية زاهية من شفتيه، فمسحها جاك بضعف، مسح يده بسرواله.

جيري بليدسو، نعم. جيري.. الذي كان اسمه مكتوبًا دائمًا على قميصه، كعامل محطة وقود.

جيري، الذي مات عندما.. هز الصبي رأسه ومسح فمه بيديه مرة أخرى ثم بصق في عش من العشب البري المنشاري الذي نبت كصدرية عملاقة من الأرض الرمادية البنية.

غريزة حيوانية خافتة لم يفهمها دفعته لدفع التراب السائب فوق بركة القيء الوردية.. رد فعل آخر جعله يمسح راحتي يديه بسرواله، أخيرًا رفع نظره.

كان راكعًا، في آخر ضوء المساء، على حافة طريق ترابي، لم يطارده أي شيء فظيع من نوع إلروي.. لقد أدرك ذلك على الفور.

الكلاب المحبوسة في حظيرة خشبية تشبه القفص تنبح وتزأر عليه، تدفع أنوفها من خلال شقوق سجنها، على الجانب الآخر من الكلاب المسيجة كان هناك هيكل خشبي مترامي الأطراف، ومن هنا أيضًا ارتفعت أصوات الكلاب إلى السماء الشاسعة. كانت هذه الأصوات مشابهة بشكل لا لبس فيه للأصوات التي كان جاك يسمعها للتو من الجانب الآخر من جدار حانة أوتلي.. أصوات رجال سكارى يصرخون على

بعضهم البعض.

إنها حانة.. يوجد هنا نُزُلًا أو حانة عامة، كما تخيل جاك.. الآن وقد زال عنه الاشمئزاز من عصير سبيدي، أصبح بإمكانه شم رائحة الشعير والقفزات(21) النفاذة.

لا يمكنه السماح لرجال النُزُل باكتشاف وجوده.

للحظة، تخيل نفسه يركض من كل تلك الكلاب التي تنبح وتزأر من خلال شقوق حظيرتها، ثم نهض، بدت السماء وكأنها تميل فوق رأسه، لتظلم...

لكن تُرى ما الذي يحدث الآن في منزله وعالمه؟ كارثة صغيرة لطيفة في وسط أوتلي؟ ربما فيضان صغير لطيف، حريق صغير حلو؟ انزلق جاك بهدوء بعيدًا عن النُزُل، ثم بدأ يتحرك جانبيًا عبر العشب الطويل، على بُعد ستين ياردة تقريبًا، عثر على شموع سميكة مشتعلة في نوافذ المبنى الوحيد الآخر الذي كان يراه، من مكانٍ ليس ببعيدٍ عن يمينه، انبعثت رائحة خنازير، عندما قطع جاك نصف المسافة بين النزل والمنزل، توقفت الكلاب عن الزجر والنباح، وبدأ يسير ببطءٍ نحو الطريق الغربي.

كان ليلا كالحًا بلا قمر.

جيري بليدسو.

4

كانت هناك منازل أخرى، إلا أن جاك لم يرها إلا عندما يكاد يقف أمامها.

باستثناء صخب الشاربين خلفه في النزل، كان سكان المناطق الريفية هنا ينامون عند غروب الشمس.

لم تكن هناك شموع مضاءة في هذه النوافذ المربعة الصغيرة.. المنازل على جانبي الطريق الغربي، مربعة ومظلمة، كانت في عزلة محيرة.. هناك خطأ ما، كما في لعبة بصرية من مجلة أطفال، لكن جاك لم يستطع تحديده.. لم يكن هناك شيء معلقًا رأسًا على عقب، ولا شيء محترق، ولا شيء يبدو في غير محله، معظم المنازل ذات أسقف سميكة وخفيفة من أكوام القش التي تشبه إلى حد كبير قصات الشعر القصيرة، لكن جاك افترض أنها من القش.. فقد سمع عنها، لكنه لم يرَها من قبل.

مورغان، فكّر فجأةً برعبٍ مُفاجئ، مورغان صاحب الحواس المتيقظة، ورأى الاثنين، الرجل ذو الشعر الطويل والحذاء الضخم وشريك والده المُتصبّب عرقًا والمُدمن على العمل، مُختلطين للحظة.. مورغان سلوت ذو شعر القراصنة الذي يعرج في مشيته، لكن مورغان.. مورغان هذا العالم.. لم يكن هو الخطأ في هذه الصورة.

كان جاك يمرّ الآن بمبنى قصير مُتكتل من طابق واحد يشبه

حظيرة أرانب متكدسة، مُحاط بألواح خشبية نصف مُ

زدوجة بعلامات X خشبية سوداء عريضة، كما يغطيه سقفٌ من القش الرقيق أيضًا. لو كان يسير خارجًا من أوتلي.. أو حتى يركض خارجًا منها، لكاد أن يتيقن من الحقيقة...

فماذا يتوقع أن يرى في النافذة المُظلمة الوحيدة لتلك الحظيرة المُخصّصة للأرانب العملاقة؟

كان يعلم.. بريق شاشة تلفزيون راقص، لكن بالطبع لم تكن منازل الأقاليم تحتوي على أجهزة تلفزيون بداخلها، ولم يكن غياب ذلك الوميض المُلوّن هو ما حيّره بل شيئًا آخر، شيئًا يُشكّل جانبًا أساسيًا من أي تجمع للمنازل على طول الطريق لدرجة أن غيابه ترك فجوة في المشهد.. لاحظ الفجوة حتى لو لم يستطع تحديد ما هو غائب تمامًا.

تلفزيون، أجهزة تلفزيون... واصل جاك سيره متجاوزًا المبنى الصغير ذي الإطار الخشبي ورأى نصب عينيه، بابه الأمامي على بُعد بوصات قليلة من حافة الطريق، مسكنًا صغيرًا آخر غريب الأطوار، وقد بدا أن سقفه من العشب، وليس من القش، فابتسم جاك لنفسه.. لقد ذكّرته هذه القرية الصغيرة بقرية الهوبيت.

هل يمكن لعامل توصيل كابلات الهوبيت أن يأتي إلى هنا ويقول لسيدة ... الكوخ؟ بيت الكلب؟... أو أي شيء آخر،

هل سيقول لها، «سيدتي، نحن نقوم بتركيب كابل في

منطقتكِ، ومقابل رسوم شهرية بسيطة اشتركي الآن وستحصلين على خمس عشرة قناة جديدة، وأيضًا على قناة ميدنايت بلو، وستحصلين على جميع القنوات الرياضية وقنوات الطقس، وستحصلين على...»؟

وأدرك فجأةً أن هذا هو كل شيء فأمام هذه المنازل، لم تكن هناك أعمدة كهرباء.. ولا حتى أسلاك! لا هوائيات تلفزيونية تُعقّد السماء، ولا أعمدة خشبية طويلة تمتد على طول الطريق الغربي، لأن الكهرباء لم تكن متوفرة في الأقاليم.. ولهذا السبب لم يسمح لنفسه بتحديد العنصر الغائب.

عمل جيري بليدسو، لبعض الوقت، كهربائيًا ومهندسًا في شركة سوير آند سلوت.

5

عندما استخدم والده ومورغان سلوت اسم بليدسو، ظن أنه لم يسمع به من قبل، وبعد أن تذكر.. أدرك أنه لابد وأن يكون قد سمع اسم عائلة عامل الصيانة يتردد مرة أو مرتين، لكن جيري بليدسو كان دائمًا ما يُسمى جيري فقط، كما هو مكتوب فوق جيب قميص عمله.

"ألا يستطيع جيري فعل شيء حيال مكيف الهواء؟"

"أرجوك أن تجعل جيري يزيت مفصلات هذا الباب، من فضلك؟ صريره يُجنني."

وكان جيري يظهر، بملابس عمله النظيفة والمكوية، وشعره الأحمر كخيوط صدئة خفيفة مُشطت بتهذيب، ونظارته المستديرة، الجادة، ثم يصلح أي خطأ بهدوء.

كانت هناك أيضًا السيدة جيري، التي حافظت على تجاعيد سروال العمل البني حادة ونظيفة، والعديد صغار جيري، الذين تذكرهم سوير وسلوت دائمًا في أعياد الميلاد.

كان جاك صغيرًا بما يكفي ليربط اسم جيري بالعدو اللدود للقط توم، فتخيل أن عامل الصيانة والسيدة جيري وصغار جيري يعيشون في جحر فأر ضخم، يمكن الولوج إليه عبر الباب المقوس المحفور في اللوح الخشبي أسفل الجدار.

ولكن من قتل جيري بليدسو؟ والده ومورغان سلوت، الذي

لطالما كان لطيفًا مع أطفال بليدسو في أعياد الميلاد؟

تقدم جاك في ظلمة الطريق الغربي، متمنيًا لو أنه نسي تمامًا أمر عامل صيانة سوير وسلوت، ولو أنه نام بمجرد زحفه خلف الأريكة صار النوم هو كل ما أراده بدلا من تلك الأفكار المزعجة التي أثارتها تلك المحادثة التي انتهت قبل ست سنوات.

وعد جاك نفسه أنه بمجرد أن يتأكد من أنه على بُعد ميلين على الأقل من آخر منزل، سيحاول إيجاد مكانًا لينام فيه.. يكفيه فقط حقل أو حتى خندق فلم تعد ساقاه بقادرتين على الحركة؛

يبدوا أن عضلاته صارت أكثر هشاشة وعظامه لم تعد قادرة على حمله.

لقد حدث ذلك من قبل بعد إحدى تلك المرات عندما تبع جاك والده لمكان مغلق خطط أن يخفيه بداخله، وفي وقت لاحق، تمكن والده من الاختفاء من غرفة نومه، ومن غرفة الطعام، ومن غرفة الاجتماعات في سوير وسلوت.

وتلك المرة، التي استطاع تنفيذ خدعته الغامضة في المرآب بجوار المنزل في شارع روديو درايف، جلس جاك دون أن يلاحظه أحد على النتوء الصغير من الأرض المرتفعة، وهو أقرب ما يكون إلى تلة في هذا الجزء من بيفرلي هيلز، فرأى والده يغادر منزلهم من الباب الأمامي، ويعبر الحديقة وهو

يبحث في جيوبه عن المال أو المفاتيح، ثم دخل المرآب من الباب الجانبي، كان من المفترض أن يُفتح الباب الأبيض على الجانب الأيمن بعد ثوانٍ؛ لكنه ظل مغلقًا بإصرار.. ثم أدرك جاك أن سيارة والده كانت حيث كانت طوال صباح السبت، متوقفة على الرصيف أمام المنزل مباشرة، اختفت سيارة ليلي التي وضعت سيجارة في فمها وأعلنت أنها ستذهب لمشاهدة عرض فيلم «ديرت تراك»، أحدث أفلام مخرج فيلم «حبيبة الموت»، ولن يستطيع أحد إيقافها وهكذا أصبح المرآب فارغًا.

انتظر جاك لدقائق حدوث شيء ما، لكن لم يُفتح الباب الجانبي ولا الباب الأمامي الكبير.

في النهاية، انزلق جاك من على السطح العشبي، وذهب إلى المرآب، ودخل، كانت المساحة الواسعة المألوفة فارغة تمامًا، تناثرت بقع زيت داكنة على أرضية الأسمنت الرمادية، عُلقت أدوات بخطافات فضية مثبتة في الجدران.

تأوه جاك بدهشة، ونادى "أبي؟" ودقق النظر إلى كل شيء مرة أخرى، فقط للتأكد، هذه المرة لمح صرصورًا يحتمي قافزا لشق مظلم بالجدار، ولثانية كاد أن يصدق أن السحر حقيقي وأن سحرًا خبيثًا قد حدث... وصل الصرصور إلى الجدار وانزلق في شق غير مرئي.. لا، لم يتحول والده إلى صرصور.. بالطبع لم يتحول!

"مهلاً"، قالها الصبي وقد بدأ وكأنه يحدث نفسه، ثم تراجع

إلى الخلف نحو الباب الجانبي وغادر المرآب.

غربت الشمس عن مروج شارع روديو درايف الخضراء والنضرة. أراد أن يتصل بأحد، لكن من؟ الشرطة؟ وماذا سيقول لهم؟ "دخل والدي المرآب ولم أجده هناك، والآن أشعر بالخوف."

بعد ساعتين، جاء فيل سوير سائراً من نهاية شارع بيفرلي ويلشاير حاملاً سترته على كتفه، وقد سحب ربطة عنقه.. بدا لجاك كرجل عائد من رحلة حول العالم.

قفز جاك من مطرحه بتوتر مندفعًا نحو والده.

قال والده مبتسماً «لقد قفزت مسافة واسعة جدًا"، فارتطم جاك بساقيه.. «ظننت أنك تغفو، يا جاك المسافر.»

سمعا رنين الهاتف وهما يصعدان الممر، وغريزة ما.. ربما غريزة إبقاء والده قريبًا.. جعلت جاكي يدعو أن يكون قد رنّ بالفعل عشرات المرات، وأن يُغلق المتصل الخط قبل أن يصلوا إلى الباب الأمامي، فرك والده شعر رأسه، ووضع يده الكبيرة الدافئة على مؤخرة رقبته، ثم فتح الباب ووصل إلى الهاتف في خمس خطوات طويلة.

"نعم يا مورغان"، سمع جاكي والده يقول.. «أوه؟ أخبار سيئة؟ من الأفضل أن تخبرني، نعم.»

بعد لحظة صمت طويلة استطاع فيها الصبي سماع صوت مورغان سلوت الخافت الأجش يتسلل عبر أسلاك الهاتف «يا

إلهي.. مسكين جيري.. سأأتي حالًا.»

ثم نظر والده إليه مباشرة، دون أن يبتسم، دون أن يغمز، دون أن يفعل شيئًا سوى ضمه «سآتي يا مورغان.. سأحضر جاك معي، لكن يمكنه الانتظار في السيارة.»

شعر جاك باسترخاء عضلاته، وشعر براحة بالغة لدرجة أنه لم يسأل عن سبب انتظاره في السيارة، كما كان ليفعل في أي وقت آخر.

قاد فيل سيارته في شارع روديو درايف إلى فندق بيفرلي هيلز، ثم انعطف يسارًا إلى شارع سانست، ووجه السيارة نحو الشركة، لم يقل شيئًا.

انطلق والده مسرعًا عكس اتجاه السيارات، وقاد إلى موقف السيارات المجاور لمبنى المكاتب.

كانت في الموقف بالفعل سيارتا شرطة، وشاحنة إطفاء، وسيارة مرسيدس بيضاء مكشوفة صغيرة الحجم تابعة للعم مورغان، وسيارة بلاي ماوث القديمة الصدئة ذات البابين التي امتلكها عامل الصيانة/ عند المدخل مباشرةً، وقف العم مورغان يتحدث إلى شرطي، يهز رأسه ببطء، ببطء، في تعاطف واضح.. ضغطت ذراع مورغان سلوت اليمنى على كتفي شابة نحيفة ترتدي فستانًا فضفاض، وقد أخفت وجهها بصدره.. إنها السيدة جيري، عرفها جاك، إذ رأى أن معظم وجهها كان محجوبًا بمنديل أبيض ضغطته على عينيها.

دفع رجل إطفاء يرتدي قبعة ومعطفًا واقٍ من المطر كومةً من المعدن والبلاستيك الملتوي والرماد والزجاج المكسور في كومةٍ فوضويةٍ بعيدًا عنهم في نهاية الممر. قال فيل «اجلس هنا لدقيقة أو دقيقتين، حسنًا يا جاكي؟» وانطلق مسرعًا نحو المدخل حيث جلست شابة صينية تتحدث مع شرطي على دعامةٍ خرسانيةٍ في نهاية موقف السيارات، أمامها، كان هناك شيءٌ مُكدّس، استغرق جاك لحظةً ليميز أنه دراجة. عندما شهق جاك، شمّ رائحة دخانٍ مُرّ.

بعد عشرين دقيقة، غادر كلٌّ من والده وعمه مورغان المبنى. كان العم مورغان لا يزال ممسكًا بالسيدة جيري، ولوّح مودعًا آل سوير ثم قاد المرأة إلى باب سيارته الصغيرة، أخرج والد جاك سيارته من الموقف وأعادها إلى شارع سانست.

سأل جاك «هل أصيب جيري؟».

رد والده «حادث غريب.. كادت الكهرباء أن تحرق المبنى بأكمله.»

كرر جاك "هل أصيب جيري؟".

قال والده «يا له من مسكين! أصيب ابن العاهرة إصابة بالغة لدرجة أنه مات.»

استغرق جاك وريتشارد سلوت شهرين لتكوين القصة كاملةً من المحادثات التي سمعاها، قدّمت والدة جاك ومدبرة منزل ريتشارد تفاصيل أخرى حيث كانت تفاصيل مدبرة المنزل هي

الأكثر دموية.

حضر جيري بليدسو يوم سبت ليحاول إصلاح بعض الثغرات في نظام أمن المبنى. فإذا عبث أحدهم بالنظام الدقيق في يوم من أيام الأسبوع، من المؤكد أنه سيُربك أو يُزعج السكان بجهاز إنذار كلاكسون كلما أطلقه عن طريق الخطأ وقد تم توصيل نظام الأمن بلوحة الكهرباء الرئيسية للمبنى، وتثبيته خلف لوحين كبيرين قابلين للإزالة من خشب الجوز في الطابق الأرضي.

وضع جيري أدواته ورفع الألواح، بعد أن رأى أن المكان خالٍ ولن يُفزع أحدهم حين ينطلق صوت الإنذار، ثم نزل إلى الطابق السفلي حيث توجد كابينة الهاتف، وطلب من مركز الشرطة المحلي تجاهل أي إشارات من عنوان سوير وسلوت حتى مكالمته الهاتفية التالية، عندما عاد إلى الطابق العلوي للتعامل مع شبكة الأسلاك المتشابكة القادمة إلى اللوحة من جميع نقاط الاتصال، كانت امرأة تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا تدعى لوريت تشانغ تركب دراجتها إلى ساحة المبنى وتوزع منشورًا يعلن عن مطعم من المقرر افتتاحه في نهاية الشارع في غضون خمسة عشر يومًا، وقد أخبرت الآنسة تشانغ الشرطة لاحقًا أنها نظرت من خلال الباب الأمامي الزجاجي ورأت العامل أثناء دخوله القاعة من الطابق السفلي قبل أن يلتقط مفك البراغي ويلمس لوحة الأسلاك، شعرت بموقف السيارات يهتز تحت قدميها. كان، كما افترضت، زلزالًا

صغيرًا.. لم تتأثر لوريت تشانغ، المقيمة في لوس أنجلوس طوال حياتها، بأي حدث زلزالي لم يُسقط أي شيء في الواقع، وقد رأت جيري بليدسو يثبت قدميه (لذا شعر به أيضًا، على الرغم من أن أحدًا لم يشعر به غيرهما)، ويهز رأسه، ثم يُدخل طرف مفك البراغي برفق في خلية من الأسلاك.

ثم تحول مدخل وممر الطابق السفلي لمبنى سوير وسلوت إلى محرقة، واستحالت لوحة الأسلاك الكهربائية بأكملها في لحظة إلى كتلة مستطيلة صلبة من اللهب؛

انطلقت أقواس صفراء مزرقة مما بدا وكأنه برق وحاصرت العامل، صرخت الأبواق الإلكترونية بصوت عالٍ.. كا-واام! كا-واام!

سقطت كرة من النار بارتفاع ستة أقدام من الحائط، وألقت جيري بليدسو الميت جانبًا، وتدحرجت في الممر باتجاه الردهة، ثم انفجر الباب الأمامي الشفاف وتطايرت شظايا الزجاج والقطع الملتوية من إطاره تصاعد منها الدخان.

أسقطت لوريت تشانغ دراجتها وانطلقت مسرعة نحو الهاتف العمومي عبر الشارع، وبينما كانت تخبر إدارة الإطفاء بعنوان المبنى لاحظت أن دراجتها قد انقسمت إلى نصفين بدقة بالغة بفعل تلك القوة التي اخترقت الباب، وجثة جيري بليدسو المشوية مازلت تتأرجح ذهابًا وإيابًا أمام اللوحة المدمرة وآلاف الفولتات تتدفق عبر جسده الذي أخذ يهتز بنبضات منتظمة، متقطعة ذهابًا وإيابًا في سرعة ثابتة.

احترق شعر جسد عامل الصيانة ومعظم ملابسه، وتحول جلده إلى لون رمادي مبقع، استحالت نظارته، لكتلة بلاستيكية بنية متماسكة، غطت أنفه كضمادة.

جيري بليدسو.. من يتحكم في تلك التغيرات يا أبي؟

مشى جاك لمدة نصف ساعة دون أن يرى كوخًا صغيرًا آخر من الأكواخ القشية، تناثرت نجوم غير مألوفة بأنماط غير مألوفة في السماء فوقه وكأنها رسائل كُتبت بلغة لا يستطيع قراءتها.

الفصل الثاني عشر
جاك يذهب للسوق
1

نام تلك الليلة في كومة قشّ عطرة من «الأراضي»، فشقّ طريقه أولاً ثم استدار ليتمكن الهواء النقي من الوصول إليه عبر النفق الذي حفره.

مصغيًا بقلق إلى أصوات خافتة سمعها.. فلقد قرأ في مكان ما أن فئران الحقل تعشق أكوام القش، لو كانت تلك الفئران موجودة في كومة القش هذه، لكان فأر ضخم يُدعى جاك سوير قد أخافها وأسكنها.. استرخى قليلاً، ويده اليسرى تتحسس زجاجة سبيدي التي سدّ غطائها بقطعة من طحلب طري من جدول صغير توقف ليشرب منه، ظنّ أنه من المحتمل تماماً أن يسقط بعضًا منه لداخل الزجاجة، أو قد سقط بالفعل.. يا للأسف، سيفسد ذلك النكهة اللاذعة والرائحة العطرة الرقيقة.

بينما كان مستلقياً هناك، دافئًا أخيرًا، غارقًا في نعاس عميق، كان الشعور الذي غمره أكثر من أي شيء آخر هو الراحة... كما لو كان قد رُبط على ظهره اثنتي عشرة ثقلاً وزن كل منها عشرة أرطال، وأن روحاً طيبة فكت الأحزمة وتركتها تسقط على الأرض...

لقد عاد إلى الأراضي، المكان الذي أطلق عليه السحرة

مثل مورغان من أوريس، وأوزموند سوّاد الثور، وإلروي رجل الماعز المذهل، الأراضي، حيث كل شيء من الممكن أن يحدث.

لكن الأراضي يمكن أن تكون جيدة أيضاً.. تذكر ذلك منذ طفولته المبكرة، عندما عاش الجميع في كاليفورنيا ولم يعش أحدٌ في أي مكان آخر.

يمكن للأراضي أن تكون جيدة، وبدا أنه يشعر بهذا الخير من حوله الآن، بهدوء، وحلاوة لا جدال فيهما كرائحة كومة القش، وصفاء هواء الأراضي.

هل تشعر الذبابة أو الخنفساء بالراحة إذا هبت ريحٌ غير متوقعة وأمالت نبتة الإبريق بما يكفي للسماح للحشرة الغارقة بالطيران؟

لم يكن جاك يعلم... لكنه كان يعلم أنه خارج أوتلي، بعيدًا عن الأحاديث التافهة والشيوخ المشردون الذين يبكون على ما سُلب منهم، بعيدًا عن رائحة البيرة ورائحة القيء... والأهم من ذلك كله، أنه بعيد عن سموكي أبدايك وحانة أوتلي.

ظن أنه قد يرتحل داخل الأراضي لفترة، بعد كل شيء.

وبينما هو يفكر، غلبه النعاس.

2

كان قد سار ميلين، ربما ثلاثة أميال، على طول الطريق الغربي في صباح اليوم التالي، مستمتعًا بأشعة الشمس ورائحة الحقول الطيبة التي تكاد تكون جاهزة لحصاد نهاية الصيف، عندما توقفت عربة وتوقف مزارع شعير يرتدي ما يشبه رداءً قصيرًا وسروالاً خشنًا تحته،

صاح المزارع «هل أنت ذاهب إلى السوق يا فتى؟».

حدق جاك فيه، شبه مذعور، مدركًا أن الرجل لا يتحدث الإنجليزية.. ناهيك عن "أتوسل إليك" أو "هل تذهب وأربطة حذائك متقاطعة يا وغد؟"، فلم تكن إنجليزية على الإطلاق.

كانت هناك امرأة ترتدي فستانًا واسعًا تجلس بجانب مزارع الشعير؛ تحمل صبيًا في حجرها ربما في الثالثة من عمره، ابتسمت لجاك ابتسامة خفيفة، ثم نظرت لزوجها قائلة "إنه أحمق يا هنري."

إنهم لا يتحدثون الإنجليزية... ولكن مهما كان ما يتحدثون به، فأنا أفهمه.

أنا في الواقع أفكر الآن بهذه اللغة... وهذا ليس كل شيء فأنا أرى كل شيء وأفسره بها أو معها، أو أيًا كان ما أقصده..

أدرك جاك أنه كان يفعل ذلك أيضًا في آخر مرة كان فيها في الأراضي، لكنه في ذلك الوقت كان مرتبكًا جدًا بحيث لم يدرك

ذلك؛ لقد تحركت الأمور بسرعة كبيرة، وبدا كل شيء غريبًا.

انحنى المزارع إلى الأمام ثم ابتسم، كاشفًا عن أسنان بشعة للغاية، سأل، ليس بقسوة «هل أنت أحمق يا فتى؟»

رد «لا»، مبتسمًا بأقصى ما يستطيع، مدركًا أنه لم يقل لا، بل كلمة من الأراضي تعني لا وإنه عندما انقلب، تغيّر كلامه وطريقة تفكيره (طريقة تصوره، على أي حال.. لم تكن هذه الكلمة موجودة في قاموسه، لكنه فهم ما يعنيه تمامًا)،

تمامًا كما تبدلت ملابسه، "أنا لست بسيطًا.. فقط أمي أخبرتني أن أكون حذرًا من الناس الذين قد أقابلهم على طول الطريق"

ابتسمت زوجة المزارع، قالت «والدتك محقة.. هل أنت ذاهب إلى السوق؟»

رد جاك «نعم، أي أنني متجه إلى الطريق غربًا.»

قال هنري المزارع «اصعد إلى الخلف إذًا، لقد تلاشى ضوء النهار، أريد أن أبيع ما لدي إن استطعت والعودة إلى المنزل قبل غروب الشمس.. الذرة رديئة، لكنها نهاية الموسم من حسن حظي أن بقيت لدى ذرة لمدة تسعة أشهر، قد يشتريها أحد.»

قال جاك وهو يصعد إلى مؤخرة العربة المنخفضة «شكرًا لك».

هنا، كانت العشرات من سنابل الذرة مربوطة بحبال خشنة

ومكدسة مثل حطب. إذا كانت هذه الذرة رديئة، فلن يتخيل جاك ما شكل الذرة جيدة هنا فلقد كانت أكبر سنابل رآها في حياته، كانت هناك أيضًا أكوام صغيرة من الكوسا والقرع وأشياء تشبه القرع، لكنها كانت حمراء بدلًا من برتقالية.

لم يكن جاك يعرف ماهيتها، لكنه شك في أنها ستكون لذيذة، قرقرت معدته بشدة فمنذ أن بدأ رحلته، اكتشف معنى الجوع ليس كصديق عابر، أو شعورًا خفيفًا بعد المدرسة، يمكن إشباعه ببعض البسكويت وكوب من الحليب المضاف إليه مشروب كاكاو نستله «السريع"، بل كصديق حميم، يبتعد أحيانًا ولكنه نادرًا ما يغادره تمامًا.

كان جالسًا وظهره إلى مقدمة العربة، مرتديًا صندله في قدماه المتدليان، تكادان تلامسان تراب الطريق الغربي المتصلب.

كان هناك ازدحام مروري هذا الصباح، معظمه متجه إلى السوق، كما افترض جاك.. بين الحين والآخر، كان هنري يصيح ملقيًا التحية على أحد معارفه، جاك لا يزال يتساءل عن طعم ذلك القرع بلون التفاح.. ومصدر وجبته التالية على أي حال حتى تشابكت أيدٍ صغيرة في شعره وشدّته بقوة كافية لتدمع عيناه.

التفت فرأى الطفل ذو الثلاث سنوات واقفًا هناك حافي القدمين، بابتسامة عريضة على وجهه وبضع خصلات من شعر جاك في كل يد.

"جيسون!" صرخت والدته، لكنها كانت، على طريقتها، صرخة متسامحة (هل رأيت الطريقة التي شدّ بها شعره؟ يا إلهي، أليس قويًا!) «جيسون، هذا ليس لطيفًا!»

ابتسم جيسون، بلا خجل. كانت ابتسامة عريضة، غبية، مشرقة، حلوة كرائحة كومة القش التي قضى جاك ليلته فيها، لم يستطع إلا أن يردّها... وبينما لم تكن هناك أي حسابات سياسية في ابتسامته العائدة، أدرك أنه قد كوّن صداقة مع زوجة هنري.

"اجلس،" قال جيسون، وهو يتمايل جيئة وذهابًا بحركة لا إرادية كبحار مخضرم. وهو لا يزال يبتسم لجاك.

"هاه؟"

"يابَ."

"لن أفهمك يا جيسون."

"اجلس.. يابَ.»

"لستُ..."

ثم جلس جيسون، الذي كان أجشًا بالنسبة لطفل في الثالثة من عمره، في حضن جاك، ولا يزال يبتسم.

"اجلس.. يابَ، أوه، أجل، فهمت،» فكّر جاك، وهو يشعر بألم خفيف من خصيتيه ينتشر في جوف معدته.

"جيسون سيء!" نادته والدته بنفس الصوت المتسامح، لكن

أليس هو لطيفًا... وجيسون، الذي كان يعلم من يحكم المكان، ابتسم ابتسامةً ساذجةً رقيقةً ساحرة.

أدرك جاك أن جيسون كان مبللاً. مبللاً للغاية، بلا شك.

أهلاً بك من جديد في الأراضي يا جاكي.

جلس جاك هناك، والطفل بين ذراعيه، والرطوبة الدافئة تتخلل ملابسه ببطء، وبدأ يضحك، ناظرًا للسماء الزرقاء.

3

بعد دقائق، شقت زوجة هنري طريقها إلى حيث كان جاك جالسًا والطفل في حجره، وأعادت جيسون ثم قالت بصوتها المتسامح «يا له من طفل مبلل، يا له من طفل سيء!». «أليس طفلي جيسون كتلة كبيرة مشبعة بالماء؟» فكّر جاك، وضحك مجددًا.

أضحك ذلك جيسون، وضحكت السيدة هنري معهم.

وبينما غيّرت ملابس جيسون، سألت جاك عددًا من الأسئلة.. أسئلة سمعها كثيرًا في عالمه، لكن هنا عليه أن يكون حذرًا فإنه غريب، وقد تكون هناك مصائد خفية.

سمع والده يقول لمورغان «غريب حقيقي، لو أدركت ما أعنيه".

أحس جاك أن زوج المرأة كان يستمع باهتمام، أجاب على أسئلتها بتنويع دقيق للقصة، التي لم تكن تلك التي رواها عندما كان يتقدم لوظيفة، بل تلك التي رواها عندما أثار فضول شخص ما أوقفه بإبهامه على الطريق.

قال إنه جاء من قرية «أول هاندز» وحين سمعت والدة جيسون اسم المكان بدا وكأنها تذكرت شيء غامض، ولكن هذا ليس كل شيء.. هل وصل حقًا إلى تلك المسافة؟ أرادت أن تعرف، أخبرها جاك أنه وصل، وإلى أين كان ذاهبًا؟ أخبرها (وهنري الذي كان يستمع بصمت) أنه متجه إلى

قرية كاليفورنيا.. تلك القرية التي لم تسمع عنها، حتى بشكل غامض، في مثل هذه القصص التي يرويها البائع المتجول العرضي، لم يكن جاك مندهشًا تمامًا ... لكنه كان ممتنًا لأن أياً منهما لم يهتف «كاليفورنيا؟ من سمع عن قرية اسمها كاليفورنيا؟ من تحاول أن تسخر منه يا فتى؟» في الأقاليم، لا بد أن هناك الكثير من الأماكن بل ومناطق بأكملها وكذلك قرى لم يسمع بها الناس الذين يعيشون في مناطقهم الصغيرة من قبل حيث لا أعمدة إنارة ولا كهرباء ولا أفلام ولا تلفزيون كابلي ليخبرهم بمدى روعة الأشياء في ماليبو أو ساراسوتا، ولا توجد نسخة من «ما بيل» في الأقاليم، تُعلن أن تكلفة مكالمة مدتها ثلاث دقائق إلى البور الاستيطانية بعد الخامسة مساءً 5.83 دولارًا فقط، بالإضافة إلى الضريبة، وقد تكون الأسعار أعلى في "عشية عيد الشكر" وبعض الأعياد الأخرى. فكّر أنهم يعيشون في غموض. عندما تعيش في غموض، لا تُشكك في قرية لمجرد أنك لم تسمع بها من قبل. لا تبدو كاليفورنيا أكثر وحشية من مكان يُدعى "أول هاندز".

ولم يُشككوا أيضًا حين أخبرهم أن والده قد توفي في العام السابق، وأن والدته مريضة جدًا (فكّر في إضافة أن رجال استعادة الممتلكات التابعين للملكة قد جاؤوا في منتصف الليل وأخذوا حمارهم، فابتسم، وقرر أنه ربما يجب عليه حذف هذا الجزء)، أعطته والدته ما استطاعت من مال (إلا أن الكلمة التي خرجت من اللغة الغريبة لم تكن مالًا في الواقع.. بل كانت شيئًا مثل العصي) وأرسلته إلى قرية كاليفورنيا،

ليقيم مع عمته هيلين.

قالت السيدة هنري، وهي تحتضن جيسون، الذي تغير أكثر وهو بالقرب منها «هذه أوقات عصيبة».

"الخدمة الشاملة" قريبة من القصر الصيفي، أليس كذلك يا بني؟ كانت هذه أول مرة يتحدث فيها هنري منذ دعوة جاك للانضمام إلينا.

"أجل،" قال جاك. "هذا قريب جدًا، أعني..."

"لم تذكر أبدًا سبب وفاة والدك."

الآن أدار رأسه، وأصبحت نظراته ضيقة وتأملية، وقد اختفى لطفه السابق؛ لقد تلاشى من عينيه كشعلة شمعة في مهب الريح. نعم، ها هو الفخ قد نُصب له الآن.

"هل كان مريضًا؟" سألت السيدة هنري.. «هناك الكثير من الأمراض هذه الأيام.. الجدري، الطاعون.. أوقات عصيبة...»

للحظة جنونية، فكر جاك في أن يقول "لا، لم يكن مريضًا يا سيدتي هنري، لقد تلقى الكثير من الشحنات الكهربائية أوه يا والدي.» كما ترون، ذهب في يوم سبت للعمل، وترك السيدة جيري وجميع أفراد عائلة جيري الصغار بمن فيهم أنا في المنزل.

حدث ذلك عندما كنا نعيش جميعًا في حفرة في قاعدة المنزل ولم يكن أحد يسكن في أي مكان آخر، كما ترون.

وهل تعلمون ماذا حدث؟ غرز مفك براغيه في مجموعة من الأسلاك، وسمعت السيدة فيني، التي تعمل في منزل ريتشارد سلوت، العم مورغان يتحدث على الهاتف، وقال إن الكهرباء انقطعت، كل الكهرباء، وتسببت في احتراقه، حيث احترق بشدة لدرجة أن نظارته ذابت على أنفه، لكنكم لا تعرفون شيئًا عن النظارات لأنها غير موجودة هنا.. لا نظارات... لا كهرباء... لا أزرق ليلي... لا طائرات ولن ينتهي بكِ الأمر مثل السيدة جيري، يا سيدتي هنري. لا...

"لا بأس، هل كان مريضًا؟" قال المزارع ذو الشارب. "هل كان سياسيًا؟" نظر إليه جاك، كان فمه يعمل، لكن لم يخرج منه أي صوت.. لم يكن يدري ماذا يقول. كانت هناك الكثير من الفخاخ.

أومأ هنري، كما لو أنه علم الجواب «انزل يا فتى السوق فوق المرتفع التالي بقليل، أعتقد أنك تستطيع التسلق من هنا، أليس كذلك؟»

"أجل،" قال جاك.. "أعتقد أنني أستطيع."

بدا على السيدة هنري الحيرة... لكنها الآن تبعد جيسون عن جاك، كما لو كان مصابًا بمرض مُعدٍ.

ابتسم المزارع، وهو لا يزال ينظر من فوق كتفه، بحزن قليل.. «أنا آسف. تبدو فتىً لطيفًا جدًا، لكننا أناس بسطاء هنا، مهما كان ما يحدث هناك بجانب البحر فهو أمرٌ يقرره

اللوردات العظماء، سواء ماتت الملكة أم لا... وبالطبع، لا بد أن تموت يومًا ما... الله يدق كل مساميره عاجلًا أم آجلًا، وحين يتدخل الصغار في شؤون الكبار يتعرضون للأذى.

"أبي"

"لا أريد أن أعرف شيئًا عن والدك!" قالها هنري بحدة، ابتعدت زوجته عن جاك، وهي لا تزال تحتضن جيسون.

"رجل صالح أم شرير، لا أعرف ولا أريد أن أعرف.. كل ما أعرفه هو أنه ميت، لا أعتقد أنك كذبت بشأن ذلك، وأن ابنه ينام في العراء وتنتشر في كل مكان رائحة الفرار، الابن لا يتحدث كما لو أنه من سكان تلك المناطق. لذا انزل فلديّ ابن، كما ترى.»

نزل جاك، آسفًا على الخوف الذي ارتسم على وجه الشابة ذلك الخوف الذي زرعه هناك.

لقد كان المزارع محقًا.. لا يجب على الصغار التدخل في شؤون الكبار...

ليس إذا كانوا أذكياء.

الفصل الثالث عشر

رجال في السماء

1

لقد كانت صدمة بالنسبة إليه عندما وجد الأموال التي عمل بكد للحصول عليها قد تحولت لأعواد خشبية... بل إنها تشبه ثعابين لعبة صنعت بأيادٍ خرقاء، لكن الصدمة دامت فقط للحظة، وضحك على نفسه ملئ فوه... فالعصي هي الأموال.. نعم، فحينما انتقل إلى هنا تبدل كل شيء الدولار الفضي لعملات معدنية معدلة، والقميص إلى سترة، والإنجليزية إلى لغة الأقاليم، والعملة الأمريكية القديمة الصالحة إلى.. حسنًا أعواد خشبية.

لقد انقلب ومعه حوالي اثنين وعشرين دولارًا، وخمن أنه بات لديه نفس المبلغ بالضبط من أموال الأقاليم، على الرغم من أنه أحصى أربعة عشر مفصلًا على إحدى أعواد النقود وأكثر من عشرين على الأخرى.

لم تكن المشكلة في المال بقدر ما كانت في التكلفة حيث لم يكن لديه أدنى فكرة عما هو رخيص وما هو غالي، وبينما هو يتجول في السوق، شعر جاك أنه أحد متسابقي برنامج «السعر المناسب»، لكن إذا أخطأ هنا، فلن تكون هناك جائزة ترضية ولن يربت بوب باركر على ظهره؛

إذا أخطأ هنا، فقد... حسنًا، لم يكن يعرف على وجه اليقين

ما قد يفعلونه...

حتمًا سيطردونه، سيؤذونه، أو يعاملونه بعنف؟ ربما سيقتلونه؟ وربما لا، لكنه من المستحيل أن يجزم بردة فعلهم على وجه اليقين، فلقد كانوا أناسًا بسطاء، ليسوا من رجال السياسة وهو محض غريب.

تنقل جاك ببطء هنا وهناك على أطراف السوق المزدحم، في غمار صراعه مع المشكلة التي باتت ترتكز في معدته بإلحاح فلقد استبد به الجوع...

حتى رأى هنري، الذي كان يتفاوض مع بائع الماعز، والسيدة هنري بجواره وقد اتخذت خطوة للخلف، لترك مساحة لتفاوض الرجال، وقد ولت ظهرها لجاك حاملة بين ذراعيها جيسون أحد أطفال عائلة هنري كما ظن جاك، لكن جيسون رآه وأخذ يلوح له بكفه السمين، فابتعد جاك بسرعة حتى حال حشد كبير بينه وبين عائلة هنري.

انتشرت رائحة اللحم المشوي في كل مكان، وراح الباعة يقلبون ببطء شرائح صغيرة وكبيرة من اللحم البقري على الفحم، ومساعديهم يضعون شرائح مما يشبه لحوم الخنازير على الخبز منزلي الصنع ويأخذونها إلى المشترين، وكأنهم عدائين في مزاد، كان معظم المشترين مزارعين مثل هنري، ويبدو أنهم يطلبون الطعام أيضًا بالطريقة التي يدخل بها الناس في عطاء في مزاد حيث يرفعون إحدى أيديهم ببساطة آمرين، بأصابعهم الممدودة.

راقب جاك العديد من هذه المعاملات عن كثب، وفي كل حالة كانت وسيلة التبادل هي العصي المفصلة...

لكن كم عدد المفاصل التي ستكون كافية؟ تساءل.. ليس لأنه أمر ذي شأن بالنسبة إليه، لكن كان عليه أن يأكل، بلا اكتراث إذا ما بدى وقت التفاوض غريبًا أم لا.

مرّ بجانب عرض تمثيلي صامت، لكنه لم يلقِ عليه سوى نظرة خاطفة، على الرغم من أن الجمهور الكبير الذي تجمع هناك ومعظمه من النساء والأطفال.. كان يضحك ويصفق بحرارة.

توجه نحو كشك ذي جوانب قماشية، حيث كان رجل ضخم ذو وشم على عضلتي ذراعيه يقف على جانب خندق من الفحم المشتعل وسيخ حديدي طوله حوالي سبعة أقدام يمتد موازيا أعلى فوهة الفحم، وعند كل طرف وقف صبي قذر متعرق، كانت خمسة قطع كبيرة من اللحم المشوي المغروزة على طول السيخ، وكان الصبيان يدورانها في انسجام.

"لحوم فاخرة!" أخذ الرجل الضخم يردد بصوت رتيب.. "لحوم فاخرة! لحوم فاخرة! اشتروا لحومي الفاخرة! لحوم فاخرة هنا! لحوم فاخرة هنا!"

ثم قال للصبي الأقرب إليه "ابذل قصارى جهدك، بحق الله." وعاد إلى صياحه الرتيب.

رفع مزارع كان يمر مع ابنته المراهقة يده، ثم أشار في

طلب قطعة اللحم الثانية من اليسار، فتوقف الأولاد عن تدوير الشواية لفترة كافية حتى يتمكن رئيسهم من قطع شريحة من اللحم المشوي ووضعها على قطعة من الخبز، وركض أحدهم بها إلى المزارع، الذي أعطاه إحدى العصي المقسمة.

راقب جاك عن كثب، ورأى الرجل يكسر قطعتين من الخشب ويعطيهما للصبي. عندما ركض الصبي عائداً إلى الكشك، وضع الزبون عصا النقود في جيبه بسرعة وحذر، كأي رجل يعيد وضع الفكة في جيبه، وأخذ قضمه ضخمة من شطيرته المفتوحة، وناول الباقي لابنته، التي قضمت أول قضمه بحماس كوالدها.

تقلبت معدة جاك.. لقد رأى ما كان عليه أن يراه... على الأقل هذا ما كان يأمله.

"لحوم فاخرة! لحوم فاخرة! فاخرة..." توقف الرجل الضخم ونظر إلى جاك، وحاجباه المتقوسان يتقاربان فوق عينيه الصغيرتين اللتين لا تبدوان غبيتين تمامًا. "أسمع غناء معدتك يا صديقي.. إذا كان لديك مال، سأقبل ببيعك وأدعو الله أن يباركك في صلاتي الليلة، إن لم يكن لديك، فاخرج بوجهك الغبي من هنا واذهب إلى الجحيم."

ضحك الصبيان، على الرغم من إنهاكهما الواضح... ضحكا كما لو أنهما لا يستطيعان التحكم في الأصوات التي يصدرانها.

لكن الرائحة المجنونة للحم الذي ينضج ببطء لم تسمح له بالمغادرة.. مدّ عصاه الأقصر وأشار لقطعة اللحم المشوية الثانية على اليسار دون أن يتكلم.. بدا أنه من الأفضل ألا يتكلم.

أطلق البائع صوتًا غاضبًا، وأخرج سكينه البدائية من حزامه العريض مرة أخرى، وقطع الشريحة، لاحظ جاك أنها كانت أصغر من الشريحة التي قطعها للمزارع، لكن معدته لم تكن مهتمة بمثل هذه الأمور؛ كانت تقرقر بجنون ترقبًا.

وضع البائع اللحم على الخبز وأحضره بنفسه بدلاً من تسليمه لأي من الصبيين، أخذ عصا جاك التي تحتوي على النقود، بدلاً من أن يكسر قطعتين، كسر ثلاث قطع.

صوت أمه، المليء بالسخرية اللاذعة، تردد في ذهنه "تهانينا، جاك... لقد خُدعت للتو."

كان البائع ينظر إليه، مبتسماً بفم مليء بأسنان سوداء بائسة، متحدياً إياه أن يقول أي شيء، أو يحتج بأي شكل من الأشكال... (يجب أن تكون ممتنًا لأنني أخذت ثلاثة أصابع فقط بدلاً من الأربعة عشر كلها.. كان بإمكاني ذلك، كما تعلم.. قد يكون من الأفضل أن تعلق لافتة حول عنقك، أيها الصبي مكتوب عليها أنا غريب هنا، ووحيد. لذا أخبرني، يا وجه الخروف.. هل تريد افتعال مشكلة؟)

ما أراده لم يكن مهمًا... من الواضح أنه لن يستطع افتعال

مشكلة، لكنه شعر بذلك الغضب الخفيف والعقيم مرة أخرى.

قال البائع، متعبًا منه "اذهب". ولوّح بكفه الكبير في وجه جاك، كانت أصابعه مليئة بالندوب، وهناك دماء تحت أظافره.. "لقد حصلت على طعامك، الآن اخرج من هنا".

فكر جاك "يمكنني أن أريك مصباحًا يدويًا وستهرب كما لو أن شياطين الجحيم كلها تطاردك أو أريك طائرة وربما تصاب بالجنون.. أنت لست قويًا كما تعتقد يا صديقي."

ابتسم، ربما كان هناك شيء في ابتسامته لم يعجب بائع اللحوم، لأنه ابتعد عن جاك، وبدا على وجهه القلق للحظة، ثم ضم حاجباه مرة أخرى.

"اخرج، قلت لك!" صرخ.. "اخرج، لعنة الله عليك!" وهذه المرة ذهب جاك.

2

كان اللحم لذيذاً. التهمه جاك مع الخبز الذي كان موضوعاً عليه، ثم لعق دون وعي العصارة من راحة يده وهو يمشي.

كان طعم اللحم يشبه طعم لحم الخنزير... ولكنه لم يكن كذلك بل هو أكثر غنىً وحدةً من لحم الخنزير، مهما كان، فقد ملأ هوة الفراغ التي شعر بقوة داخله...

اعتقد جاك أن بإمكانه أخذ ذلك اللحم في حقيبة الغذاء وتناوله في المدرسة لمدة ألف عام...

الآن بعد أن تمكن من إسكات معدته ولو لفترة قصيرة على أي حال.. أصبح قادراً على النظر حوله باهتمام أكبر... وعلى الرغم من أنه لم يكن يدرك ذلك، إلا أنه بدأ أخيراً في الاندماج مع الحشد.

وقد صار مجرد شخص ريفي آخر جاء إلى سوق المدينة، يمشي ببطء بين الأكشاك، محاولًا أن يحدق في كل اتجاه في وقت واحد، تعرف عليه الباعة المتجولون، ولكن فقط كهدف محتمل آخر من بين العديد من الأهداف.

صرخوا مشيرين إليه، وعندما مرّ بجانبهم صرخوا وأشاروا إلى أي شخص كان خلفه... رجلًا أو امرأة أو طفلًا.

كان جاك يحدق بصدق في البضائع المنتشرة من حوله، البضائع الرائعة والغريبة على حد سواء، ووسط كل الآخرين

الذين يحدقون فيها، لم يعد يشعر بالغربة داخل نفسه... ربما لأنه تخلى عن محاولته أن يبدو غير مبالٍ في مكان لا يتصرف فيه أحد على أنه غير مبالٍ فهم يضحكون، ويتجادلون، ويتفاوضون... لكن لم يبدُ أحد منهم يشعر بالملل.

ذكرته بلدة السوق بجناح الملكة بدون جو التوتر الشديد والمرح المفرط...

نفس مزيج الروائح الغريبة (التي غلبت عليها رائحة اللحم المشوي وروث الحيوانات)، ونفس الحشود ذات الملابس الزاهية (على الرغم من أن أكثر الأشخاص الذين رآهم جاك ملابسهم زاهية لم يكن بإمكانهم مضاهاة أناقة بعض ممن رآهم داخل الجناح)، نفس التجاور المقلق ولكن المبهج إلى حد ما بين ما هو طبيعي تمامًا وما هو غريب للغاية.

توقف عند كشك كان فيه رجل يبيع سجادًا منسوجًا عليه صورة الملكة، تذكر جاك فجأة والدة هانك سكوفلر وابتسم.. هانك هو أحد الأطفال الذين كان جاك وريتشارد سلوت يتسكعون معهم في لوس أنجلوس، كانت السيدة سكوفلر تحب الزخارف الأكثر بهرجة التى رآها جاك فى حياته.. يا إلهي، كم كانت ستحب هذه السجاد، المطرزة بصورة لورا ديلوسيان، بشعرها المرفوع في تاج ملكي من الضفائر! أفضل من لوحاتها المخملية لغزلان ألاسكا أو الديوراما(22) الخزفية للعشاء الأخير خلف البار في غرفة معيشة سكوفلر..

ثم بدأ الوجه المطرز على السجاد يتغير أمام عينيه، اختفى وجه الملكة ورأى وجه والدته، يتكرر مرارًا وتكرارًا، عيناها الداكنتان جدًا، وبشرتها ناصعة البياض.

عصف الحنين إلى الوطن بقلب جاك مرة أخرى مندفعًا في ذهنه كموجة فنادى عليها في قلبه "أمي! يا أمي! يا إلهي، ماذا أفعل هنا؟ أمي!!" متسائلاً بشوق عاشق عما تفعله الآن، في هذه اللحظة بالذات.. "أجالسة عند النافذة، تدخن، تنظر إلى المحيط، وكتاب مفتوح بجانبها؟ أم تشاهد التلفزيون؟ ربما هي في السينما؟ وربما نائمة؟ أو.. تحتضر؟"

"ميتة؟" أضاف صوت شرير قبل أن يتمكن من إخماده.. "ميتة، جاك؟ ماتت بالفعل؟"

"توقف."

شعر بحرقة دموعه.

"لماذا أنت حزين يا صغيري؟"

نظر إلى الأعلى، مذهولًا، فرأى بائع السجاد ينظر إليه.. كان ضخمًا مثل بائع اللحوم، وذراعاه أيضًا موشومتان، لكن ابتسامته كانت صريحة ومشرقة، ولا تطوى أى خبث.. وهو فرق لو تعلمون عظيم.

"لا شيء"، رد جاك.

"إذا كان لا شيء يجعلك تبدو هكذا، فيجب أن تفكر في

شيء ما، يا بني".

"هل بدوت بهذا السوء؟" سأل جاك، وعلى ثغره ابتسامة ضيقة.. بلا وعي.. على الأقل في تلك اللحظة، وربما كان ذلك هو السبب في أن بائع السجاد لم يسمع أي شيء غريب أو غير متناغم في كلامه!

"يا فتى، لقد بدوت وكأن لم يبق لك سوى صديق واحد على هذا الوجه من القمر، وقد شاهدت للتو الذئب الأبيض المتوحش يخرج من الشمال ويلتهمه بملعقة فضية."

ابتسم جاك قليلاً، استدار بائع السجاد وأخذ شيئًا من عرض أصغر على يمين السجادة الأكبر، كان بيضاويًا وله مقبض قصير، عندما قلبه، انعكست أشعة الشمس عليه... كانت مرآة، بدت لجاك صغيرة ورخيصة كنوعية الأغراض التي ستحصل عليها مقابل إسقاط ثلاث زجاجات حليب خشبية فى لعبة كرنفال.

قال بائع السجاد "تفضل يا فتى. انظر فيها وتأكد من أنني لست مخطئًا."

نظر جاك في المرآة وفتح فمه من الدهشة، لوهلة من الذهول لدرجة أنه ظن أن قلبه قد غفل أن ينبض!

كان هو، لكنه بدا كشخصية من جزيرة المتعة في نسخة ديزني من بينوكيو، حيث حولت كرة لعب البلياردو وتدخين السيجار الأولاد إلى حمير.. عيناه، اللتان عادة ما تكونان

زرقاوين ومستديرتين كما يليق بأصوله الأنجلوساكسونيه، أصبحتا بنيتين ولوزيتين أما شعره، فصار خشن متشابك يتدلى لجبهته، بات مظهره رجولي واضح، رفع يده ليزيحه عن جبهته، فشعر بملمس جلده العاري، في المرآة، بدت أصابعه وكأنها تختفي خلف الشعر... سمع البائع يضحك، مسرورًا، والأكثر إثارة للدهشة من ذلك كله، كانت أذنان طويلتان تتدليان إلى ما دون خط فكيه، وبينما كان يحدق، ارتعشت إحداهما.

فجأة خطر له.. "كانت لدي واحدة من هذه!"

"أو ما يشبه ذلك.. في أحلام اليقظة بل كان لدي واحد من هذه في العالم العادي كان... كان..."

لم يكن عمره قد تجاوز الأربع سنوات في العالم العادي (كان قد توقف عن التفكير فيه على أنه العالم الحقيقي دون أن يلاحظ ذلك) كانت عبارة عن كرة زجاجية كبيرة ذات مركز وردي، ذات يوم، بينما كان يلعب بها، تدحرجت على الطريق الأسمنتي أمام منزلهم، وقبل أن يتمكن من الإمساك بها، سقطت في فتحة المجاري وضاعت إلى الأبد، كما اعتقد حينها، وهو جالس على الرصيف متكئًا بوجهه على يديه المتسختين ويبكي.. لكنها لم تختفِ؛ ها هي تلك اللعبة القديمة التي أعيد اكتشافها، وهي الآن رائعة كما كانت عندما كان في الثالثة أو الرابعة من عمره.. ابتسم ابتسامة عريضة، مسرورًا، تغيرت الصورة واستحال جاك الحمار لجاك القط،

بوجهه الحكيم المتكتم باستمتاع، تحولت عيناه من اللون البني الحماري إلى اللون الأخضر القططي، الآن، أصبحت الأذنان الصغيرتان الرماديتان منتصبتان بانتباه بدلاً من الأدنان الحماريتان المتدليتان.

"أفضل؟»، سأل البائع.. "أفضل؟، يا بني.. أحب أن أرى صبيًا سعيدًا فالصبي السعيد هو صبي يتمتع بصحة جيدة، والصبي المتمتع بصحة جيدة يشق طريقه في العالم.. كتاب الزراعة الجيدة يقول ذلك، وإذا لم يقله، فيجب أن يقوله.. قد أكتبه في نسختي، إذا جمعت ما يكفي من المال من حقل اليقطين الخاص بي لشراء نسخة يومًا ما، هل تريد الزجاج؟"

"نعم!" صرخ جاك. "نعم، رائع!" بحث عن عصيه متناسيًا حاجته للإدخار "كم ثمنها؟"

عبس البائع ونظر حوله بسرعة ليرى إن كان هناك من يراقبهم.. "ضعهم بعيدًا يا بني. ضعهم في مكان عميق، هكذا.. فإذا أظهرت نقودك، من المحتمل أن تخسر كل شيء فهناك الكثير من اللصوص داخل السوق."

"ماذا؟"

"لا تهتم، لا تقلق.. خذها فنصفها يتكسر في مؤخرة عربتي عندما أسحبها إلى متجري على مسافة عشرة أشهر، الأمهات يجلبن أطفالهن الصغار ويجربونها لكنهم لا يشترونها."

"حسنًا، على الأقل أنت معترف بذلك،" قال جاك.

نظر البائع إليه بدهشة ثم انفجرا ضاحكين.

"فتى سعيد وله لسان سليط" قال البائع.. "تعال لرؤيتي عندما تكبر وتصبح أكثر جرأة يا بني، سنأخذ لسانك ونذهب جنوبًا ونضاعف ما نبيعه ثلاث مرات."

ضحك جاك. كان هذا الرجل أفضل من ألبوم راب لفرقة شوجر هيل جانج.(23)

"شكرًا" قال (ظهرت ابتسامة عريضة غير متوقعة على شفاه القطة في المرآة). "شكرًا جزيلاً!"

"اشكر الله"، قال البائع... ثم أضاف بعد تفكير.. "وحاذر على نقودك!"

مضى جاك في طريقه، واضعًا المرآة بعناية في سترته، بجانب زجاجة سبيدي.

وكان يتفقدها كل بضع دقائق للتأكد من أن عصيّه لا تزال في مكانها.

معتقدًا أنه يستطيع مغادرة المكان بسرعة، وقتما شاء.

3

على بعد كشكين من كشك بائع السجاد، كان هناك رجل ذو مظهر فاسد، يضع رقعة على عينه، تحيط به رائحة المشروبات الكحولية القوية، يحاول بيع ديك كبير لمزارع، ويخبره إنه إذا اشترى هذا الديك ووضعه مع دجاجاته، فلن يحصل المزارع إلا على بيض مزدوج الصفار خلال الاثني عشر شهراً القادمة.

لكن جاك لم يكن مهتمًا بالديك ولا بخطاب البائع، انضم إلى حشد من الأطفال الذين كانوا يحدقون في جاذبية للرجل الأعور، وهذا ببغاء في القفص الخوص الكبير، كان الببغاء تقريبًا في مثل طول أصغر الأطفال في المجموعة، ولونه أخضر داكن ناعم مثل زجاجة بيرة هاينكن، عيناه ذهبيتين لامعتين... عيناه الأربع!

ومثل المُهر الذي رآه في إسطبلات الجناح، كان للببغاء رأسان وقف ممسكًا بجذعه على قدميه الصفراوين الكبيرتين ينظر بهدوء في اتجاهين مختلفين في وقت واحد، ويكاد تاجاه المزغبان أن يتلامسا.

كان الببغاء يتحدث إلى نفسه، مما أضحك الأطفال، لكن جاك لاحظ، رغم دهشته، أنهم رغم اهتمامهم الشديد بالببغاء، لم يبدوا مندهشين أو حتى متعجبين، لم يكونوا مثل الأطفال الذين يشاهدون فيلمهم الأول، جالسين مذهولين في

مقاعدهم وعيونهم مفتوحة على مصراعيها؛ بل كانوا أشبه بأطفال يشاهدون رسومهم المتحركة المعتادة صباح يوم السبت، هي مدهشة، نعم، ولكنها ليست جديدة تمامًا، ومن ذا الذي يمل من العجائب أسرع من الصغار؟

"بورك! ما مدى ارتفاع السماء؟" سأل الرأس الشرقي.

"منخفضة للغاية"، أجاب الرأس الغربي، وضحك الأطفال.

"غراك! ما هي الحقيقة العظيمة للنبلاء؟" سأل الرأس الشرقي الآن.

"أن الملك يبقى ملكًا طوال حياته، ولكن موقف واحد كفيل بأن يجعل أي رجلاً فارسًا!" أجاب الرأس الغربي بخفة، ابتسم جاك وضحك العديد من الأطفال الأكبر سنًا، ولكن الأطفال الأصغر سنًا بدوا في حيرة...

"وماذا يوجد في خزانة السيدة سبرات؟" الآن يسأل الرأس الشرقي.

"منظر لا يجب أن يراه أحد!" رد الرأس الغربي، وعلى الرغم من أن جاك كان في حيرة من أمره، إلا أن الأطفال انفجروا في ضحك هستيري.

رفع الببغاء مخالبه بجدية من فوق عصاه وألقى بفضلاته على القش تحتها.

"وما الذي أخاف آلان ديستري حتى الموت في الليل؟"

"لقد رأى زوجته... غررررا ... خارجة من الحمام!"

ها هو المزارع يبتعد الآن، ومازال الديك مع البائع الأعور الذي استدار غاضباً نحو الأطفال.. "ابتعدوا من هنا! ابتعدوا من هنا قبل أن أركل مؤخراتكم!"

تفرق الأطفال، ذهب جاك معهم، ملقياً نظرة حائرة أخيرة من فوق كتفه على البيغاء الرائع.

4

في كشك آخر، أعطى قطعتين من الخشب مقابل تفاحة ومغرفة من الحليب.

أحلى وأغنى حليب تذوقه في حياته.. فكر جاك أنه لو كان لديهم حليب مثل هذا في بلاده، لأفلست نستله وهيرشي في غضون أسبوع.

كان قد انتهى لتوه من شرب الحليب عندما رأى عائلة هنري يسيرون ببطء ناحيته.. أعاد الكوب إلى المرأة في الكشك، التي سكبت بقايا الحليب باعتدال في البرميل الخشبي الكبير بجانبها، سارع جاك إلى الذهاب، وهو يمسح شاربه من آثار الحليب على شفته العليا، آملاً بقلق ألا يكون أي شخص شرب من الكوب قبله مصابًا بالجذام أو الهربس أو أي شيء من هذا القبيل.. رغم عدم اعتقاده بوجود مثل تلك الأشياء الفظيعة هنا.

سار في الشارع الرئيسي للسوق، مروراً بالممثلين الصامتين، ومروراً بامرأتين بدينتين تبيعان الأواني والمقالي (توبروير الأراضي، فكر جاك وابتسم)، مروراً ببغاء رائع ذو رأسين (كان مالكه الأعور يشرب الآن علانية من زجاجة فخارية، يترنح بجنون من طرف كشكه إلى الطرف الآخر، ممسكاً بالديك ذي المظهر المذهول من رقبته ويصرخ بتهور على المارة، رأى جاك أن ذراع الرجل الأيمن النحيل مغطى بروث

طيور أبيض مائل إلى الصفرة، فعبس).

توقف هناك للحظة بفضول، فوجد العديد من المزارعين يدخنون غليونات من الفخار، ورأى جاك عدة زجاجات من الفخار، تشبه إلى حد كبير تلك التي كان يهزها بائع الطيور، تنتقل من يد إلى يد. في حقل طويل مغطى بالعشب، كان الرجال يربطون الحجارة خلف خيول كبيرة ذات شعر أشعث، رؤوسها منخفضة وعيونها لطيفة وغبية.

مر جاك بمحل بيع السجاد. رآه البائع فرفع يده محيًا، رفع جاك يده بدوره وفكر أن يقول "استخدمها يا رجل، لكن لا تسيء استخدامها!" لكنه قرر أن من الأفضل ألا يفعل ذلك.. أدرك فجأة أنه يشعر بالكآبة.. ذلك الشعور بالغرابة، وبأنه غريب، قد غمره من جديد.

وصل إلى مفترق طرق.. طريق يؤدي إلى الشمال والجنوب لكنه مجرد طريق ريفي، وطريق آخر غربي أكثر اتساعًا.

"جاك المسافر العجوز"، فكر، وحاول أن يبتسم.. استقام بكتفيه وسمع صوت زجاجة سبيدي تقرع بخفة على المرآة، ها هو جاك المسافر العجوز يسير على طول الطريق السريع 90 في الأراضي، راجيًا ألا تخذله أقدامه الآن!

انطلق مرة أخرى، وسرعان ما ابتلعته تلك الأرض العظيمة الحالمة.

5

بعد حوالي أربع ساعات من المضي، في منتصف الظهيرة، جلس جاك في العشب الطويل على جانب الطريق وراقب عددًا من الرجال الذين بدوا من هذه المسافة أكبر قليلاً من الحشرات... يتسلقون برجًا طويلًا يبدو متداعيًا، كان قد اختار هذا المكان للراحة وتناول تفاحته لأنه المكان الأقرب في الطريق الغربي لذلك البرج.

كان البرج لا يزال على بعد ثلاثة أميال على الأقل (وربما أكثر من ذلك بكثير فشفافية الهواء الغير معتادة جعلت من الصعب للغاية تقدير المسافات)، لكنه في تقدير مرمى بصر جاك على مسافة ساعة أو أكثر.

أكل جاك تفاحته، وأراح قدميه المتعبتين، متسائلاً عن ماهية ذلك البرج، الشامخ هناك بمفرده وسط الحقل العشبي مترامي الأطراف، وبالطبع، تساءل أيضًا عن سبب تسلق هؤلاء الرجال له، راحت الرياح تهب بثبات منذ أن غادر السوق، وكان البرج في اتجاه الريح بالنسبة لجاك، ولكن كلما خفت الرياح لمدة دقيقة، سمعهم جاك ينادون بعضهم البعض... ويضحكون.. يضحكون كثيرًا.

على بعد حوالي خمسة أميال غرب السوق، مر جاك بقرية! إذا كان تعريفك للقرية يشمل خمسة منازل صغيرة ومتجر واحد من الواضح أنه مغلق منذ فترة طويلة.. كانت تلك

آخر مساكن بشرية رآها منذ ذلك الحين وحتى الآن، قبل أن يلمح البرج، تساءل عما إذا كان قد وصل بالفعل إلى المواقع الأمامية دون أن يدري.

كان يتذكر جيدًا ما قاله القائد فارين.. "وراء المواقع الأمامية، الطريق الغربي لا يؤدي إلى أي مكان... أو يؤدي إلى الجحيم لقد سمعت أن الخالق نفسه لا يجرؤ على تجاوز المواقع الأمامية..."

ارتجف جاك قليلاً.

لكنه لم يصدق حقًا أنه قد بلغ هذا الحد. بالتأكيد لا شيء يدعو إلى القلق المتزايد الذي كان يشعر به قبل أن يتعثر في الأشجار الحية في محاولته الهروب من عربة مورغان... الأشجار الحية التي بدت الآن وكأنها مقدمة بشعة لكل الوقت الذي قضاه في أوتلي.

في الواقع، عادت المشاعر الطيبة التي شعر بها منذ أن استيقظ دافئًا ومستريحًا داخل كومة القش حتى الوقت الذي دعاه فيه المزارع هنري إلى القفز من عربته.. ذلك الشعور بأن الأراضي، على الرغم من كل الشرور التي قد تسكنها، كانت جيدة في الأساس، وأنه يمكنه أن يكون جزءًا من هذا المكان في أي وقت يريد... وأنه ليس غريبًا على الإطلاق.

لقد أدرك أنه كان جزءًا من الأراضي لفترات طويلة.. خطر له فكرة غريبة وهو يتنقل بسهولة على طول الطريق الغربي،

فكرة جاءت نصفها باللغة الإنجليزية ونصفها باللغة التي تتحدثها الأراضي.. "عندما أكون في حلم، فإن الوقت الوحيد الذي سأدرك فيه أنني أحلم هو عندما أبدأ في الاستيقاظ، إذا كنت أحلم واستيقظت فجأة... على رنين المنبه أو شيء من هذا القبيل... فسأعتبر نفسي أكثر شخص مندهش على قيد الحياة.. في البداية، سيبدو الاستيقاظ وكأنه حلم.. لأني لست غريبًا عن عمق هذا الحلم.. هل عمدت ذلك؟ لا، لكنه ذلك القرب.. أراهن أن والدي تعمق كثيرًا في أحلامه.. وأن العم مورغان لم يحلم أبدًا.

قرر أنه سيشرب جرعة من زجاجة سبيدي ويعود أدراجه بمجرد أن يرى أي شيء قد يشكل خطراً... أو حتى أي شيء مخيف، وإلا فسيكمل طريق عودته لنيويورك من هنا، في الواقع، ربما أغراه قضاء الليلة في الأراضي، لو كان يملك أي شيء يأكله غير تلك التفاحة الوحيدة، لكنه لا يملك غيرها، وعلى طول الطريق الترابي الواسع والمهجور في ويسترن رود، لم يجد متجر "سفن إليفن»(24) أو متجر "ستوب آند جو" فلم يرى في الأفق سوى الأشجار القديمة التي أحاطت بمفترق الطرق وسوق البلدة مفسحة المجال للمروج المفتوحة على جانبي الطريق، بمجرد أن تجاوز جاك آخر مستوطنة صغيرة بدأ يشعر أنه يسير على جسر لا نهاية له، ومحاصر في قلب محيط لا حدود له...

سافر على الطريق الغربي وحده ذلك اليوم تحت سماء

مشرقة ومشمسة ولكنها باردة (نهاية سبتمبر الآن، بالطبع الجو بارد، فكر، إلا أن الكلمة التي خطر بباله لم تكن سبتمبر بل كلمة من لغة الأقاليم التي تترجم بشكل أفضل إلى تسعة أشهر)، لم يمر به أي مشاة، ولا عربات محملة أو فارغة.. فق الرياح التي تهب بثبات، تئن عبر محيط العشب بصوت هامس يعكس وحشة الخريف، تموجات كبيرة تجتاح العشب أمام تلك الريح.

لو سئل "كيف تشعر يا جاك؟"، لأجاب الصبي "بخير، شكرًا.. مبتهج"، مبتهج هي الكلمة التي كانت ستخطر على باله وهو يسير عبر تلك المروج الخالية؛

أما كلمة "نشوة" فهي الكلمة التي كان يربطها بسهولة بأغنية البوب الشهيرة التي تحمل نفس الاسم للفرقة الروك بلوندي، وربما أصابته الدهشة لو قيل له إنه بكى عدة مرات وهو يقف يشاهد تلك التموجات الكبيرة المتلاحقة عبر الأفق، مستمتعاً بمشهد لم يره سوى قلة قليلة من الأطفال الأمريكيين في عصره... مساحات شاسعة من الأرض تحت سماء زرقاء ذات عرض واتساع وعمق مذهلين، سماءً خالية من آثار الطائرات النفاثة عبر قبة السماء أو من خطوط الضباب الدخاني القذرة على أي من حوافها السفلية.

كان جاك يمر بتجربة ذات تأثير حسي رائع، حيث كان يرى ويسمع ويشم أشياء جديدة تمامًا بالنسبة له، بينما غابت المدخلات الحسية الأخرى التي اعتاد عليها تمامًا لأول مرة.

كان طفلاً متطورًا بشكل ملحوظ من نواحٍ عديدة... فقد نشأ وسط عائلة في لوس أنجلوس حيث عمل والده وكيلًا وأمه ممثلة سينمائية، ومن الغريب أن يكون ساذجًا، لكنه لم يزل مجرد طفل، متطورًا أم لا، وهذا بلا شك مكسبًا له... على الأقل في موقف مثل هذا...

من المؤكد أن رحلة ذلك اليوم الوحيد عبر المروج كانت ستؤدي إلى إرهاق حسي، وربما حتى شعور حاد بالجنون والهلوسة، لدى شخص بالغ... كان الشخص البالغ سيبحث عن زجاجة سبيدي بأصابع ترتجف بشدة بحيث لا يستطيع الإمساك بها بنجاح بعد أن يبتعد ساعة غرب المدينة السوقية، أو ربما أقل.

في حالة جاك، انسابت الضربة بشكل شبه كامل عبر عقله الواعي إلى عقله الباطن. لذلك عندما انغمس في النعيم تمامًا وبدأ في البكاء، لم يكن مدركًا للدموع (باستثناء ازدواج مؤقت في الرؤية نسبه إلى العرق) وفكر فقط.. "يا إلهي، أشعر بالراحة... من المفترض أن أشعر بالخوف هنا دون وجود أحد حولي، لكنني لا أشعر بذلك."

هكذا اعتبر جاك نشوته مجرد شعور جيد ومبهج وهو يسير وحده على الطريق الغربي وظلّه يمتد تدريجيًا خلفه.. لم يخطر بباله أن جزءًا من إشراقه العاطفي قد ينبع من حقيقة أنه قبل أقل من اثنتي عشرة ساعة كان سجينًا في حانة أبديك في أوتلي (وبخور الدم من آخر برميل سقط على

أصابعه لا تزال حديثة)؛ أنه قبل أقل من اثنتي عشرة ساعة هرب.. بالكاد! من نوع من الوحوش القاتلة التي بدأ يعتقد أنها ماعز متحول؛

وأنه لأول مرة في حياته يمشي على طريق واسع ومفتوح خالٍ تمامًا إلا منه؛

حيث لا توجد لافتات كوكا كولا في أي مكان، أو لوحة إعلانية بودويزر تظهر خيول كلايدسديلز المشهورة عالمياً؛ لم تكن هناك أسلاك كهربائية منتشرة على جانبي الطريق أو متقاطعة فوقه، كما كان الحال في كل الطرق التي سافر عليها جاك سوير طوال حياته؛ لم يكن هناك حتى صوت طائرة بعيدة، ناهيك عن صوت الرعد الصادر عن طائرات 747 وهي تقترب من مطار لوس أنجلوس الدولي، أو طائرات F-111 التي كانت تنطلق دائمًا من قاعدة بورتسموث البحرية الجوية ثم تخترق الهواء فوق قصر الحمراء مثل سوط أوزموند وهي تتجه نحو المحيط الأطلسي؛ لم يكن هناك سوى صوت خطواته على الطريق وصوت تنفسه المنتظم.

يا إلهي، أشعر أنني بخير، فكر جاك وهو يمسح عينيه دون انتباه، ووصف كل ذلك بأنه "مبهج".

6

الآن صار أمام هذا البرج الذي يمكن النظر إليه والتساؤل عنه.

"يا فتى، لن تجبرني على صعود هذا الشيء أبدًا،" فكر جاك.. وقد لاك التفاحة حتى وصل إلى قلبها، ودون أن يفكر فيما يفعل أو حتى يزيح عينيه عن البرج، حفر حفرة في الأرض الصلبة والمرنة بأصابعه ودفن قلب التفاحة فيها.

بدا البرج وكأنه مصنوع من ألواح الحظيرة، وظن جاك أن ارتفاعه لا يقل عن خمسمائة قدم حيث بدا وكأنه مربع كبير مجوف، والألواح ترتفع من جميع الجوانب بشكلٍ متقاطع، وصولاً للمنصة في الأعلى، ورأى جاك، وهو يحدق بعينيه، عددًا من الرجال يتجولون هناك.

دفعته الرياح بنفحة لطيفة وهو جالس على جانب الطريق، يضم ركبتيه إلى صدره ويحيطهما بذراعيه، ثم اندفعت موجة أخرى من تلك الموجات العشبية في اتجاه البرج.. تخيل جاك كيف أن ذلك الشيء المتهالك حتمًا سيتأرجح وانقلبت معدته.

"لا تضعني هناك أبدًا"، فكر، "ولا مقابل مليون دولار."

ثم حدث ما كان يخشى حدوثه منذ اللحظة التي لاحظ فيها وجود رجال على البرج... سقط أحدهم.

نهض جاك على قدميه بوجه ذاهل وفم مفتوح وهو ما يبدوا عليه وجه أي شخص حضر عرض سيرك حيث فشلت حيلة خطيرة كالبهلوان الذي يسقط بشكل سيئ ويستلقي وسط كومة من الأغراض، أو البهلوانية التي تنزلق قبضتها ويرتد جسدها عن الشبكة بضجة، أو الهرم البشري الذي ينهار بشكل غير متوقع، وتنسكب الجسد متكومة.

اللعنة، يا إلهي، يا...

اتسعت عينا جاك فجأة، لبرهة، انخفض فكيه أكثر حتى كادا يلامسان عظم صدره، ثم ارتفعا وابتسمت شفتاه بابتسامة مذهولة غير مصدق!

لم يسقط الرجل من البرج، ولم تحمله الرياح...

كانت هناك نتوءات تشبه اللسان على جانبي المنصة تشبه ألواح القفز وقد مشى الرجل ببساطة إلى نهاية إحداها وقفز منها لمنتصف الطريق حيث بدأ شيء ما في الانفتاح.. مظلة، كما اعتقد جاك، لكن لا يوجد وقت كافٍ ليُفتح.

إلا إنها لم تكن مظلة.

بل أجنحة!

طفى الرجل ببطء حتى توقف تمامًا عند ارتفاع حوالي خمسين قدمًا فوق العشب الطويل. ثم أعاد الكرّه وها هو الآن يطير صعودًا وهبوطًا، محلّقًا بأجنحته عاليًا لدرجة أنها كادت تلامس بعضها البعض مثل غُرفيّ رأس الطائر هيني

يونغمان(25) ثم اندفع بهما مرة أخرى إلى الأسفل بقوة هائلة، فأصبحا كذراعي سباح في نهائيات مسابقة السرعة.

"يا للروعة"، فكر جاك، الذي عاد إلى أقدم كليشيه(26) يعرفه بسبب دهشته الشديدة... وأخذ يردد داخل نفسه "ما يحدث فاق كل شيء؛ مثيرًا للغاية.. يا للروعة، انظروا إلى ذلك، يا للروعة."

الآن قفز رجل ثانٍ من منصة القفز أعلى البرج؛ الآن ثالث؛ الآن رابع، في أقل من خمس دقائق، كان هناك ما لا يقل عن خمسين رجلاً في الهواء، يحلقون في أنماط معقدة رغم الوضوح.. حيث يقفزون من البرج، يرسمون شكل ثمانية في الهواء، يعودون فوق البرج ثم يخرجون إلى الجانب الآخر، يرسمون شكل ثمانية آخر، يعودون إلى البرج، يهبطون على المنصة، ويكررون كل ذلك مرة أخرى.

راحوا يدورون ويرقصون مخترقين الهواء...

بدأ جاك يضحك بفرح، فالأمر أشبه بمشاهدة الباليه المائي في أفلام إستر ويليامز القديمة المبتذلة، كانوا هم السباحون، وإستر ويليامز قامت بدورها الخاص، وجعلت الأمر يبدو غاية في السهولة، كما لو كان بإمكانك أنت نفسك الغطس والدوران بتلك الطريقة، أو كما لو كان بإمكانك أنت وبعض أصدقائك القفز بسهولة من فوق المنصة في رقصة منسقة، صانعين ما يشبه النافورة البشرية.

لكن هناك فرق... فالرجال الذين يطيرون هناك لم يعطوا هذا الإحساس بالسهولة؛ بدا أنهم يبذلون قدرًا هائلاً من الطاقة للبقاء في الهواء، وشعر جاك فجأة بيقين أن ذلك مؤلم، مثل بعض تمارين الجمباز في التربية البدنية، كرفع الساقين، تمرينات البطن.. "لا ألم، لا مكسب!" كان المدرب يصرخ إذا تجرأ أحدهم على الشكوى.

والآن خطر له شيء آخر.. المره التي صحبته فيها والدته لرؤية صديقتها ميرنا، التي كانت راقصة باليه حقيقية، تتدرب في دور علوي لاستوديو رقص في شارع ويلشاير السفلي، كانت ميرنا عضوة في فرقة باليه، وقد شاهدها جاك تؤدي عروضها مع الراقصين الآخرين، ذهب مجبرًا رفقة والدته في أغلب الأوقات، وقد شعر بالملل غالبية الأوقات، فالأمر بالنسبة له مثل الذهاب إلى الكنيسة أو مشاهدة برنامج صباحي على التلفزيون، لكنه لم يكن قد سبق له مشاهدة ميرنا وهي تتدرب... لم يسبق له أن شاهدها عن قرب، انتابه مزيج من التأثر والشتات في معترك التباين بين مشاهدة الباليه على المسرح، حيث يبدو أن الجميع ينزلقون أو يتحركون بخفة على أطراف أصابعهم، ومشاهدته من مسافة أقل من خمسة أقدام، في ضوء النهار القاسي الذي يتدفق من النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف وبدون موسيقى، فقط صراخ مصمم الرقصات الذي يصفق بيديه بشكل إيقاعي وينتقدهم بقسوة... حيث لا مكان للمديح، فقط نقد.

كانت وجوههم تتصبب عرقًا، ملابسهم الرياضية مبللة بالعرق، الغرفة.. على الرغم من اتساعها ومساحتها، تفوح منها رائحة العرق، ارتجفت عضلاتهم المصقولة وتهاوت على حافة الإرهاق العصبي، برزت أوتارهم المربوطة كأسلاك معزولة، وثارت عروقهم على الجباه والأعناق، باستثناء تصفيق مصمم الرقصات وصيحاته الغاضبة والمهينة، لم تكن هناك أي أصوات سوى أنين حركة راقصي الباليه على أطراف أصابعهم ولهاثهم القاسي المؤلم لالتقاط أنفاسهم.

أدرك جاك فجأة أن هؤلاء الراقصين لم يحاولوا كسب عيشهم فحسب؛ بل بذلوا أنفسهم من أجل ذلك، أكثر ما تذكره هو تعبيراتهم.. كل ذلك التركيز المنهك، كل ذلك الألم... لكنه تخطى الألم، أو على الأقل زحف حول حوافه، ورأى الفرح، على الفرح نظراتهم بلا شك، مما أخاف جاك لأنه بدا كأمر غير قابل للتفسير...

أيْ نوعٍ من البشر يُمكن أن ينجو من هذا الألم المُستمرّ، النابض، المُبرّح؟

والألم الذي كان يراه هنا، فكّر... "هل هم رجالًا مُجنّحين بالفعل، مثل رجال الطيور في مسلسلات فلاش غوردون القديمة، أم أن الأجنحة أقرب إلى نوع من الطموح المفرط أو المجازفة غير الحكيمة كقصة إيكاروس وديدالوس؟" اكتشف جاك أن الأمر لا يُهمّ حقًا... على الأقل، ليس بالنسبة له.

إنها تلك السعادة.

هؤلاء الناس يعيشون في لغز.. نعم فحياتهم أُحجية وسعادتهم هي الدليل

بل كل ما يهم هو الفرح الذي يأخذ بأياديهم، سواءً نمت الأجنحة من ظهورهم أو كانت مُثبّتة بطريقةٍ ما بأبازيم ومشابك... لأن ما رآه، من تلك المسافة، هو نفس نوع الجهد الذي تجلى في أعلى عقار على الكوكب بشارع ويلشاير بنيويورك، كل ذلك الاستثمار وإهدار الطاقة لإحداث انقلابٍ رائعٍ ولحظيٍ على القانون الطبيعي... إن حقيقة أن مثل هذا الانقلاب يتطلب الكثير ويستمر لفترة قصيرة كانت أمراً فظيعاً؛ وفكرة أن الناس يتقبلونه في جميع الأحوال لهي أمر رهيب ورائع في ذات الوقت.

"إنها مجرد لعبة،" فكّر، وفجأة تأكد من ذلك... "إنها لعبة، أو ربما لا، ربما هو مجرد تمرين على اللعبة، كما أن كل العرق والإرهاق والتوتر في شقة ويلشاير ذلك اليوم كانا مجرد تمرين... تمرين لعرض لن يحضره إلا قلة من الناس، وسينتهي على الأرجح بسرعة."

"ياللفرح"، فكّر مجددًا، وهو يقف الآن، ووجهه مرفوع لينظر إلى الرجال المحلقين بعيدًا، والريح أسدلت شعره فوق جبينه...

لمحة من البراءة اقتربت نهايتها... (وحتى جاك، لو ضُغط عليه، لوافق على مضض بأنه يشعر بدنو النهاية، فتى لا

يستطيع السفر طويلًا، ولا يستطيع خوض تجارب كثيرة كالتي مرّ بها في أوتلي، ويتوقع أن يبقى بريئًا)، لكن في تلك اللحظات وهو يقف ناظرًا إلى السماء، بدت البراءة تحيط به، مثل الصياد الشاب في لحظة وعيه القصيرة في قصيدة إليزابيث بيشوب، كل شيء كان قوس قزح، قوس قزح، قوس قزح، قوس قزح.. اللعنة على الفرحة تلك الكلمة القصيرة المبهجة...

شعر جاك بتحسنٍ أكبر مما كان عليه منذ بداية كل هذا، والله وحده يعلم كم مرّ على ذلك...

انطلق جاك على الطريق الغربي مرة أخرى، خطواته خفيفة، ووجهه مُكلّل بتلك الابتسامة البريئة واللطيفة نفسها، ومن حين لآخر، ينظر خلفه، لفترة طويلة ظل قادرًا على رؤية الطائرون، كان هواء الأراضي صافيًا وكأنه عدسة مكبرة.. وحتى بعد أن غابوا عن بصره، ظلّ ذلك الشعور بالفرح، كقوس قزح الذي كسى عقله بالسعادة والألوان.

7

بدأت الشمس في الغروب، ومعها أدرك جاك أنه يؤجل عودته للعالم الآخر، إلى الأراضي الأمريكية، ليس فقط بسبب فظاعة طعم العصير السحري، بل لأنه لا يريد مغادرة هذا المكان.

تدفق جدول صغير من المراعي (حيث بدأت بساتين صغيرة من الأشجار بالظهور، أشجار متموجة ذات قمم مسطحة غريبة، تشبه أشجار الكينا) وانعطف يمينًا منسابًا على طول الطريق، وعلى اليمين البعيد أمامه، كانت هناك مساحة مائية هائلة الضخامة، حتى ظن جاك لآخر لحظة أنها رقعة من السماء بلون أشد زرقة عن البقية.. لكنها لم تكن سماء؛ بل بحيرة.. "بحيرة عظيمة"، فكّر، مبتسمًا للعبارة، خمن أنها ستكون بحيرة أونتاريو(27) في العالم الآخر.

شعر بالارتياح فلقد كان يسير في الاتجاه الصحيح، ربما بعيدًا بعض الشيء نحو الشمال، لكنه لم يكن يشك في أن الطريق الغربي سينحرف عنه قريبًا.

ذلك الشعور بالفرح الهستيري، الذي وصفه بالبهجة، قد خفّ إلى نوع من الهدوء والسكينة، شعور بدا صافيًا كنقاء هواء الأراضي.. شيء واحد فقط أفسد شعوره الطيب، وهو ذكرى جيري بليدسو (ستة، ستة، جاك ستة).

لماذا يصعب عليه التخلص من تلك الذكرى؟

(لا.. ليست فقط تلك الذكرى... الذاكرتان.. أولًا، أنا وريتشارد، حين سمعنا السيدة فيني تخبر أختها أن الكهرباء انقطعت وحرقته، وأنها أذابت نظارته على أنفه، وأنها سمعت السيد سلوت يتحدث على الهاتف وهو يقول ذلك... ثم جلست خلف الأريكة، لا أقصد التجسس أو التنصت، وسمعتُ أبي يقول "لكل شيء عواقب، وبعض هذه العواقب قد تكون مزعجة"، وشيءٌ ما أزعج جيري بليدسو بالتأكيد، أليس كذلك؟ عندما تذوب نظارتك على أنفك، أقول إنك مررت بشيءٍ ما مزعجٍ بعض الشيء، نعم.. توقف يا جاك.. توقف تمامًا.

ماذا تحاول أن تقول؟

أنت تعرف ما أحاول قوله يا جاك.. خرج والدك ذلك اليوم.. هو ومورغان كلاهما كانا هنا.. أين، هنا؟ أعتقد أنهما كانا في نفس المكان هنا حيث يقع مبناهما في كاليفورنيا، في الأراضي الأمريكية.. وفعلا شيئًا ما، أو فعل أحدهما شيئًا ما.. ربما شيءٌ كبير، ربما ليس أكثر من رمي حجر... أو دفن لب تفاحة في التراب. وبطريقةٍ ما... تردد صداه هناك.. تردد صداه هناك وقتل جيري بليدسو.)

ارتجف جاك.. أجل، ظن أنه يعرف لماذا استغرق عقله كل هذا الوقت ليتذكر تلك الذكرى.. سيارة الأجرة، همهمات الرجال، ودكستر غوردون وهو ينفخ في بوق سيارته.

لم يُرد أن يتذكرها لأن.. (من يُغير تلك الأشياء يا أبي) ذكراها أوحت له بأن بمجرد وجوده هنا قد يفعل شيئًا فظيعًا

في العالم الآخر.. هل قد يُشعل الحرب العالمية الثالثة؟ لا، على الأرجح لا.. لم يغتيل أي ملك مؤخرًا، صغارًا كانوا أم كبارًا...

لكن كم استغرق الأمر ليتردد صدى الصوت الذي أحرق جيري بليدسو؟

هل أطلق العم مورغان النار على سيارة جيري التوأم (إن كان جيري يملك واحدة)؟

هل حاول إقناع أحد كبار الشخصيات في الأراضي بفكرة إدخال الكهرباء؟

أم كان مجرد أمر تافه... شيء لا يزيد عن زعزعة الأرض من شراء قطعة لحم في سوق بلدة ريفية؟ من الذي أحدث تلك التغييرات؟ ما الذي أحدث تلك التغييرات؟

فيضان جميل، نار عذبة.. فجأةً، جفّ فم جاك كالملح.

عبر إلى الجدول الصغير على جانب الطريق، وجثا على ركبتيه، ووضع يده ليغرف الماء، تجمدت يده فجأة.. تحوّل مجرى الجدول السلس إلى ألوان غروب الشمس الوشيك... لكن هذه الألوان امتزجت فجأةً بالأحمر، فبدا وكأنه تيار من الدم لا ماءً يجري على جانب الطريق، ثم اسودّ، بعد لحظة، أصبح شفافًا، ورأى جاك...

انبعث منه صوت مواء خافت وهو يرى مقصورة مورغان تزأر على طول الطريق الغربي، تجرّها خيوله السوداء ذات

الريش الأسود.

نظر جاك برعب لسائق العربة الجالس فوق مقعده المرتفع بحذائه الذي يغطي معظم ساقيه، ممسكًا سوطه الذي يُصدر صوت طقطقة لا يتوقف في إحدى يديه على صفحة الماء حتى كاد أن يغمى عليه، إنه إلروي، لكن لم تكن يدٌ على الإطلاق هي التي تمسك ذلك السوط بل نوعًا من الحوافر.

كان إلروي يقود تلك العربة الكابوسيه، مبتسمًا بفمٍ مليءٍ بالأنياب الميتة، إلروي الذي كان يتوق للعثور على جاك سوير مجددًا وفتح بطنه وإخراج أمعائه.

ركع جاك أمام الجدول، وعيناه جاحظتان، وفمه يرتجف من الفزع والرعب.. فلقد تجلّى شيئًا أخيرًا في هذه الرؤية، ليس شيئًا كبيرًا، لا، ولكنه ضمنيًا كان أكثر الأشياء رعبًا.. بدت عيون الخيول وكأنها تتوهج.. بدت وكأنها مشتعلة ربما لأنها اكتست بضوء الغروب...

المقصورة تتجه غربًا عبر ذات الطريق... وتلاحقه.

زحف جاك، غير متأكد من قدرته على الوقوف حتى لو اضطر إلى ذلك، مبتعدًا عن الجدول وأندفع بخطوات خرقاء على الطريق، فانكفأ في التراب، وزجاجة سبيدي والمرآة التي أهداها له بائع السجاد غاصتا في أحشائه.. أدار رأسه جانبًا ولصق خده وأذنه اليمنى بقوة بسطح الطريق الغربي.

تردد هدير المقصورة عبر صلابة الأرض الجافة كانت بعيدة

لكنها تقترب...

إلروي في الأعلى... مورغان في الداخل.. مورغان سلوت؟ مورغان من أوريس؟ لا يهم. كلاهما واحد.

كسر التأثير المنوم لذلك الهدير في الأرض بجهد ونهض مجددًا ثم أخرج زجاجة سبيدي من قميصه، كما هو الحال هنا في الأراضي المحتلة كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، وسحب ما استطاع من سدادة الطحلب في عنقها، غير مبالٍ بوابل الجزيئات في السائل الذي لم يبق منه سوى بوصتين، نظر بتوتر إلى يساره، كما لو كان يتوقع رؤية المقصورة السوداء في الأفق، وعيون الخيول التي غمرها غروب الشمس تتوهج كمصابيح غريبة.

بالطبع لم يرَ شيئًا.. كانت الآفاق متقاربة هنا في الأراضي، كما لاحظ بالفعل، والأصوات تنتقل لمسافات أبعد...

لا بد أن مقصورة مورغان على بُعد عشرة أميال شرقًا، ربما عشرين ميلًا.

"مازالت تتجه إليّ مباشرة"، فكّر جاك، ورفع الزجاجة إلى شفتيه، قبل أن يشرب منها بلحظة، صرخ عقله.. «مهلاً، انتظر لحظة! انتظر لحظة يا غبي، هل تريد أن تُقتل؟» ستبدو وسيمًا، أليس كذلك، وأنت تقف في منتصف الطريق الغربي ثم تنقلب عائدًا إلى العالم الآخر في منتصف طريق ما هناك، ربما تدهسك شاحنة كبيرة من شاحنات UPS(28).

تسلل جاك إلى جانب الطريق... ثم سار عشر أو عشرين خطوة في العشب الذي يصل إلى الفخذين للتأكد، أخذ نفسًا عميقًا أخيرًا، مستنشقًا رائحة المكان العذبة، باحثًا عن ذلك الشعور بالسكينة... وقوس قزح.

"عليّ أن أحاول تذكر ذلك الشعور"، فكّر.. "قد أحتاجه... وقد لا أعود إلى هنا لمدة طويلة».

نظر إلى المراعي، التي أظلمت الآن بعدما تسلل الليل إليها من الشرق، هبت ريح باردة لكنها لم تزل عطرة، تُحرّك شعره الذي أصبح أشعثًا الآن بعدما تلاعبت به كما تتلاعب بالعشب.

هل أنت مستعد يا جاك؟

أغمض جاك عينيه وتماسك أمام الطعم المربع والقيء الذي كان من المتوقع أن يليه.

همس لنفسه قائلًا.. "بانزاي"(29)، وشرب.

الفصل الرابع عشر
بادي باركنز
1

تقيّأ لعابًا أرجوانيًا رقيقًا، ووجهه لا يبتعد سوى بضع بوصات عن العشب الذي يغطي المنحدر الطويل المؤدي إلى طريق سريع بأربع حارات؛ هزّ رأسه وتمايل إلى الوراء حتى استقرّ على ركبتيه، فلم يعد للسماء الرمادية الثقيلة سوى أن ترى ظهره فقط.

العالم، هذا العالم، كانت رائحته كريهة.

دفع «جاك» نفسه إلى الخلف مبتعدًا عن خيوط القيء التي كانت تستقر فوق شفرات العشب، فتبدّلت الرائحة لكنها لم تخفّ.

رائحة البنزين، وسموم أخرى لا اسم لها، كانت تطفو في الهواء؛ والهواء نفسه كان تفوح منه رائحة الإرهاق والتعب حتى الأصوات الصاعدة من الطريق السريع كانت تعذّب هذا الهواء الميت.

ارتفعت لافتة طريق خلفه كأنها شاشة تلفاز عملاقة عُلقت فوق رأسه.

ترنّح «جاك» واقفًا على قدميه.

بعيدًا، وراء الطريق السريع، تلألأ جسد مائي لا نهاية له،

رماديّ اللون لا يكاد ان يختلف عن لون السماء، ووميض خبيث كأنه ضوء عليل لمع عبر سطحه.

ومن هناك أيضًا صعدت رائحة برادة الحديد والشقاء.

إنها بحيرة أونتاريو؛ والمدينة الصغيرة الوادعة هناك في الأسفل ربما تكون أولكوت أو كِندال.

لقد ابتعد أميالًا عن طريقه... ضاع منه أكثر من مئة ميل، وما يقرب من أربعة أيام ونصف.

تقدّم «جاك» تحت اللافتة، راجيًا ألا يكون الأمر أسوأ من ذلك.

رفع عينيه نحو الحروف السوداء.

مسح فمه.

أنغولا.

أنغولا؟ أين تقع؟

حدّق إلى المدينة الصغيرة الملبّدة بالدخان من خلال الهواء الذي بدأ أخيرًا يصبح شبه محتمل.

أخبره كتاب راند ماكنالي، ذلك الرفيق الذي لا غنى عنه، أن فدادين الماء الممتدة في الأسفل ليست بحيرة أونتاريو كما ظن، بل بحيرة إيري وهكذا لم يكن قد أضاع أيامًا من السفر كما ظن، بل أنجزها.

لكن قبل أن يقرر الفتى أن من الحكمة أن يعود إلى الأراضي

الأخرى حالما يطمئن إلى أن الوضع صار آمنًا... أي حين يتأكد أن مورغان بدقته وجنونه قد تجاوز المكان الذي كان فيه بزمن طويل، قبل أن يتمكن من فعل ذلك، أو حتى أن يبدأ بالتفكير فيه، كان عليه أولًا أن ينزل إلى المدينة الصغيرة الملبدة بالدخان أنغولا، ليرى إن كان هذه المرة جاك ساوير، أو جاكي كما يطلقون عليه، قد بدّل بعض النغمات يا أبي (أي قد أحدث بعض التغييرات في العالم الحقيقي).

بدأ ينحدر على السفح، فتى في الثانية عشرة من عمره، يرتدي سروال جينز وقميصًا بنقوش مربعة، طويل القامة بالنسبة لعمره، بمظهر مُهمل، ووجه قلق ربما أكثر مما يحتمله طفل في مثل عمره.

وفي منتصف الطريق نزولًا من المنحدر الطويل، أدرك أنه بدأ يفكّر بالإنجليزية مجددًا.

2

بعد أيامٍ كثيرة، وفي أقصى الغرب.. الرجل الذي يدعى بَدي باركنز، والذي التقط، خارج بلدة كامبريدج في أوهايو على الطريق السريع رقم 40، فتى طويل القامة قدّم نفسه باسم لويس فارن، كان ليتعرف على ملامح وجهه القلقة... فذلك الفتى لويس بدا وكأن القلق على وشك أن يترسخ في ملامحه إلى الأبد.

ود بودي لو قال له.. «اهدأ يا بني، من أجل نفسك إن لم يكن من أجل أحدٍ آخر.»

لكن الفتى كان مثقلًا بما يكفي لعشرة رجال، حسب قصته..

أمه مريضة، والده ميت، وأُرسل إلى عمّته المعلمة في بحيرة باكاي... بدا أن لويس فارن يحمل من الهموم ما يكفي لجعل أي فتى ينهار.

كان يبدو أيضًا كأنه لم يرَ خمسة دولارات مجتمعة منذ عيد الميلاد الماضي.

ومع ذلك، شعر بودي أن هذا الفتى يخدعه بطريقة ما.

لسببٍ بسيط: رائحته كانت رائحة الريف، لا المدينة.

كان بودي باركنز وإخوته يملكون مزرعة من ثلاثمائة فدان قرب أماندا، على بُعد ثلاثين ميلًا جنوب شرق كولومبوس، وكان متأكدًا أنه لا يمكن أن يخطئ في تمييز تلك الرائحة.

كان الفتى يفوح منه عبق كامبريدج... ورائحة كامبريدج رائحة ريفية خالصة.

نشأ بودي على روائح الأراضي الزراعية وحظائر المواشي، على رائحة السماد، والذرة النامية، ومصانع تعليب البازلاء، وملابس الفلاحين غير المغسولة التي تشربت كل تلك الروائح المألوفة والصبي الجالس إلى جواره كان يحملها جميعًا.

ثم كانت هناك الملابس نفسها.

قال بودي لنفسه.. لابد أن السيدة فارن كانت مريضة للغاية لتسمح لابنها بالسير على الطريق بهذا الشكل.

مرتديًا سروالا ممزقا من الجينز ومتصلبًا بفعل الأوساخ حتى بدت تجاعيده أشبه بالمعدن المصقول.

أما حذاؤه الرياضي فكان على وشك أن يتفكك تمامًا، أربطته موصولة ببعضها، والنسيج ممزق أو مهترئ في مواضع متعددة من كل فردة.

قال بودي..

"اتعنى إنهم سرقوا سيارة والدك يا لويس؟"

فرد الصبي..

"تمامًا كما أخبرتك فالجبناء القذرين سرقوها من الجراج بعد منتصف الليل، والسرقة شيء غير مقبول خاصة لو من أشخاص يؤكدون بحق، لسداد الأقساط والتي بالفعل كانوا

بدأوا في سدادها... أليس كذلك؟"

كان وجه الصبي المخلص المحترق بوهج الشمس ناظرًا نحوه كأن هذا السؤال أهم ما طُرح منذ عفو نيكسون أو ربما خليج الخنازير، وكل غريزة في بودي كانت تدفعه لأن يتفق معه... كما هو في العادة حيث يصدّق على أي رأي طيب يصدر عن فتى تفوح منه رائحة العمل الريفي.

لكنّه قال، على غير اقتناع..

" أظن أن لكل حدث وجهين.. إذا فكرنا جيدًا"

رمش الصبي بعينيه ثم أدار وجهه للأمام من جديد.

وعاد بودي يشعر بذلك القلق الكثيف، بسبب الغموض الذي يخيم على الفتى، وقد انتابه القليل من الندم لأنه لم يمنحه الموافقة التي كان بحاجة إليها.

قال بودي بعد لحظة، محاولًا أن يرفع من معنوياته ويُبقي الحديث نحو المستقبل لا الماضي..

"اذن خالتك تعمل كمدرسة في باكاي ليك، أليس كذلك؟"

نعم يا سيدي، بالفعل.. هي مدرسة ابتدائي، اسمها هيلين فون."

ولم يتغيّر تعبير وجهه قيد أنملة.

لكن بودي انتبه لشيء آخر مرة ثانية ورغم أنه لم يكن يعتبر نفسه مثل ذاك البروفيسور في المسرحية الموسيقية

هنري هيغنز، إلا أنه كان متأكدًا تمامًا من شيء واحد..

الفتى لويس فارن لا يتحدث بلهجة أوهايوية على الإطلاق.

كان صوته غريبًا، متقارب المقاطع، مليئًا بعلوٍّ وانخفاضٍ في غير مواضعه.

لم يكن صوت أحد من أهل الريف هناك...

بل كان لكنة، غريبة ومتعمدة.

لكن.. هل يمكن أن يكون فتى من كامبريدج، أوهايو قد تعلّم التحدث بتلك الطريقة؟

ربما... لأي سببٍ جنوني يخصه.

وبودي، في النهاية، افترض أنه ممكن.

من ناحيةٍ أخرى، كانت الجريدة التي لم يُزِلها لويس فارن قط من تحت ذراعه اليسرى تؤكد أعمق شكوك بَدي باركنز، بل أسوأها.. أن رفيقه الصغير ذي الرائحة الريفية ليس سوى هاربٍ من المنزل، وأن كل كلمة نطق بها كانت كذبًا.

كان اسم الجريدة، الذي لم يحتج بَدي إلا أن يميل رأسه قليلًا ليقرأه، هو «أنغولا هيرالد».

تذكّر أن هناك «أنغولا» في أفريقيا، حيث سافر كثير من الإنجليز كجنود مرتزقة، وهنالك أيضًا أنغولا في ولاية نيويورك، المطلة على بحيرة إيري.

كان قد رأى صورها في الأخبار منذ وقت قريب، لكنه لم

يستطع أن يتذكّر السبب على وجه التحديد.

قال بَدي بعد أن تنحنح قليلًا:

"أود أن أطرح عليك سؤالًا يا لويس."

رد الصبي «نعم، تفضل.»

قال بَدي «كيف يحمل فتى من بلدة صغيرة لطيفة على الطريق السريع رقم أربعين جريدة من أنغولا، نيويورك؟ إن المسافة بعيدة للغاية.. إنما أسأل بدافع الفضول ليس أكثر، يا بني.»

نظر الصبي إلى الجريدة المضغوطة تحت ذراعه، وضمها إلى صدره بإحكام كما لو كان يخشى أن تفلت منه، ثم قال..

"آه... لقد وجدتها."

قال بَدي بنبرة مشوبة بالشك.. «وجدتها؟!»

قال الصبي «نعم، يا سيدي.. عثرت عليها على مقعد في محطة الحافلات في بلدتنا.»

تساءل بَدي «أذهبتَ إلى محطة الحافلات هذا الصباح؟»

رد لويس «قبل أن أقرر أن أوفّر المال وأستقلّ الطريق مع الغرباء.

سيد باركنز، إن استطعت أن توصلني إلى المخرج عند زينسفيل، فلن يتبقى لي سوى مسافة قصيرة.. وربما أصل إلى منزل خالتي قبل موعد العشاء.»

قال بَدي «ربما.»

ثم واصل القيادة في صمتٍ ثقيل لعدة أميال، حتى لم يعد يحتمل، فقال بصوت منخفض وهو يحدّق في الطريق أمامه..

"أخبرني يا بني... هل أنت هارب من المنزل؟"

أدهشه الصبي حين ابتسم... لم تكن ابتسامة ساخرة ولا مصطنعة، بل ابتسامة حقيقية.

بدت فكرة الهروب من المنزل وكأنها أضحكته.

ولمّا التفت إليه بَدي، التقت عيناهما لثوانٍ معدودة، كانت كافية لأن يرى بَدي في هذا الفتى المتسخ الجالس بجانبه جمالًا صادقًا.

لم يكن يظن يومًا أنه سيستخدم هذه الكلمة لوصف رجل، ولكن تحت غبار الطريق كان لويس فارن جميلًا بحق.

لقد محا حس الدعابة عنده همومه للحظة، وما بزغ منه في عين بَدي ذلك الرجل البالغ من العمر اثنين وخمسين عامًا، والأب لثلاثة أبناء مراهقين كان صفاءً خالصًا لم تفسده إلا تجارب غريبة اجتازها.

لقد بدا أن هذا الصبي، ابن الثانية عشرة كما قال، قد رأى أكثر وعاش أكثر مما عاشه بَدي نفسه، وأن ما مرّ به من تجارب قد صاغ فيه جمالًا نادرًا.

قال الصبي بهدوء..

"لا، لست هاربًا يا سيد باركنز."

ثم رمش بعينيه، وغامت نظرته، وفقد وجهه نوره وبريقه، واستند إلى مقعده من جديد. ثم رفع ركبته ووضعها على لوحة القيادة، وضم الجريدة تحت ذراعه بإحكام.

قال بَدي وهو يعيد نظره إلى الطريق

"أجل، لا أظن أنك هارب حقًا يا لويس.. ولكنك بالتأكيد شيءٌ آخر."

لم يُجب الصبي.

سأل بَدي «لقد عملتَ في مزرعة، أليس كذلك؟»

رفع لويس نظره إليه بدهشة وقال

"بلى، عملتُ خلال الأيام الثلاثة الماضية. بأجر دولارين في الساعة."

فكّر بَدي داخل نفسه.. (وأمّك لم تجد وقتًا، رغم مرضها، لتغسل ملابسك قبل أن ترسلك إلى شقيقتها؟)

لكنه قال بدلًا من ذلك..

"لويس، أودّ منك أن تفكّر في المجيء معي إلى منزلي، لا أقول إنك هارب أو شيء من هذا القبيل، ولكن إن كنت من محيط كامبريدج فسآكل هذه السيارة القديمة قطعة قطعة إن كنت مخطئًا إن لديّ ثلاثة أبناء، أصغرهم، بيلي، يكبرك بثلاثة أعوام فقط، ونحن نعرف كيف نُطعم الفتيان جيدًا..

يمكنك البقاء ما شئت، حسب رغبتك والإجابة عن أسئلتي... التي سأطرحها عليك، على الأقل بعد أول وجبة نتناولها معًا."

مرّر كفّه على شعره الرمادي القصير، وألقى نظرة جانبية نحوه.

بدا لويس فارن أكثر شبهًا بفتى، وأقل شبهًا بسرٍّ غامض.

قال بَدي بابتسامة دافئة

"ستكون توضع ترحاب، يا بني."

ابتسم الفتى بدوره وقال

"هذا لطفٌ كبير منك، سيد باركنز، لكنني لا أستطيع. عليّ أن أزور... خالتي في..."

أكمل بَدي: «في بحيرة باكاي.»

ابتلع الصبي ريقه ونظر إلى الطريق مجددًا.

قال بَدي «إن احتجتَ إلى مساعدة، فسأقدّمها لك.»

ربّت لويس على ساعده قائلاً

"هذه الرحلة وحدها مساعدة كبيرة، صدقني."

وبعد عشر دقائق من الصمت تقريبًا، كان بَدي يراقب الصبي يسير بخطواتٍ مثقلةٍ على منحدر الطريق خارج زينسفيل.

فكّر أن زوجته إيمي كانت لتصبّ عليه غضبها لو عاد إلى البيت ومعه فتى غريب ومتّسخ ليطعماه، ولكنّه كان يعلم

أيضًا أنّها، ما إن تراه وتسمع صوته، ستخرج الأواني الجميلة التي ورثتها عن أمها وتستقبله كضيفٍ عزيز.

لم يكن بَدي باركنز يؤمن بوجود امرأة تُدعى هيلين فون في بحيرة باكاي، ولم يكن واثقًا حتى أن ذلك الفتى الغامض لويس فارن له أمّ لا فلقد بدا يتيماً يسعى في شتات مهمة محفوفة بالغموض.

ظلّ يراقبه حتى اختفى عند المنعطف، ثم رفع عينيه إلى لافتةٍ ضخمةٍ صفراء وبنفسجية لمركزٍ تجاري.

ولوهلةٍ، فكّر أن يخرج من السيارة ويركض وراءه ليعيده،

لكن تذكّر مشهدًا ضبابيًا من نشرة الأخبار المسائية

أنغولا، نيويورك.

كارثة صغيرة لم يُذكَر عنها سوى خبرٍ واحد، من تلك المآسي التي يطمرها العالم تحت ركام الصحف.

كلّ ما استحضره من تلك الذاكرة المربكة كان صورة عوارض حديدية متناثرة كعيدان ضخمة فوق سياراتٍ مهشّمة، بارزةً من حفرةٍ تنفث دخانًا.. حفرةٍ بدت كأنها تؤدي إلى الجحيم ذاته.

نظر بَدي باركنز مرةً أخيرة إلى المكان الخالي على الطريق حيث كان الصبي قبل لحظات،

ثم ضغط على الدبرياج، وأدرج سيارته القديمة في السرعة

الأولى، ومضى.

3

كانت ذاكرة بَدي باركنز أدقّ مما تصوّر..

فلو أنّه رأى الصفحة الأولى من صحيفة «أنغولا هيرالد»، تلك التي كان الفتى الغامض لويس فارن يضمّها إلى جانبه بخليطٍ من الحرص والخوف، لقرأ السطور التالية:

زلزال غريب يودي بحياة خمسة أشخاص

بقلم مراسل الهيرالد: جوزيف غارغان

توقّف العمل في مشروع أبراج رينبيرد الذي كان يُفترض أن يكون أعلى وأفخم مشروع سكني في مدينة أنغولا، ولم يبقَ على اكتماله سوى ستة أشهر توقّفًا مأساويًا أمس، حين أدّى اهتزاز أرضي غير مسبوق إلى انهيار الهيكل الإنشائي للمبنى، فدُفن عدد من العمال تحت الأنقاض.

وقد جرى انتشال خمس جثث من بين الركام، فيما لا يزال عاملان في عداد المفقودين، ويُرجّح أنهما لقيا حتفهما.

كان الرجال السبعة جميعًا من اللحّامين والعمّال في شركة سبايسر للإنشاءات، وقد وقع الحادث بينما هم يعملون على الطابقين العلويين.

كان زلزال الأمس الأول في تاريخ أنغولا كما هو معلوم.

وقد صرّح أرمن فان بيلت، من قسم الجيولوجيا في جامعة نيويورك، عبر اتصالٍ هاتفيّ أُجري اليوم، بأنّ الهزّة القاتلة

كانت «فقاعة زلزالية».

ولا يزال ممثلو لجنة السلامة الحكومية وفريق من الخبراء يواصلون تحقيقاتهم في موقع الكارثة...

أما الضحايا، فهم: روبرت هايدل (23 عامًا)، توماس ثيلكه (34 عامًا)، جيروم وايلد (48 عامًا)، مايكل هاغن (29 عامًا)، وبروس ديفي (39 عامًا).

فيما لا يزال أرنولد شولكمب (54 عامًا) وثيودور راسموسن (43 عامًا) مفقودين.

لم يعد جاك في حاجة إلى النظر في الصفحة الأولى ليتذكّر تلك الأسماء.

فقد وقع أول زلزال في تاريخ أنغولا، نيويورك، في اليوم نفسه الذي انحرف فيه عن الطريق الغربي وهبط عند حدود البلدة.

كان جزءٌ من جاك ساوير يتمنى لو استطاع أن يعود مع بَدي باركنز الطيب القلب إلى منزله،

أن يجلس إلى المائدة في مطبخ العائلة،

يتناول اللحم المسلوق وفطيرة التفاح المنزلية عميقة القاع،

ثم يندسّ في سرير الضيوف، ويشدّ فوق رأسه لحافًا يدويّ الصنع،

ولا يتحرّك من مكانه إلا نحو المائدة لأربعة أو خمسة أيام.

لكن جزءًا آخر من مأساته كان أنّه، كلّما تخيّل تلك المائدة الخشبية المصنوعة من خشب الصنوبر المعقود،

رآها مكدّسة بقطع الجبن المتفتّتة،

وعلى الجانب الآخر ثقب فأرٍ محفور في لوحٍ خشبيٍّ عريض،

ومن ثقوب بنطال الصبية الثلاثة من آل باركنز تدلت ذيولٌ طويلة نحيلة.

"من صنع تلك التغييرات يا أبي؟"

هايدل، ثيلكه، وايلد، هاغن، ديفي؛ شولكمب وراسموسن.

تلك التغييرات؟

علم تمامًا من هو صانعها...

4

كان اللوح الضخم ذو اللونين الأصفر والبنفسجي الذي كُتب عليه «مركز باك آي التجاري» يطفو أمام جاك وهو يدور حول المنعطف الأخير من المخرج الجانبي للطريق السريع.. بدا له اللوح وكأنه ينساب من فوق كتفه، ثم يعاود الظهور من الجانب الآخر، حتى استطاع أخيرًا أن يرى أنه منصوب على ثلاثة أعمدة صفراء طويلة في ساحة انتظار السيارات التابعة للمركز.

أما المبنى نفسه فكان كتجميع مستقبلي الطراز من مبانٍ باللون الزعفراني، بدت بلا نوافذ، وبعد لحظة أدرك جاك أن المركز مسقوف من الأعلى، وأن ما يراه ليس إلا خداعًا بصريًا يوهم بوجود مبانٍ منفصلة.

مدّ يده إلى جيبه، ولامس بأصابعه اللفافة المحكمة من أوراق الدولار وهم ثلاثة وعشرون ورقة نقدية، كل ما بقيَ له من ثروته الأرضية.

تحت أشعة شمس الخريف الباردة، انطلق جاك عابرًا الشارع نحو ساحة المول بخفة راكضٍ يطارد مهربًا من التعب.

لولا حديثه الأخير مع «بَدي باركنز»، لكان جاك على الأرجح واصل رحلته على الطريق رقم 40، محاولًا أن يقطع خمسين ميلًا أخرى وصولاً إلى ولاية إلينوي، حيث صديقه ريتشارد سلوت، خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر، فكرة لقاء ريتشارد

مجددًا هي ما أبقته صامدًا طوال الأيام الشاقة من العمل المتواصل في مزرعة إلبرت بالاماونتن.

صورة ريتشارد الجاذ، مرتديًا نظّارته، في غرفته بمدرسة ثاير في سبرينغفيلد، كانت تدفعه للاستمرار بقدر ما كانت تدفعه وجبات السيدة بالاماونتن السخية.

وإنْ كان لا يزال يريد لقاء ريتشارد في أقرب وقت، فإن دعوة «بَدي» له إلى منزله قد أربكته على نحوٍ غريب، أفقده صلابته.

لم يكن بوسعه أن يستقلّ سيارة أخرى ويبدأ الحكاية من جديد.

(بل إن الحكاية نفسها – كما نبّه نفسه – بدأت تفقد سحرها).

كان المول فرصة مثالية ليختفي عن العالم ساعة أو ساعتين، لا سيما إن وُجدت بداخله دار سينما. في تلك اللحظة، كان جاك مستعدًا لمشاهدة أكثر الأفلام رومانسيةً ورتابة، فقط ليغرق في شيء لا يُشبه طريقه الطويل.

وقبل الفيلم – إن كان محظوظًا بما يكفي ليجد صالة عرض – أراد أن يتفرّغ لأمرين أجّلهما منذ أسبوع على الأقل...

رأى نظرة بَدي باركنز إلى حذائه الرياضي المهترئ من نوع «نايكي». لم تكن الأحذية تتداعى فحسب، بل إن نعالها –

التي كانت يومًا إسفنجية مرنة – تحجّرت بطريقة غامضة حتى صارت قاسية كالإسفلت.

في الأيام التي كان يضطر فيها إلى السير لمسافات طويلة أو العمل واقفًا طوال النهار، كان يشعر أن قدميه تحترقان.

أما المهمة الثانية – الاتصال بوالدته – فكانت مشحونة بالذنب ومخاوف لا يجرؤ على التفكير فيها...

لم يكن يدري إن كان يستطيع حبس دموعه حين يسمع صوتها...

ماذا لو بدا صوتها ضعيفًا؟ ماذا لو كانت حقًّا مريضة؟

هل يمكنه أن يواصل رحلته غربًا إذا ترجّته أمه بصوتٍ مبحوح أن يعود إلى نيوهامبشير؟

ولذا لم يعترف لنفسه أنه ربما سيتصل بها.

لكن عقله رسم فجأة صورة واضحة لهواتف عامة تحت فقاعات بلاستيكية تشبه مجففات الشعر، وسرعان ما أبعد الصورة عن ذهنه، كأن كائنًا من «الأراضي» قد يخرج من السماعة ليقبض على عنقه!

وفي تلك اللحظة بالذات، وثبت ثلاث فتيات يكبرنه بعام أو عامين من مؤخرة سيارة سوبارو برات توقفت بتهور قرب المدخل الرئيسي للمول،

لبضع ثوانٍ بدين كعارضات أزياء في لقطاتٍ مرتجلة من

النشوة والدهشة، ثم ما لبثن أن عدن إلى وقفتهن الطبيعية، ونظرن إلى جاك بفتور، وبدأن يعدّلن شعرهن بخفة خبيرة.

كنّ طويلات القامة بأجسادٍ ممشوقة في بناطيل الجينز الضيقة أنهن أميرات الصف العاشر الواثقات بأنفسهن.

وحين ضحكن، وضعن أيديهن على أفواههن كأن الضحك نفسه شيء يستحق السخرية.

خفف جاك خطواته حتى صار يمشي كمشي النائم، تتهادى نظراته إليهنّ بخفةٍ مترددة.

نظرت إحداهن إليه هامسةً بشيءٍ لصاحبتها ذات الشعر البني.

قال في نفسه «لقد تغيرت، لم أعد مثلهم بعد الآن».

وأحسّ بأن هذا الإدراك يمزّقه وحدةً.

خرج من السيارة فتى أشقر ضخم الجسد، يرتدي سترة زرقاء منفوخة، بلا أكمام، واجتمعت الفتيات حوله بمجرد تجاهله لهن.

كان واضحًا أنه طالب في المرحلة الأخيرة من الثانوية، بل ربما لاعب أساسي في فريق المدرسة.

ألقى نظرة سريعة على جاك، ثم رمق واجهة المول بتأمل ساخر.

قالت الفتاة الطويلة ذات الشعر البني

"تيمي؟"

فأجابها بلا اكتراث..

"آه، آه، كنت أتساءل فقط ما مصدر تلك الرائحة الكريهة هنا!"

ثم أهداهن ابتسامة متباهية، فالتفتت الفتاة البنية الشعر نحو جاك بازدراء خفي، قبل أن تتابع السير مع صديقتيها خلف الفتى المتغطرس عبر الأبواب الزجاجية إلى داخل المول.

انتظر جاك حتى صغرت صورهم خلف الزجاج وبدوا كجراء صغيرة في نهاية الممر الطويل، ثم وضع قدمه على اللوح المعدني الذي فتح الباب أوتوماتيكيًا.

واحتضنه هواء بارد مُعاد التكرير.

كانت المياه تنساب رقراقةً عبر نافورة شاهقة تمتد بطول طابقين، تتوسط بركةً عريضة تحيط بها المقاعد.

ومن حولها تواجهها المحالّ مفتوحة الواجهات في كلا الطابقين، بينما تسربت موسيقى مصطنعة باهتة من السقف المائل إلى الصفرة، كما تسلل منه ضوءٌ برونزي غريب.

أما رائحة الفشار التي فاجأته منذ أُغلق الباب الزجاجي وراءه، فكانت تنبع من عربة قديمة مطلية بالأحمر القاني، تقف إلى جوار مكتبة «والدن بوكس» على يسار النافورة في الطابق الأرضي.

رأى جاك في لحظته الأُولى أنه لا توجد دار عرض في مركز «باك آي» التجاري.

وعلى الطرف الآخر من المبنى التجاري كان تيمي وأميراثه الثلاث يصعدون على السلالم المتحركة متجهين – كما خمن جاك – إلى مطعم الوجبات السريعة «طاولة القبطان» في الأعلى.

مدّ يده إلى جيب بنطاله ولمس رزمة نقوده، إلى جانبها كانت «ريشة الغيتار» التي أعطاه إياها سبيدي، و «عملة القائد فيرن المعدنية»، وعددٌ من العملات الصغيرة.

وفي الطابق نفسه، بين محل «مستر شيبس» للبسكويت ومتجر الخمور الذي يعلن عن «تخفيضات جديدة» على شرابَي «هيرام ووكر» و«إنغلنوك شابلي»، جذبه محل أحذية «فايفا» نحو طاولته الطويلة الزاخرة بالأحذية الرياضية.

انحنى جاك يقلب الأحذية بفضول، بينما موظف الصندوق يتابعه بعيونٍ مرتابة، كأنما يتوقع أن يسرق شيئًا..

لم يعرف جاك أيًا من العلامات التجارية أمامه، فلم يكن بينها «نايكي» ولا «بوما»؛ بل أسماء غريبة مثل «سبيدستر» و«بول آي» و«زومز»، وأربطة كل زوجٍ منها مربوطةٌ ببعضها.. مجرد أحذية عادية، لا أحذية عدوٍ حقيقية، لكنها في نظره كافية.

اشترى أرخص زوجٍ وجد فيه مقاسه كان قماشيًا أزرق

اللون بخطوطٍ حمراء متعرّجة على الجانبين، بلا اسم علامةٍ تجارية ظاهر وقد بدا كغيره تمامًا من عشرات الأزواج على الطاولة.

عند الصندوق عدّ ست أوراقٍ مهترئة من فئة الدولار، وقال للبائع إنه لا يحتاج كيسًا.

جلس على أحد المقاعد قبالة النافورة الشاهقة، وخلع حذاءه الممزق من «نايكي» دون أن يفك أربطته.

ولما ارتدى الحذاء الجديد، أحسّ قدميه تهمسان بالشكر ارتياحًا...

ثم نهض وألقى بحذائه القديم في سلة قمامةٍ سوداء طويلة كُتب عليها بالطلاء الأبيض «لا تكن ملوثًا للبيئة»، وتحتها بخطٍ أصغر «الأرض هي بيتنا الوحيد».

بدأ جاك يتمشى بغير هدف في الممر الطويل للطابق السفلي من المول، باحثًا بعينيه عن الهواتف العامة،

وعندما وصل إلى عربة الفشار الحمراء، أخرج خمسين سنتًا، فناولَه الرجلُ كوبًا ورقيًا كبيرًا مملوءًا فشارًا لماعًا.

كان الرجل في منتصف العمر، يرتدي قبعة «بولر» مستديرة وله شوارب ضخمة غليظة، وكمّي قميصه مشدودين بحلقتين معدنيتين.

قال لجاك وهو يناوله الكوب «الهواتف العامة يا بني، خلف الزاوية هناك بجوار محلّ واحد وثلاثون نكهة للآيس كريم،

في الأعلى»

وأشار بإبهامه إشارة مبهمة نحو أقرب سلالم متحركة.

ارتقى جاك السلم خلف امرأتين، إحداهما في العشرينات والأخرى أكبر سنًا منها، عريضتا الورك حتى كادتا تملآن عرض السلم، كلتاهما ترتديان حلل بسراويل.

كان يأكل من الفشار بينما تصعدان أمامه ببطء.

وتسلل إلى ذهنه خاطرٌ مفاجئ

ماذا لو انقلب فجأة إلى العالم الآخر داخل هذا المول؟

هل ستتهدم الجدران، وينهار السقف، ويتساقط الطوب والعوارض ومكبرات الموسيقى والأنوار على رؤوس كل من في الداخل؟

هل ستتحطم جماجم هؤلاء المراهقات، بل حتى «تيمي» المتعجرف نفسه؟

هل سيمتلئ المكان بأجسادٍ مكسّرة وصراخٍ مكتوم؟

وللحظة، قبل أن يبلغ قمة السلم، رأى في ذهنه قطعًا ضخمة من الجصّ والعوارض المعدنية تهوي من الأعلى، سمع الانفجار الرهيب للأرضية، والصرخات المطبوعة في الهواء دون صوت.

أنغولا.. أبراج رينبيرد..

شعر بكفّيه تبتلّان بالعرق، فمسحهما في سرواله الجينز.

أضاء شعار «واحد وثلاثون نكهة» على يساره بلونٍ أبيض متوهجٍ بارد، وعندما بحث في الاتجاه نفسه، أبصر ممرًا منحنياً خلف المحل، كانت جدرانه وأرضيته مكسوّة ببلاطٍ لامعٍ بنيّ، وحين غاب عن أنظار من في الطابق، لمح ثلاثة هواتفٍ عامة تحت فقاعاتٍ شفافة من البلاستيك، قابلتها من الجهة الأخرى أبواب كُتب عليها رجال و نساء.

تحت الفقاعة الوسطى، أدخل جاك عملة معدنية، وطلب الصفر ثم رمز المنطقة ورقم فندق "نزل وحدائق قصر الحمراء".

قالت عاملة الهاتف

«قسم الفوترة؟»

فأجابها جاك

"هذه مكالمة على الحساب، للسيدة ساوير في الغرفتين 407 و408... من جاك".

تحوّل الخط إلى موظفة الفندق، فاشتدّ اضطراب صدره، ثم نقلته إلى الجناح المطلوب.

رن الهاتف مرة... مرتين... ثلاثًا...

ثم جاء صوتها أخيرًا

"يا إلهي يا بني! كم أنا سعيدة بسماع صوتك! هذه الأم الغائبة بدأت تتعب من الفراق... أفتقدك حين كنت هنا، تتذمّر

وتعلّمني كيف أتصرف مع النُدُل!"

قال مبتسمًا بصوتٍ مرتجف

"أنت فقط أرقى من أن يفهمك النُدُل يا أمي!"

وشعر بدموعٍ ساخنة تملأ عينيه ارتياحًا.

قالت بقلقٍ ناعم

"هل أنت بخير يا جاك؟ قل الحقيقة."

"أنا بخير، حقًا.. بخير... فقط أردت أن أتأكد من أنك... تعرفين."

همس الهاتف بصوتٍ إلكتروني، صفيرٍ يشبه الرمل وهو يُدحرج على الشاطئ.

قالت ليلي «أنا على ما يرام، بل بخير.. لست بأسوأ حال، إن كان هذا ما يقلقك. لكني أحب أن أعرف أين أنت الآن.»

تردد جاك لحظةً بينما كان الضجيج يملأ الخط.

ثم قال

"أنا الآن في أوهايو، وسأرى ريتشارد قريبًا."

سألته بصوتٍ يختلط فيه الحنين بالقلق..

"ومتى ستعود إلى البيت يا جاكي؟"

"لا أستطيع أن أحدد... ليتني أستطيع."

"لا تستطيع أن تقول... أقسم يا بني، لو لم يكن والدك قد

منحك ذلك الاسم الغريب، ولو أنك اتصلت قبل عشر دقائق أو بعدها بعشر..."

ارتفع الصفير على الخط كمدٍّ من ضوضاء البحر، وغاب صوتها.

تذكر جاك وجهها المتعب في المقهى، ذلك الشحوب الذي جعلها تبدو كعجوزٍ واهنة.

وعندما عاد صوتها قال بسرعة..

"هل يضايقك عمي مورغان؟ هل عاد إليك؟"

ردت بحزم «طردت عمّك مورغان من هنا شرّ طردة!»

"لقد جاء إذًا؟ هل عاد لإزعاجك؟"

"تخلصت من ذلك الدساس بعد يومين من مغادرتك، يا صغيري.. لا تشغل بالك به."

"هل قال إلى أين سيذهب؟"

لكن ما إن خرج السؤال من فمه حتى أطلق الهاتف صرخةً إلكترونيةً مريعة، صفيرًا يخترق الرأس كالمسمار.

انتزع جاك السماعة بعيدًا عن أذنه، مكشرًا وجهه متألمًا، كان الضجيج عاليًا حتى إنّ من يدخل الممر كان ليظنه انفجارًا في الأجهزة.

صرخ..

"أمي!"

وقرّب السماعة من رأسه قدر ما استطاع.

اشتدّ الصفير حتى بدا كجهاز راديو عالقٍ بين تردّدين مرفوعٍ إلى أقصى درجة.

ثم انقطع الخط فجأة.

أعاد جاك السماعة إلى أذنه، فلم يسمع سوى الصمت الأسود، المميت...

قال متوجسًا وهو يحرك المقبض.. «مرحبًا؟!»

كان الصمت يضغط على أذنه كجدار.

وفجأة، وكأن حركته هي من أعادت الحياة، عادت نغمة الاتصال، نغمة النظام والعقل.

مدّ يده إلى جيبه يبحث عن عملة أخرى، وهو ممسكٌ بالسماعة بيده اليسرى...

لكنه تجمّد في مكانه حين سمع النغمة تنقطع ثانيةً، وتنزلق إلى فراغٍ عميق.

وجاء الصوت، واضحًا كأنه يقف إلى جواره

"ارجع إلى البيت يا جاك".

صوت مورغان سلوت، قاطعًا الهواء كالمبضع.

"ارجع قبل أن نضطر نحن لإعادتك. أنت الآن قاتل، أليس

كذلك؟ قاتل.. لذا لن نمنحك فرصًا أخرى.. ارجع إلى المنتجع في نيوهامبشر... وإلا فستعود في كيس."

ثم سمع نقرة انقطاع الخط.

أسقط جاك السماعة، فتدلت للحظة على أسلاكها قبل أن تتحرر وتسقط أرضًا بصوتٍ مكتومٍ ثقيل.

انفتح باب الحمام خلفه بعنف، وصرخ صوتٌ شاب

"يا إلهي!"

التفت جاك، فرأى فتىً في العشرين تقريبًا، شعره مقصوص كالعسكريين، يرتدي مئزرًا أبيض وربطة عنق أحد موظفي المتاجر.

قال جاك سريعًا

"لم أفعل شيئًا! حصل هذا وحده!"

ظلّ الفتى يحدّق به لحظة مذهولًا، ثم تحرّك كأنه سيهرب، وراح يمرّر يديه على رأسه المرتبك.

تراجع جاك بخطواتٍ حذرة إلى الخلف، ثم بدأ يبتعد في الممر.

ولمّا كان في منتصف السلم المتحرك، سمع الفتى يصرخ

"سيد أولافسون! الهاتف، يا سيد أولافسون!"

فركض جاك بكل ما أوتي من خوف.

في الخارج، كان الهواء مشرقًا، رطبًا على غير المتوقع..

سار جاك مترنحًا فوق الرصيف، مشوش الذهن، وعلى بُعد نصف ميل، عبر ساحة السيارات الواسعة، كانت سيارة شرطة بيضاء وسوداء تقترب من المول.

أدار جسده جانبًا، وبدأ يمشي بمحاذاة الطريق.

وفي الأمام، رأى أسرة مكونة من ستة أفراد تحاول إدخال كرسيّ طويل إلى داخل المول من بابٍ آخر..

راقبهم جاك ببطء؛ الأب والأم يرفعان الكرسي مائلًا بينما الأطفال الصغار يعيقونهم أو يتشبثون بالمقعد في محاولات يائسة للمساعدة.

وأخيرًا، في هيئةٍ تشبه صورة الجنود الذين يرفعون العلم في جزيرة إيوو جيما، تمكنوا من إدخال الكرسي، بينما الشرطي يدور بسيارته في الموقف بخمول.

وبجوار الباب الذي دخلت منه العائلة، جلس رجلٌ أسود عجوز على صندوقٍ خشبي، يحتضن غيتارًا بين يديه، وحين اقترب جاك ببطء، لمح الكوب المعدني عند قدميه.

كان وجه الرجل محجوبًا بنظاراتٍ شمسيةٍ متسخة، وقبعةٍ عتيقةٍ من الصوف الباهت كسترته الجينز المجعدة كجلد الفيل.

مال جاك مبتعدًا إلى حافة الرصيف ليترك له مسافة احترام، فرأى ورقة كرتونية بيضاء قديمة معلقة في عنقه، كُتبت

عليها حروفٌ كبيرة مهزوزة..

(أعمى منذ الولادة

أعزف أي أغنية

ليباركك الله)

وحين كاد أن يتجاوزه سمع صوته الخافت المبحوح يتمتم..

"نعم، يا عزيزي..."

الفصل الخامس عشر
أغنيات كرة الجليد
1

نظر جاك نحو الرجل الأسود، وقلبه يخفق بعنف في صدره.

"سبيدي؟"

تحسس الرجل الأسود كوبه، ثم رفعه وهزّه، فصدر صوت خافت لعملات قليلة تتدحرج في قاعه.

إنه سبيدي.. خلف تلك النظارات الداكنة، إنه سبيدي...

كان جاك واثقاً من ذلك، لكن بعد لحظة واحدة، كان على القدر نفسه من اليقين أنه ليس سبيدي!

بالتأكيد فسبيدي لم يكن ذا كتفين عريضين وبنية مربعة، بل إن كتفاه منحنِيَتين قليلاً، حتى إن صدره يبدوا غائرًا بعض الشيء.

إنه أشبه بـ «ميسيسيبي جون هيرت» لا بـ «راي تشارلز».

لكنه سيعرف الحقيقة تماماً لو أن الرجل خلع تلك النظارات.

فتح جاك فمه لينطق باسم سبيدي، وفجأة بدأ العجوز يعزف تحركت أصابعه المجعّدة، بلون جوزٍ عتيقٍ مُعتنيٍ به بدهنِ أمين دون أن يُلمّع يوماً، بخفةٍ ورشاقةٍ عازفة على الأوتار، كان بارعًا، ينتقي النغمات بأصابعه في سلاسة،

وبعد لحظة تعرّف جاك على اللحن لقد سمعه من قبل في أحد أسطوانات والده القديمة، من ألبوم لشركة فانغارد لميسيسيبي جون هيرت بعنوان توداي.

وعلى الرغم من أن الرجل الكفيف لم يُغنّ، فإن جاك كان يعرف كلمات الأغنية..

يا أصدقاء الطيبين، أليس الأمر مُرًّا؟

أن تروا العجوز لويس في مقبرةٍ جديدة،

لقد حملته الملائكة بعيداً...

خرج لاعب كرة القدم الأشقر وأميراته الثلاثة من الأبواب الرئيسية للمركز التجاري، كل واحدة منهن تتناول الآيس كريم، أما «مستر أمريكا» فحمل بين ساعديه كلبتي تشيلي.

ساروا بخطى واثقة لحيث يقف جاك، لكن جاك، الذي كان مأخوذاً تماماً بالعجوز الأسود، لم ينتبه لوجودهم فلقد شُل عقله أمام احتمالية أن يكون هذا الشخص الذي أمامه هو سبيدي... وأن سبيدي بطريقة ما قد قرأ أفكاره.

وإلا فكيف بدأ هذا الرجل في عزف مقطوعة لـ «ميسيسيبي جون هيرت» في اللحظة نفسها التي خطر فيها لجاك أن سبيدي يشبه هذا الموسيقي بالذات؟

بل والأغرب، أن الأغنية نفسها تحتوي على اسمه المستعار على الطريق؟

نقل لاعب كرة القدم كلبتي التشيلي إلى يده اليسرى، وصفع جاك على ظهره بيمناه بأقصى ما يستطيع.

اصطكت أسنان جاك على لسانه كفخٍّ فولاذيٍّ، وأحسّ بألمٍ حادٍّ مزقه كالجحيم.

وقال بازدراء..

"اهدأ يا رائحة البول."

فانفجرت أميراته ضاحكات مهللات

تعثّر جاك إلى الأمام، وركل كوب الرجل الكفيف دون قصد، فتناثرت العملات المعدنية، وتدحرج بعضها على الرصيف.

توقّف اللحن الرقيق لأنغام البلوز فجأة على نغمةٍ حادّةٍ متنافرة...

كان «مستر أمريكا» وأميراته الصغيرات الثلاثة قد ابتعدوا بالفعل، بينما ظلّ جاك يحدّق خلفهم، يغلي في صدره ذلك الشعور المألوف بالعجز الممزوج بالكراهية.

هكذا يكون الإحساس حين تكون وحيداً، محض فتى لم يبلغ صلابة الرجال، فتصير تحت رحمة الجميع، فريسةً لأيّ كان... من مختلٍّ عقليٍّ مثل أوزموند، إلى شيخٍ لوثريٍّ متجهّم مثل إلبِرت بالاماونتن، الذي يرى أن «عامل اليومية المثالي» هو من يكدّ ويغوص في حقولِ لزجة لمدة اثنتي عشرة ساعةً متواصلةً تحت مطرٍ باردٍ لا ينقطع في تشرين الأول، ثم يجلس في ساعة الغداء منتصب الظهر داخل شاحنة

«إنترناشونال هارفستر» يأكل شطائر البصل ويقرأ سفر أيوب.

لم تكن لدى جاك رغبة في «الانتقام» منهم، ومع ذلك ساوره إحساس غريب بأنه إن أراد، لفعلها... كأن شيئاً ما يتنامى في داخله، نوع من الطاقة، شحنةٌ كهربائيةٌ خفيّة.

وأحياناً شعر أن الناس علموا بما تختلجه نفسه، تجلى ذلك على وجوههم كلما وقعت عيونهم عليه.

لكنه لم يكن يريد أن ينال من أحداً؛ كل ما أراده أن يُترك وشأنه.

إنه...

كان الرجل الكفيف يتحسّس الأرض حوله باحثاً عن النقود المتناثرة، تتحرّك يداه الممتلئتان بلطفٍ فوق الرصيف، كأنهما تقرآن تضاريسه.

عثر على قطعة عشرة سنتات، أعاد نصب كوبه، وأسقطها فيه.

طنّ!

ومن بعيد سمع جاك إحدى الأميرات تقول بصوتٍ متهكّم..

"لماذا يسمحون لأمثاله بالبقاء هنا؟ إنه مقزّز، أتعلمين؟"

وتردّد صدى آخر، أضعف وأشدّ ابتذالاً..

"نعم، بالتأكيد!"

جثا جاك على ركبتيه وبدأ يساعد الرجل الكفيف، في التقاط العملات من الأرض ويضعها داخل كوبه المعدني.

ومن هذا القرب، شمّ رائحة العرق الحامض والعفن، يمتزجان بعطرٍ باهتٍ حلوٍ يشبه رائحة الذرة.

تجنبهما المتسوقون الأنيقون في المول بمسافةٍ محسوبة، كأن الهواء حولهما صار غريباً عن عالمهم.

قال الرجل الكفيف بصوتٍ أجشّ متقطّعٍ كأنه صدى يتردد من بعيد..

"شكرًا... شكرًا... باركك الله... الله يباركك، شكرًا لك."

شم جاك في أنفاسه رائحة فاسدة تشبه بقايا طعامٍ حارٍّ قديم.

إنه سبيدي...

لا ليس هو...

حيرة دفعته ليتكلم أخيرًا خاصة بعد تذكّره كم بقيَ معه من الشراب السحري الذي يمنحه القدرة على التنقل بين العوالم.. فبالكاد لم يبق منه سوى جرعتين.

لم يكن يعلم مدى مقدرته، بعدما حدث في أنغولا، على السفر مجددًا في تلك العوالم الغريبة، رغم تصميمه على إنقاذ حياة أمه، وذلك يعني أنه ربما يُضطر إلى العودة...

ومهما تكن التعويذة التي يبحث عنها، فقد يضطر إلى

اجتياز العالم الآخر ليجدها...

قال جاك بصوتٍ متردد..

"سبيدي؟"

أجابه العجوز دون أن يرفع رأسه..

'باركك الله... شكرًا لك... الله يباركك... ألم أسمع قطعة تقع هناك؟" وأشار بإصبعه إلى ناحيةٍ من الرصيف.

قال جاك متلهفًا..

"سبيدي! أنا جاك!"

رد الرجل وهو يواصل تحسس الأرض..

"لا يوجد أحد هنا اسمه سبيدي يا بني... أوه.. يا سيدي."

كانت يداه تتحركان على الإسفلت بخفةٍ حذرة، كأنه يقرأ موضع النقود بأنامله.

عثر على قطعة من خمسة سنتات، فألقاها في الكوب، ثم انزلقت يده الأخرى فلامست حذاء امرأةٍ شابةٍ أنيقةٍ كانت تمرّ بجواره..

تشنّج وجهها الجميل الفارغ باشمئزازٍ ظاهر، وابتعدت عنه بخطوةٍ سريعة في إطاحة قوية منها بلمسته المهينة.

التقط جاك آخر قطعة نقدية من القناة الجانبية لتصريف المياه، كانت دولارًا فضيًا عتيقًا كبيرًا، منقوشًا عليه وجه

سيدة الحرية.

فاضت الدموع من عينيه، سالت على وجهه المتّسخ، ومسحها بذراعٍ مرتجف...

باكيًا ڤيلكه، ووايلد، وهاجن، ودايفي، وهايدل، وأمّه، ولورا ديلوسيّان، ابن الحوذي(30) الذي وُجد ميتًا على الطريق بجيوب منهوبة...

لكن أكثر من كل أولئك، كان يبكي نفسه.

لقد سئم السفر، وسئم الطريق...

ربما صارت تلك الرحلة هي رحلة الأحلام لو قطعها في سيارة فاخرة،

لكن حين تُجبر على قطعها وحيدًا، تلوّح بإبهامك طلبًا لمواصلة رخيصة، وتروى قصتك المكرّرة حتى تبلى،

حين تصبح تحت رحمة الجميع وفريسةً لأيّ كان،

فهي ليست إلا رحلة الآلام...

شعر جاك أنه قد ذاق من هذا الاختبار الثقيل ما يكفي...

ولا سبيل للتطهر سوى البكاء...

فإن بكى، افترس السرطان أمّه،

وربما قام العم مورغان بافتراسه...

قال جاك من بين نحيبه..»لا أظن أنني أستطيع فعلها يا

سبيدي، لا أظن ذلك، يا رجل».

مدّ الأعمى يده يتحسّس مكان جاك بدلًا من النقود المبعثرة، وتلك الأنامل اللطيفة القارئة عثرت أخيرًا على ذراعه وأطبقت عليها.. أحسّ جاك بخشونة الجلد المتصلّب في أطراف أصابعه، وجذبه الرجل إليه، في دوامة الروائح المتماهية بين العرق والحرارة وبقايا الفلفل القديم، فأراح جاك وجهه على صدره.

قال الأعمى بصوتٍ متهدّج.. «ياه، يا فتى، لا أعرف أحدًا بهذا الاسم، لكن يبدو أنك تُحمّل «سبيدي» هذا ما لا يُطاق. أنت...»

فقاطعه جاك وهو ينتحب.. «أفتقد أمي يا سبيدي، وسلوت يطاردني. كان هو المتصل في الهاتف داخل المركز التجاري، تواصل معي بنفسه، لكن ذلك ليس أسوأ ما حدث... الأسوأ كان في أنغولا... في أبراج رينبيرد... الزلزال... خمسة رجال... أنا، أنا من فعلت ذلك يا سبيدي، أنا من قتلت أولئك الرجال عندما انتقلت إلى هذا العالم، قتلتهم مثلما قتل أبي ومورغان سلوت جيري بليدسو ذات مرة!»

ها قد خرج ما كان يختنق في صدره. لفظ حجر الذنب الذي سد حلقه وكاد أن يختنق به، ثم انفجر بالبكاء، لكن بكاءه هذه المرة لم يكن خوفًا بل راحة.. لقد قالها... لقد اعترف..صار قاتلًا...

صرخ الرجل الأسود متهلّلًا.. «هون عليك! يا فتى، إنك تحمل على ظهرك حملاً ثقيلًا، ثقيلًا جدًا! لِمَ لا تُلقي ببعضه عنك؟»

همس جاك..»لقد قتلتهم... ثيلكه، وايلد، هاغن، ديفي...»

قال الأعمى.. «لو كان صديقك سبيدي هنا أيًا كان أو أينما يكون في هذا العالم الواسع لقال لك إنك لا تستطيع حمل العالم على كتفيك يا بني.. لا أحد يستطيع.. إن حاولت، فسينكسر ظهرك أولًا، ثم تتحطم روحك من بعده».

قال جاك بصوتٍ مبحوح.. «لقد قتلت...»

فقاطعه الأعمى.. «هل وضعت مسدسًا على رؤوسهم وأطلقت النار؟»

"لا... الزلزال... كنت قد انتقلت..."

قاطعه الأعمى وهو يهز رأسه.. «لا أفهم شيئا من هذا الكلام...»

ابتعد جاك قليلًا وحدّق في وجه الرجل الأسود المليء بالتجاعيد بعينين يملؤهما الفضول، لكن الأعمى كان قد أدار رأسه نحو ساحة الموقف، وإن كان أعمى حقًا، فقد ميّز صوت محرّك سيارة الشرطة من بين الأصوات الكثيرة وهي تقترب، لأن نظره اتجه إليها مباشرة..

قال الأعمى.. «كل ما افهمه هو أنك تملك مخيلة متسعة جدًا بشأن «القتل»، ربما لو سقط رجلٌ ميتًا بنوبة قلبية وهو

يمر بجانبنا ونحن جالسان هنا، لظننت أنك قتلته. ولقُلت «يا إلهي، لقد قتلت هذا الرجل لأنني جلست هنا، يا ويلي ويا حزني ويا دووووم ويا غووووم!»»

وأثناء قوله هذه العبارات الساخرة، بدّل بين أوتار آلته من «صول» إلى «دو» ثم عاد إلى «صول» مرة أخرى، ثم ضحك راضيًا عن نفسه.

قال جاك بصوت متهدّج.. «سبيدي...»

فأجابه الأعمى مبتسمًا بأسنانه الصفراء المعوجّة.. «لا شيء «سريع» هنا يا فتى، إلا سرعة الناس في لوم أنفسهم على أشياء بدأها غيرهم.. ربما أنت هارب... وربما هناك من يطاردك».

ثم ضرب وترًا من مقام «صول».

وأضاف وهو ينتقل إلى مقام «دو» بحركة خفيفة جعلت جاك يبتسم رغم حزنه.

"وربما تكون أنت فقط غافلاً قليلًا عن الحقيقة".

عاد إلى «صول» ووضع غيتاره جانبًا، بينما كان شرطيان في سيارة الدورية يقلبان قطعة نقد ليقرّرا أيّهما سيتولّى مهمة إقناع «العجوز المتجمد في مكانه» بالدخول إلى السيارة طوعًا.

قال الأعمى ضاحكًا وهو يردد في تهكم.. «يا دووووم ويا غووووم ويا هذا ويا ذاك...»

ثم أضاف وهو يهز رأسه.. «لكن، من ذا الذي يعرف ما الذي يمكن أن يحدث إذا فعل شيئًا ما؟ لا أحدا لو فكّر الناس بكل ما قد يحدث، لبقوا في بيوتهم خائفين من الخروج! أنا لا أعرف مشاكلك يا فتى، ولا أريد أن أعرفها.. قد تكون مجنونًا وأنت تتحدث عن الزلازل وما إلى ذلك، لكنك ساعدتني في جمع نقودي ولم تسرق شيئًا.. وقد أحصيت كل «طنطنة» منها لذا سأعطيك نصيحة (هناك أمور لا يمكن أن تمنعها.. أحيانًا يُقتل أناس لأن أحدهم فعل شيئًا، لكن لو لم يفعل ذلك الشيء، لكان عدد القتلى أكبر بكثير.)»

مال الأعمى نحو جاك وهمس له.. «أتفهم إلى أين أقودك، يا فتى؟»

انخفضت نظارته السوداء المتسخة قليلًا وكأنها تنظر إلى جاك الذي شعر براحةٍ عميقةٍ تتردد في صدره.. نعم، لقد فهم.. كان الرجل الأعمى يتحدث عن الخيارات الصعبة، تلك المواقف التي تضطر فيها إلى الفعل، حتى لو بدا فعلك ذنبًا.. مشيرًا، بطريقته الغامضة، إلى أن هناك فرقًا بين الاختيار الصعب والجريمة.. وربما، فقط ربما، لم يكن المجرم هنا أمامه... بل ذاك الذي قال له قبل خمس دقائق «ارجع إلى بيتك، أيها الفتى.»

قال الرجل الأعمى، ضاربًا وترًا داكنًا من مقام الري الصغير

"ربما كل شيء في هذا العالم يخدم الرب، كما أخبرتني أمي،

وربما أخبرتك أمك أيضًا بذلك، لو كانت امرأة مؤمنة.. يمكن أن نظن أننا نفعل شيئًا، بينما نحن في الحقيقة نفعل شيئًا آخر تمامًا.. الكتاب المقدس يقول إن كل الأشياء، حتى تلك التي تبدو شريرة، تخدم مشيئة الرب.. ما رأيك يا فتى؟"

رد جاك بصدق: «لا أدري.»

كان رأسه يعجّ بالارتباك، وما عليه إلا أن يغمض عينيه حتى يرى الهاتف يُنتزع من الجدار ويتهدل بأسلاكه كدميةٍ غريبةٍ معلّقة.

قال الأعمى.. «يبدو لي أنك تدع ما حدث يدفعك إلى الشرب.»

"ماذا؟" سأل جاك مذهولًا.

ثم خطر له فجأة.. (لقد ظننت في البداية أن سبيدي يشبه موسيقي البلوز ميسيسيبي جون هيرت، وهذا الرجل بدأ بالفعل يعزف أغنية له... والآن يتحدث عن العصير السحري... إنه يقصد ذلك فعلاً، لكنه يتحاشى التصريح... لا بد أنه هو!)

قال جاك بصوتٍ خافتٍ متوجّس.. «أأنت قارئ أفكار؟ هل تعلمت هذا في الأراضي الأخرى، يا سبيدي؟»

ابتسم الأعمى ورد «لا أعرف شيئًا عن قراءة الأفكار، لكن أنواري انطفأت منذ اثنين وأربعين عامًا، يا فتى، ومنذ ذلك الحين تولّى أنفي وأذناي بعض ما فقدته عيناي.. أستطيع أن أشمّ رائحة النبيذ الرخيص منك، يا بني، كأنك غسلت شعرك

به!»

تسلّل إلى جاك شعورٌ غريبٌ بالذنب والدوار... ذلك الإحساس نفسه الذي كان يصيبه كلما اتُّهم بفعلٍ لم يرتكبه، أو كان بريئًا منه... أو بريئًا إلى حدٍّ ما.. لم يفعل أكثر من لمس الزجاجة شبه الفارغة منذ عودته إلى هذا العالم، ومع ذلك، فإن مجرد لمسها كان يملأه بالرعب، فقد غدت في نظره شيئًا مقدّسًا، مهيبًا كما لو إنها شظيةٌ من الصليب الحقيقي، أو عظمةٌ من أصبع قديس.. كانت زجاجةً سحرية... سحرها حقيقيّ، قويّ... لكنه سحرٌ جالبٌ للموت...

قال أخيرًا بصوتٍ متردّد.. «لم أشربها، أقسم.. ما بقي منها قليل جدًا... أنا فقط... لا أحبها أصلًا! لكنني أحتاج إلى المزيد منها... فقط تحسّبًا.»

ضحك الأعمى وقال وهو يومئ بيده كمن يطرد ذبابة..

"المزيد من يسوع الأرجواني؟ صبيّ في مثل سنك؟ يا إلهي! لا حاجة لأي فتى بتلك السموم في رحلته!"

"لكن..." حاول جاك الاعتراض، فقطع حديثه..

"هلمّ، سأغنّي لك شيئًا يبهجك. يبدو أنك في حاجةٍ إليه."

ثم بدأ يغنّي... وكان صوته في الغناء شيئًا آخر تمامًا.. لم يكن له علاقة بصوته في الكلام، لم يكن ذلك الصوت الهزلي بلكنة الجنوب، بل صوتٌ عميق، قويّ، آسر، كأنما يخرج من حنجرة مغنٍ محترفٍ في دار أوبرا، يلهو الآن بأغنيةٍ بسيطةٍ

من زمنٍ قديم...

اقشعر جسد جاك، إذ أُحسّ بذلك النقاء الغريب في الصوت، وبدأ المارة يلتفتون نحوه، على طول الرصيف الممتد بمحاذاة الجدار الكالح للمركز التجاري.

أنشد الأعمى بصوته المدوّي..

"حين يأتي ذاك الطائر الأحمر... العندليب الصغير يغنّي، يغنّي، يغنّي، فلن يكون بعد اليوم بكاءٌ... حين يبدأ بخفق جناحيه وغناء أغنيته العذبة القديمة..."

شعر جاك بارتجافةٍ جميلةٍ ومؤلمة في آنٍ واحد.. لقد سمع تلك الأغنية من قبل أو شيئًا يشبهها تمامًا... ثم أدرك فجأةً ما الذي جعله يشعر بذلك.. لقد كان في الصوت شيءٌ سماويّ، نادر الصفاء، كهواءٍ نقيّ إلى حدٍّ يجعلك تشمّ رائحة فجلٍ يُقتلع من الأرض على بُعد نصف ميل، إن تلك الأغنية من أغاني تين بان ألي القديمة، لكن الصوت... الصوت كان من الأراضي الأخرى.

تابع الأعمى غنائه..

"انهضْ... انهض أيها النعسان... انهضْ من فراشك... عشْ، واحببْ، واضحكْ، وكن سا..."

وفجأة، انقطع الصوت والعزف في لحظةٍ واحدة!

كان جاك يحدّق في وجه الرجل الأعمى، يحاول بعناد أن يخترق نظارته السوداء ليرى إن كانت عينا سبيدي باركر

مختبئتين خلفها، لكنّه انتبه فجأة إلى وجود شرطيّين يقفان بجانبه.

قال العازف الأعمى ببراءةٍ متصنّعة

"ما سمعتُ شيئًا، لكنّي أظنّ أني أشمّ رائحةً زرقاء."

صرخ أحد الشرطيين

"تبًّا لك يا سنوبول! تعرف أنك ممنوع من العزف في المركز التجاري! ماذا قال لك القاضي هالّاس آخر مرة؟ تبقى في وسط المدينة بين شارعي سنتر وموراال، ولا مكان آخر! يا رجل، إلى أي مدى بلغ بك الخرف؟ هل سقط قضيبك من العفن الذي أصابك من تلك المرأة قبل أن تتركك؟ بحق المسيح، إنني لا..."

فقاطعه زميله واضعًا يده على ذراعه وأشار برأسه نحو جاك، وكأنه يقول.. الصغار يسمعون كل شيء.

صاح الشرطي الأول بحدّة

"اذهب يا بني، أمك تريدك."

بدأ جاك يمشي على الرصيف.. فلم يعد يستطيع البقاء، حتى لو كان هناك ما يمكنه فعله.. كان محظوظًا لأن اهتمام الشرطيين انصرف إلى الرجل الذي نادوه «سنوبول».

لو نظرا إليه لثانيةً واحدة، لطلبا منه إثبات هويته بلا شك...

كانت حذاؤه جديدًا، نعم، لكن بقية هيئته تقول إنه فتى

متسول متعب، متسخ، مطحون. والشرطة تعرف كيف تميّز أمثاله بسهولة...

تخيّل نفسه يُلقى في سجن زينزفيل المحلي، بينما يحاول أولئك الضباط الشرفاء رجال النظام الذين يصغون كل يوم لبول هارفي ويدعمون الرئيس ريغان معرفة «ابن من يكون هذا الولد».

لا، لم يرد جاك أن يمنحه رجال الشرطة أكثر من نظرةٍ واحدةٍ عابرة.

سُمع صوت محرّكٍ يقترب بهدوءٍ منتظمٍ من خلفه.

رفع جاك حقيبته قليلًا على كتفيه، وانحنى ناظرًا إلى حذائه الجديد كأنه يجد فيه غاية الاهتمام، ومن طرف عينيه، لمح سيارة الشرطة تمرّ ببطءٍ بجانبه.

كان الرجل الأعمى جالسًا في المقعد الخلفي، وعنق غيتاره بارزٌ بجانبه،

وحين انحرفت السيارة إلى طريق الخروج من الموقف، أدار الأعمى رأسه فجأة، ونظر من النافذة الخلفية مباشرةً نحو جاك...

... وبرغم أن جاك لم يكن يستطيع أن يرى ما خلف النظارة السوداء المتسخة، إلا أنه علم تمامًا أن ليستر «سبيدي» باركر قد غمز له بعينه.

2

تمكّن جاك من أن يُبقي الأفكار المزعجة بعيدةً عن ذهنه حتى بلغ مخرج الطريق السريع من جديد. وقف هناك يتأمل اللافتات التي بدت له وكأنها آخر ما بقيَ واضحًا في عالمٍ.. أو ربما عوالم؟ غمرها ضباب رماديّ مجنون... أحسّ بغيمة سوداء كئيبة تدور من حوله، تتسرّب إلى داخله، محاولة تحطيم عزيمته...

وقد أدرك أن الحنين إلى الوطن له يدٌ في هذه الكآبة، لكن هذا الحنين بدا الآن تافهًا بالمقارنة بما يشعر به؛ طفوليًا، غِرًّا، لا وزن له... فلقد غمره شعور قاسٍ بالتيه، وكأنه بلا جذور، ولا ما يتمسّك به في هذا الوجود...

وبينما هو واقفًا بجانب اللافتات، يُتابع حركة السيارات على الطريق السريع، داهمه إحساس بأنه على حافة الانتحار.. لطالما أبقاه الأمل في لقاء «ريتشارد سلوت» حيًا على المضيّ قدمًا، وكان وإن لم يعترف بذلك لنفسه صراحةً... يراوده خيالٌ بأن ريتشارد قد ينضمّ إليه في رحلته غربًا، وليس غريبًا.. فلقد قاما «سوير» و«سلوت» معًا برحلاتٍ عجيبة كهذه من قبل... أليس كذلك؟

لكنّ العمل الشاقّ في مزرعة «بالاماونتن»، والأحداث الغريبة في مركز «باكآي مول»، جعلت ذلك الأمل يبدو ذهبًا كذوب ذب لمعة خادعة للبصر، حتى تدرك زيفها...

وسمع صوتًا داخليًا يهمس له

"ارجع إلى بيتك يا جاكي، لقد هُزمت، إن واصلت السير، فسينهالون عليك ضربًا حتى الموت... وفي المرة القادمة قد لا يموت خمسون شخصًا فحسب، بل خمسمائة."

نظر جاك إلى اللافتتين

الطريق السريع 70 شرقًا.

الطريق السريع 70 غربًا.

وفجأة، مدّ يده إلى جيبه وأخرج القطعة النقدية تلك التي كانت دولارًا فضيًا في هذا العالم، قال في نفسه.. «دَع الآلهة.. أيًا كانت.. تحسم هذا الأمر نهائيًا.. لم أعُد أملك القوة لأقرر بنفسي.» ورغم ظهره الذي مازال يؤلمه إثر صفعة «مستر أمريكا».

لكنه عزم مردّدًا في نفسه «إن جاءت الصورة (الوجه) فسأمضي غربًا، وإن جاءت الكتابة (الذيل) فسأعود أدراجي شرقًا إلى الوطن.. ولا رجعة بعد القرار.»

وقف على التراب الرخو على جانب الطريق، وقذف القطعة النقدية في هواء أكتوبر البارد.. ارتفعت وهي تتقلّب في الفضاء، ثُومض تحت أشعة الشمس فأمال رأسه ليتابعها بعينيه.

مرّت عائلة في سيارةٍ قديمةٍ من طراز «ستيشن واغن»، وتوقّف شجارهم للحظة بينما نظروا إليه بدهشة.. كان

السائق محاسبًا أصلع الرأس من أولئك الذين يستيقظون أحيانًا منتصف الليل خائفين من ألمٍ مفاجئ في صدورهم وذراعهم الأيسر، وقد تسلّلت إلى رأسه سلسلة أفكارٍ سخيفة.. مغامرة.. خطر.. سعيٍ نبيل.. أحلام.. خوفٍ.. ومجدٍ.. هزّ رأسه نافضًا كل شيء عن ذهنه، وحدّق في المرآة الخلفية ليرى الفتى الواقف على جانب الطريق وهو ينحني ليتأمل شيئًا.. «يا للمسيح»، قال في نفسه، كفّ عن ذلك يا لاري، تبدو كأنك بطل في رواية مغامراتٍ للأطفال!

ثم اندفع «لاري» بسيارته إلى الطريق، رفع سرعتها حتى بلغت السبعين، ونسي أمر الفتى بثيابه المتسخة على حافة الطريق، إن وصل إلى المنزل قبل الثالثة، سيتمكّن من مشاهدة نزال بطولة الوزن المتوسط على قناة ESPN.

عادت القطعة النقدية إلى الأرض، انحنى جاك نحوها وكانت «صورة الوجه» للأعلى... لكن هذا ليس كل شيء.

فالمرأة المنقوشة على وجه الدولار لم تكن «سيدة الحرية»، بل كانت «لورا ديلوسيَن»، ملكة الأقاليم.. يا إلهي، كم اختلف وجهها هذا عن ذاك الوجه الشاحب النائم الذي رآه في الجناح، محاطة بالممرضات القلِقات بثيابهنّ البيضاء المتطايرة! الآن كانت مفعمة بالحياة، يقظة، مهيبة الجمال.. جمالها لم يكن كلاسيكيًا صارمًا؛ فخطّ فكّها لم يكن حادًا بما يكفي، وعظم وجنتها بدا ليّنًا قليلًا، لكن سحرها كان في تلك الهالة الملكية، وفي الإحساس الواضح بأنها امرأة رحيمة بقدر ما هي قوية.

وأوه، كم يشبه وجهها وجه أمّه!

امتلأت عينا جاك بالدموع، فرمش سريعًا حتى لا تنهمر.. لقد بكى بما يكفي هذا اليوم، وكان يعلم أن البكاء لن يغيّر شيئًا.. الآن حصل على إجابته، ولم تكن تستحق دموعًا جديدة.

وحين فتح عينيه ثانية، كانت «لورا ديلوسيَن» قد اختفت، وعادت «سيدة الحرية» إلى مكانها على وجه الدولار.

لكن جاك عرف أن الرسالة وصلته.

انحنى، التقط القطعة من التراب، وضعها في جيبه، ثم مضى بخطًى ثابتةٍ نحو المنحدر الغربي من الطريق السريع رقم 70، ماضيًا إلى حيث يُقدّر له أن يواصل رحلته.

3

بعد يومٍ واحد...

سماءٌ ملبّدة بغيومٍ بيضاء تُنبئ بقدوم مطرٍ باردٍ، حيث لم تعد الحدود بين أوهايو وإنديانا تبعد سوى مسافةٍ يسيرة، «كوعدٌ على طرف اللسان» لا أكثر...

"هنا" حيث شريط الغابة المتشابكة خلف استراحة "لويسبرغ" على الطريق السريع 70-I.

وقف جاك بين الأشجار، متخفيًا أو هكذا تمنى... ينتظر بصبرٍ آملاً أن يعود الرجل الأصلع ذو الصوت الجهير إلى سيارته من طراز «شيفي نوفا» ويمضي به قبل هطول الأمطار، فقد كان البرد ينخر في عظامه، وأي قطرة إضافية كانت ستزيد الأمر سوءًا... سُد أنفه وصوته صار مبحوحًا منذ الصباح، حتى ظنّ أنه على وشك أن يُصاب بنزلة بردٍ.

ذلك الرجل الأصلع ذو الصوت الأصلع (كما بدت هيئته وصوته معًا) قال إن اسمه «إيموري و. لايت» التقط جاك في الحادية عشرة تقريبًا، شمال دايتون، ومنذ اللحظة الأولى شعر جاك بتلك الومضة المألوفة من الانقباض في معدته... إحساسٌ ثقيل، غائر، ينبئ بسوء الطالع.

لقد أقلّه من قبل.

في «فيرمونت» كان اسمه «توم فيرغسون»، وادّعى أنه

مشرف على مصنعٍ للأحذية.

وفي «بنسلفانيا» أصبح «بوب دارنت» (تقريبًا مثل المغني اللي غنّى «سبليش سبلاش»، آه-ها-ها-ها)، وادّعى أنه مدير إدارة المدارس الثانوية في المقاطعة..

أما الآن فقد عاد إلى الظهور باسم «إيموري و. لايت»، رئيس بنك «فيرست ميركنتيل» في بلدة «بارادايس فولز» بولاية أوهايو.

تبدّلت الأسماء والوظائف، وتبدّلت الأشكال أيضًا..

"فيرغسون" كان نحيفًا أسمر،

"دارنت" ممتلئًا ورديًا كطفلٍ خارجٍ للتوّ من حمّامه،

أما «إيموري و. لايت» فكان ضخمًا ببنيةٍ بوميةٍ شاحبة، عيناه تشبهان بيضتين مسلوقتين خلف نظارته عديمة الإطار.

لكن جاك أدرك أن كلّ هذه الفروق لم تكن سوى أقنعةٍ سطحية.. فهؤلاء جميعًا كانوا الشخص ذاته... ذات الرجل...

كلهم أصغوا إلى «القصة» بشغفٍ ولهفةٍ واحدة.

كلهم سألوا الأسئلة نفسها..

"هل ترك خلفه فتاة؟ هل أُحبّ من قبل؟"

ثم تأتي اللحظة نفسها دائمًا... اليد الكبيرة، الصلعاء، تضع نفسها على فخذه.

وعندما يلتفت إلى «فيرغسون / دارنت / لايت»، يرى النظرة ذاتها في العيون.. مزيجٌ من أملٍ مختل وذنبٍ مجنون، مع عرقٍ يترقرق على الشفة العليا.. (وفي حالة «دارنت» لمع العرق من خلال شواربه الكثّة كعيونٍ بيضاء صغيرة تتلصص من بين شجيراتٍ سوداء).

قال له «فيرغسون»

"تحبّ تكسب عشرة دولارات؟"

ثم رفعها «دارنت» إلى عشرين.

أما «لايت»، بصوته الجهير المهتزّ بين طبقاتٍ مرتعشة، فقال..

" يمكنك الاستفادة بخمسين دولار يا سيد لويس فارن، اخبئ دائمًا خمسين دولارا في حذائي الأيسر، وأحب أن اهبها إليك، يا سيدي لويس... بعد أن نذهب سويًا لحظيرة خالية قريبة من راندولف"

ولم يخطر ببال جاك أن ازدياد المبلغ المعروض في كل مرّة قد يكون له علاقةٌ بما تغيّر فيه هو نفسه خلال مغامراته، لم يكن فتىً ميّالًا للتأمل، ولا يعرف شيئا عن التحليل الذاتي...

لكنه تعلّم بسرعة كيف يتعامل مع أمثال «إيموري و. لايت».

تجربته الأولى حين كان «لايت» يدّعي اسم «توم فيرغسون» علّمته أن الحذر خيرٌ من البطولة.

فعندما وضع «فيرغسون» يده على فخذ جاك، أجابه تلقائيًا بروحٍ كاليفورنيةٍ معتادة على رؤية المثليين كجزءٍ من المشهد العام..

"لا، شكرًا، أنا مستقيم تمامًا."

كان قد تعرّض لمثل تلك اللمسات من قبل، غالبًا في دور السينما، بل إن بائعًا في متجر ملابس رجالية في «نورث هوليوود» عرض عليه بابتسامةٍ أن «يُرضيه» داخل غرفة القياس، وحين رفض جاك بأدبٍ أجابه البائع ببساطة..

"حسنًا، يمكنك تجربة السترة الزرقاء"

كانت هذه مضايقاتٍ يتعلّم فتىً وسيم في الثانية عشرة من عمره في لوس أنجلوس أن يتعامل معها، كما تتعلم المرأة الجميلة أن تتحمّل نظراتٍ ولمساتٍ طائشة في المترو دون أن تفسد يومها..

أما العروض الصريحة، مثل عرض «فيرغسون»، فكانت أهون من «اللمسات المباغتة» من الخلف، إذ يمكن تجاهلها تمامًا.

هكذا كانت الحال فى كاليفورنيا... أما هنا، فى الشرق، فى هذا الريف البائس، فالأمر مختلف تمامًا.

فقد توقّف «فيرغسون» فجأةً وهو يصرخ، دارت إطارات سيارته على الإسفلت، تاركةً أربعين ياردة من المطاط المحروق وغيمةً من الغبار.

صرخ بجنون..

"أتتهمني بأنني شاذ؟! أنا لست شاذًا! يا يسوع! أأتوقف لتوصيل ولد صغير فيتهمني بالقذارة!»

نظر إليه جاك مذهولًا.. بعد ضربة مفاجئة على رأسه من الاصطدام بلوحة القيادة جعلته يترنح.. قبل لحظاتٍ كان الرجل ينظر إليه بعينين دافئتين ذائبتين، والآن يحدّق فيه بعينين مجنونتين توحيان بالقتل.

"انزل! انزل فورًا!" صرخ "فيرغسون". "أنت الشاذ! لست أنا! أنا متزوج! ولي أبناء! وربما كان لي أبناء آخرين متفرقين في نصف نيو إنجلاند! أنا رجل، بينما أنت لست رجل! أنزل حالا يا ابن الكلب."

كان جاك مرعوبًا كما لم يَفزع هكذا منذ لقائه مع «أوزموند»..

قفز من السيارة، بينما انطلق «فيرغسون» مجددًا، قذفه بالحصى، وهو ما زال يصرخ.

اتكأ جاك على حائطٍ حجريٍّ قريب، ثم بدأت ضحكاته تتصاعد.. ضحك بجنون حتى سالت دموعه، وفي لحظةٍ من الصفاء قرر أن يضع سياسة واضحة يتبعها إلى أن يخرج من هذه البراري.

كان أبوه يقول دائمًا.. « كل مشكلة مزمنة تستدعي سياسة لحلها»

وقد صدّق «مورغان» على رأيه بحرارة، فقرر جاك ألا يدع ذلك يثنيه.

وقد نجحت سياسته جيدًا مع «بوب دارنت»، ولم يكن هناك داعٍ لاعتقاد أنها لن تنجح مع «إيموري لايت» أيضًا...

لكن في الوقت الراهن، كان البرد ينهشه وأنفه يسيل..

تمنّى لو ينتهي الرجل من جولاته ويغادر.

ومن بين الأشجار رآه يتسكع هناك، يمشي جيئةً وذهابًا، ويداه في جيبيه، ورأسه الأصلع يلمع تحت سماءٍ كعظمة بيضاء.

أخذت الشاحنات الضخمة تمرّ على الطريق، فامتلئ الجوّ برائحة وقود الديزل المحترق.

بينما الغابة المحيطة مدمّرة كغيرها من الغابات قرب استراحات الطرق السريعة.

أكياس «دوريتوس» فارغة، صناديق «بيغ ماك» مهروسة، علب «بيبسي» و«بودوايزر» مثنية تصدر خشخشة عند الركل، زجاجات مكسرة من خمر «وايلد آيرش روز» و«فايف أوكلوك جين»، قطعة من سروالٍ نسائيٍ ممزق لا تزال الفوطة اللاصقة عالقة به، واقٍ ذكريٌ متدلٍّ على غصنٍ مكسور... يا له من مهرجانٍ من الوسخ الحافل!

بل إن حتى جدران دورة المياه مغطاة بكتاباتٍ بذيئةٍ من نوعٍ يُرضي رجالًا كـ «إيموري و. لايت»:

"أُحبّ لعق الأعضاء الكبيرة."

"كن هنا الرابعة لأفضل متعةٍ في حياتك."

"افعلها بي كيفما تشاء."

بل وهناك «شاعرٌ مثليٌ طموح» كتب بيتين ملعونين..

(لتنزِلْ بَذْوزُ البَشَرِ كُلِّهِمْ

عَلَى وَجْهِي المُبتَسِمِ!)

فكّر جاك بأسَى.. «اشتقتُ إلى الأراضي... اشتقتُ إلى سمائها الزرقاء، إلى انحناءة الأفق...»

ثم أضاف بمرارة.. «لكنها تعزف دومًا نغمات «جيري بليدسو» المتغايرة...»

اقترب من دورة المياه وقد ألحّ عليه البول، فعطس ثلاث مرات متتالية، وابتلع ريقه متألمًا من وخزٍ حادٍّ في حلقه.. ها أنا أُصاب بالبرد حقًا.. رائع! لم أصل إلى إنديانا بعد، الجو خمسون فهرنهايت، المطر قادم، لا توصيلة، و...

انقطع التفكير فجأة، تجمّد في مكانه، فغر فمه من الذهول، وشعر بانقباضٍ شديدٍ أسفل صدره كأن شيئًا سحقه من الداخل.

هناك، في أحد المواقف المائلة، كانت سيارة «بي إم دبليو» خضراء داكنة اللون وقد غطاها غبار الطريق..

سيارة عمه مورغان.

لا مجال للخطأ.. اللوحات المعدنية قالتها صراحة ‹MLS›، اختصار مورغان لوثر سلوت.

يبدو أنه ساقها بسرعةٍ جنونية حتى بدت كأنها خرجت للتوّ من سباق.

لكن... إن كان قد سافر إلى نيوهامبشر بالطائرة، فكيف تكون سيارته هنا؟

صرخ ذهنه.. (محض صدفة يا جاك، مجرد صدفة...)

لكنّه رأى الرجل عند الهاتف العمومي، واقفًا بظهره إليه، مرتديًا معطفًا عسكريًا سميكًا مبطنًا بالفرو.. ثوبًا يناسب خمس درجاتٍ تحت الصفر لا خمسين.

لم يكن هناك أدنى شكٍّ في الكتفين العريضتين وذلك الجسد السمين الرخو.

بدأ الرجل يدير رأسه، ممسكًا السماعة بين كتفه وأذنه.

تراجع جاك ملتصقًا بجدار دورة المياه، ربما يبتلعه...

"هل رآني؟

لا... لا أظن... لكن...»

تذكّر ما قاله القائد فيرن»إن مورغان الآخر يستطيع أن يشمّه كما تشمّ القطة الفأر.»

وقد رآه حقًا هناك.. وجهه الأبيض الكريه يطلّ من نافذة المقصورة المتحركة.

وهذا «مورغان» أيضًا سيشمّه... لو مُنِحَ الوقت.

خطواتٌ تقترب من الزاوية.

تجمد وجه جاك من الخوف، يداه ترتجفان وهو يسحب حقيبته ثم يُسقطها، عارفًا أنه تأخر، وأن «مورغان» سيظهر في أية لحظة، يمسكه من عنقه بابتسامته الكريهة:

"مرحبًا، يا جاكي! اللعبة انتهت الآن، أليس كذلك أيها اللعين الصغير؟"

لكنّ القادم لم يكن «مورغان» بل رجل طويل يرتدي سترةً منقوشة، مرّ بجانبه بلا مبالاةٍ واتجه إلى نافورة الشراب.

"العودة... سأعود."

لم يعد هناك ذنبٌ الآن، بل مزيجٌ غريب من خوفٍ محاصرٍ وراحةٍ مفاجئة...

فتح حقيبته بتوترٍ، أخرج منها زجاجة «سبيدي»، لم يبقَ فيها سوى شبرٍ من السائل الأرجواني المتلألئ.

(ما من صبيٍّ يحتاج هذا السم ليرتحل... لكنني أحتاجه يا سبيدي... أحتاجه!)

تقلّبت الزجاجة في يده وهو يبتسم..

"سأعود... نعم، سأعود... إلى هناك."

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ واسعة تشبه ابتسامات أمسية سبتٍ صاخبة، تتحدى رمادية النهار والخوف الكامن في صدره.

ها هي الخطوات تقترب مجددًا... هذه المرّة لم يعد هناك شكّ.. «إنه العم مورغان، بثقله، وخطوه الغريب بين الغِلظة والتأنّث.»

لكنّ الخوف تلاشى.

سوف يشمّ شيئًا حين يدور حول الزاوية، لكنه لن يرى سوى أكياس الدوريتوس الفارغة وعلب البيرة المهشّمة.

استنشق جاك نفسًا عميقًا من الهواء البارد الذي تفوح منه رائحة الديزل والعوادم وجفاف الخريف.

رفع الزجاجة إلى فمه، ارتشف الرشفة الأولى من الاثنتين الباقيات.

ثم أغمض عينيه، فتجهم وجهه من الضوء الداخلي الذي انبثق وسط العتمة...

الفصل السادس عشر

الذئب

1

ضربت أشعة الشمس القوية جفونه المغمضة،

ومن خلال الرائحة المسكرة الخانقة للعصير السحر، استطاع أن يميّز رائحة أخرى... رائحة دافئة، رائحة حيوانات.. سمعهم أيضًا، يتحركون حوله في كل اتجاه.

ارتاع جاك، ففتح عينيه، لكنه لم يرَ شيئًا في بادئ الأمر؛ كان الانتقال من الظلام إلى الضوء مفاجئًا وقاسيًا، حتى خُيّل إليه أن أحدهم أشعل فجأة مجموعة من المصاب بقوة مائتي وات في غرفةٍ حالكة الظلام.

لامسه جنبٌ دافئ مغطّى بالجلد، لا في حركةٍ عدائية (أو هكذا تمنّى جاك)، بل في حركةٍ بدت وكأنه يقول «دعني أمرّ، أنا في عجلة من أمري، شكرًا جزيلًا.»

هم جاك بالنهوض حين اصطدم به ذلك الجسد فسقط مجددًا إلى الأرض.

"هيه! هيه! ابتعد عنه! الآن وفورًا!"

تلت الصرخةَ صفعةٌ قوية وصوتُ حيوانٍ متذمّرٍ غريب، بين الخوار والثغاء.

"يااللعنة! ألا تملك أي تمييز؟! ابتعد عنه قبل أن أفقع عيناك اللعينة!"

كانت عيناه قد بدأتا تعتادان على الضوء، وشيئًا فشيئًا تكشّف له نهار خريفي صافٍ شبه كاملٍ في الأراضي البعيدة.

فرأى شابًا عملاقًا يقف في وسط قطيعٍ من الحيوانات الصغيرة، يضرب جوانبها وظهورها المحدّبة قليلًا بحماسةٍ عظيمة، فاقت عنف ضرباته لها.

جلس جاك، ومدّ يده تلقائيًا يتحسس زجاجة سبيدي التي لم يبقَ فيها سوى رشفةٍ ثمينة واحدة، فأعادها إلى جيبه، دون أن يرفع بصره عن الشاب الذي يقف أمامه، وقد أدار ظهره.

كان طويل القامة لا يقلّ طوله عن مترٍ وتسعين سنتيمترًا، كما قدّر جاك وكتفاه عريضتان إلى حدٍّ جعله يبدو غير متناسق البنية، شعره الأسود الطويل المتّسخ يتدلّى على ظهره حتى كتفيه، وعضلاته تتلوّى وتتحرّك كلّما اندفع بين تلك الحيوانات التي بدت كأنها أبقار قزمة.

أخذ يسوقها بعيدًا عن جاك باتجاه الطريق الغربي.

كان مشهدًا لافتًا حتى من الخلف، لكن ما أدهش جاك حقًّا كان ملبسه.

فكل من رآهم في الأراضي البعيدة بمن فيهم هو نفسه يرتدون أزياء بسيطة.. قمصانًا فضفاضة، أو سترات جلدية،

أو سراويل خشنة.

أما هذا الشاب، فكان يرتدي بدلة دنغري من نوع «أوشكوش» لباس المزارعين الأمريكيين، من العالم الذي جاء منه جاك.

ثم التفت الرجل إليه،

فشعر جاك بصدمةٍ عارمةٍ تخنق حلقه، وقفز واقفًا بغتة.

لقد كان الشيء المسمّى إلروي.

ذلك الراعي أمامه لم يكن سوى إلروي ذاته.

2

لكن الأمر لم يكن كذلك...

وربما لو لم يتوقف جاك ليرى ما حدث بعد ذلك، لما جرى شيء من كل ما تلا... دار السينما، والكوخ، وجحيم «دار شمس النهار» أو لكان سقوطه، على الأقل، على نحوٍ مختلف تمامًا.

لكنه في ذروة رعبه، تجمّد في مكانه بعد أن نهض.

لم يكن قادرًا على الحركة أكثر مما يستطيع الغزال أن يتحرك حين يجمّده ضوء مصباح الصياد في العتمة.

وحين اقترب المخلوق المرتدي بدلة الدنغري، فكّر جاك..

لكن إلروي لم يكن بهذا الطول، ولا بتلك الضخامة، وكانت عيناه صفراوين..

أما عينا هذا الكائن، فلونها برتقاليٌ ساطع، لونٍ غير معقول، كأنك تحدّق في عيني يقطينةٍ من يقطين الهالوين.

وبينما كان ابتسام إلروي ينذر بالجنون والقتل، كانت ابتسامة هذا الكائن عريضةً ومشرقة، ودودةً، بل غير مؤذية.

كانت قدماه حافيتين، ضخمتين، مفلطحتين، وأصابعه متجمعة في مجموعاتٍ من ثلاثة واثنين، بالكاد تُرى من خلال تجعّدات الشعر الكثيف الخشن.

ولم تكن تشبه حوافر إلروي أدرك جاك ذلك، مذهولًا

ومذعورًا مع لمحة بهيجة من الدهشة... فحوافره أقرب إلى وسائدِ لينةٍ، كأقدام الحيوانات ذات الكفوف.

وحين قلّص المسافة بينه وبين جاك،

تألّقت عيناه.. أو عينا ذلك «الشيء» بلونٍ برتقاليٍّ أكثر توهجًا، حتى صارتا للحظة بلون السترات الفلورية التي يرتديها عمّال الطرق والصيادون،

ثم خبا البريق تدريجيًا إلى لونٍ عسليٍّ باهت.

ومع ذلك التغيّر، رأى جاك أن الابتسامة كانت حائرةً بقدر ما هي ودودة، وعندها فهم أمرين معًا..

أولهما، أن لا شرّ في هذا الكائن، لا ذرة واحدة منه.

وثانيهما، أنه بطيء الإدراك.. ليس معتوهًا تمامًا، لكنه بطيء، بسيط.

صرخ المخلوق الضخم ذو الشعر الكثيف بفرحٍ طفولي..

«وولف!»

كان لسانه طويلًا ومدبّبًا، وارتجف جاك حين أدرك أن «ذئبًا» هو بالضبط ما يشبهه.

ليس ماعزًا هذه المرة... بل ذئبًا.

ورجا في نفسه أن يكون على حقٍّ في ظنه بأنه غير مؤذٍ، ثم راوده خاطرًا ساخر..

"وإن كنت مخطئًا، فلن أقلق بعدها بشأن ارتكاب الأخطاء مرة أخرى... أبدًا."

"وولف! وولف!"

مدّ الكائن يده نحوه، فرأى جاك أن يديه مثل قدميه مغطاتان بالشعر، لكنه شعرٌ أنعم وأكثر امتلاءً، جميل الملمس في الواقع، يزداد كثافةً في راحتيه حيث كان أبيض اللون كالشعلة البيضاء على جبين حصان.

"يا إلهي، أظنه يريد أن يصافحني!"

مدّ جاك يده بحذرٍ شديد، متذكرًا عمه تومي الذي قال له يومًا..

"لا ترفض مصافحة أحد، حتى لو كان ألدّ أعدائك.. قاتله إن شئت بعد ذلك، لكن صافحه أولًا."

مدّ يده متسائلًا إن كانت ستُسحق... أو تُؤكل.

"وولف! وولف! مصافحة هنا والآن!"

هتف الكائن ذو البدلة الزرقاء بحماسةٍ غامرة.

"هنا والآن! وولف الطيب! اللعنة! هنا والآن! وولف!"

وعلى الرغم من انفعاله، كانت قبضته لينةً، يبطّنها الشعر الناعم الكثيف في راحته.

بدلة دنغري زرقاء، ومصافحة ضخمة من مخلوق يشبه كلب الهاسكي السيبيري العملاق، وتفوح منه رائحة حظيرةٍ بعد

مطرٍ غزير...

فكّر جاك متهكمًا..

"ما التالي؟ أن يعرض عليّ حضور قدّاس يوم الأحد؟"

"وولف الطيب، نعم! وولف الطيب هنا والآن!"

ضحك وولف من أعماقه، واحتضن صدره بذراعيه في فخرٍ طفولي، ثم قبض على يد جاك ثانية.

وهذه المرة راح يهزّها بقوةٍ ومرحٍ مفرط، حتى خطر لجاك أنه إن لم يقل شيئًا، فسيظل هذا المخلوق الودود أو "الفتى بطيء الفهم" يهزّ يده حتى غروب الشمس.

قال أخيرًا..

"وولف الطيب."

وكانت العبارة كالسحر؛ إذ انطلقت من فم وولف ضحكةٌ مبتهجة كضحكة طفل، ثم أفلت يد جاك.

لم تُسحق اليد، ولم تُلتهم، لكنها كانت ترتجّ كما لو أصابها دوار البحر.

يا إلهي... إنه يهزّ الأيدي أسرع من مقامرٍ على ماكينة الحظ في أوج حظه!

قال وولف، وهو يعبث في جيوب بدلته دون أدنى حرج..

"غريب، أليس كذلك؟"

أجابه جاك، متذكّرًا أن كلمة غريب في هذه الأراضي لا تعني مجرد «وافد»، بل تحمل دلالةً أعمق، دلالةَ شخصٍ ليس من هذا العالم أصلًا..

"نعم، أظن أن هذا ما أنا عليه فعلًا... غريب."

"صحيح تمامًا! أشمّها فيك! هنا والآن، يا ولد! أوه نعم! رائحتك مختلفة، ليست سيئة... إنما غريبة! وولف! أنا وولف! وولف! وولف!"

ثم ألقى رأسه إلى الوراء وضحك، وانتهت ضحكته بعواءٍ ذئبيٍّ طويلٍ مزعج.

قال جاك..

"جاك... جاك سو—"

لكن وولف قبض على يده من جديد وهزّها بعنفٍ مرح.

"ـويرا!" أتمّ جاك كلمته أخيرًا، بعدما أفلت من قبضته.

ابتسم، وهو يشعر كما لو أن أحدهم ضربه بعصا غبيةٍ ضخمة فأصابه دوارٌ وذهولٌ جميلين!

قبل خمس دقائق فقط كان ملتصقًا بجدار مرحاضٍ باردٍ من الطوب على طريق I-70،

أما الآن، فهو يقف هنا يتحدث إلى مخلوقٍ يبدو أكثر حيوانًا من كونه إنسان.

ومع ذلك، فقد أدرك شيئًا واحدًا بوضوحٍ غريب..

أنه قد شُفيَ تمامًا من البرد.

3

"وولف، تعرّف إلى جاك! جاك، تعرّف إلى وولف! هنا والآن! حسنًا! جيد! يا يسوع! أبقار في الطريق! يالهم من اغبياء! وولف! وولف!"

صرخ وولف وهو يركض بخفة الذئب منحدرًا نحو الطريق، حيث كان نصف قطيعه تقريبًا واقفًا هناك، يتلفت حوله بملامح ذهول بليدة، كأنما يسأل.. «أين اختفت الحشائش؟»

لقد بدت تلك المخلوقات، كما رأى جاك، أشبه بمزيجٍ غريب بين البقر والخراف، وأخذ يتساءل عمّا يمكن أن يُسمّى مثل هذا الهجين.. الكلمة الوحيدة التي خطرت له فورًا كانت «الزواحف» أو «الغرائب»، وربما كان المفرد منها أدقّ في هذا الموضع، كما لو قال «ها هو وولف يعتني بقطيع الغرابة.. أوه نعم، هنا والآن.»

ثم شعر جاك وكأن موجة من الحماقة قد ضربت رأسه، فجلس على الأرض وأطلق ضحكةً مكتومة، وقد عقد يديه على فمه ليخفي الصوت.

حتى أكبر تلك المخلوقات لم يتجاوز ارتفاعها أربعة أقدام، كان وبرها صوفيًا بلونٍ طيني يشبه لون عيني الذئب.. على الأقل حين لا تكونا مثقدتين بلونٍ برتقاليٍ فاقع كقرع الهالوين المنحوت، أما رؤوسها فتعلوها قرون صغيرة ملتوية، لا تصلح لشيء.

أعاد وولف قطيعه إلى جانب الطريق، فانصاعت له بهدوء، من غير خوفٍ أو تردّد.

"لو أن بقرة أو خروفًا من عالمي شمّ رائحة هذا المخلوق،" فكّر جاك، "لقتل نفسه فزعًا محاولًا الفرار منه."

ومع ذلك، شعر جاك بإعجابٍ فوري تجاه وولف أعجب به من اللحظة الأولى، كما كره «إلروي» من النظرة الأولى.. وهذا التناقض في حدّ ذاته ملائمًا، لأن المقارنة بينهما كانت واضحة لا لبس فيها.. إلا أن إلروي كان تيسًا في هيئته، أما وولف فكان ذئبًا بحق.

سار جاك ببطءٍ نحو المكان الذي يرعى فيه قطيع وولف، وتذكّر حينها كيف كان يتسلّل بخطواتٍ حذرة في الممرّ الخلفي المتعفّن لحانة أوتلي تاب متجهًا نحو باب الحريق، شاعراً بوجود إلروي في مكانٍ قريب، يشمّه ربما كما تشمّ الأبقار هذا الذئب في العالم الآخر.

تذكّر كيف بدأت يدا إلروي تلتويان وتغلظان، وكيف توزّم عنقه، وكيف تحوّل فمه إلى مجموعة من الأنياب السوداء النتنة.

قال جاك بهدوء «وولف؟»

التفت وولف نحوه مبتسمًا، واتّقدت عيناه بوهجٍ برتقاليٍّ ساطع، بدتا في لحظةٍ واحدةٍ وحشيتين وذكيتين معًا.. ثم خبا الضوء، فعادتا إلى لونهما العسلي العكر المربك دائمًا.

قال جاك بتردّد «هل أنت... نوعٌ من المستذئبين؟»

ابتسم وولف وقال بفخرٍ طفولي «بلى، تمامًا يا جاك.. لقد أصبت كبد الحقيقة! أنا وولف!»

جلس جاك على صخرةٍ قريبة، يرمقه متفكّرًا..

كان يظن أنه بلغ من الدهشة أقصاها، لكن وولف كان لا يزال قادرًا على مفاجأته...

سأله وولف بنبرةٍ عادية، وكأنه يسأل عن الطقس أو عن صحة قريب

"كيف حال والدك يا جاك؟ كيف حال فيل هذه الأيام؟ وولف!"

4

شعر جاك بترابط عجيب بين الأفكار؛ أحسّ وكأن كل الهواء قد سُحب من عقله..

للحظة، ظل عقله خاليًا تمامًا، بلا فكرة واحدة، مثل محطة إذاعية لا تبث إلا موجة خاملة.

ثم رأى وجه وولف يتغير؛ اختفى التعبير المليء بالسعادة والفضول الطفولي، وحلّ محله تعبير الحزن...

رأى جاك فتحتي أنف وولف تتسعان بسرعة.

قال وولف

"إنه ميت، أليس كذلك؟ وولف! أنا آسف يا جاك.. لعنة الله عليّ! يا لي من غبي! غبي!"

ثم ضرب جبهته بيده، وكأن موجة من الحماقة قد ضربت رأسه بالفعل، وهذه المرة عوى بحقّ، وكان عواؤه صوتًا جمّد دم جاك في عروقه..

حتى نظر قطيع المخلوقات حولهما في قلق.

قال جاك «لا بأس.»

سمع صوته داخل أذنيه أكثر مما في رأسه، كما لو أن شخصًا آخر هو الذي تكلم.

"لكن... كيف عرفت؟"

قال وولف ببساطة

"رائحتك تغيّرت.. عرفت أنه مات لأن ذلك كان في رائحتك.. مسكين فيل! يا له من رجل طيب! أقولها لك هنا والآن، جاك، والدك كان رجلًا طيبًا! وولف!"

قال جاك

"نعم، كان كذلك.. لكن كيف عرفته؟ وكيف عرفت أنه والدي؟"

نظر وولف إلى جاك كما لو أنه طرح سؤالًا بسيطًا لا يستحق الجواب أصلًا.

"أتذكر رائحته، بالطبع.. الذئاب تتذكر جميع الروائح، رائحتك تمامًا مثل رائحته.'

ها هي موجة الحماقة تعصف برأس جاك مجددًا.. شعر برغبة في التدحرج على العشب القاسي المرن، ممسكًا بطنه وهو يعوي من الضحك!

لقد أخبروه من قبل أنه يملك عيني أبيه وفمه، بل وحتى موهبته في الرسم السريع، لكن لم يقل له أحد قط إنه يشبهه في الرائحة..

ومع ذلك، بدا له أن الفكرة تحمل منطقًا عبثيًا ما...

سأل جاك مرة أخرى

"كيف عرفته؟"

بدت الحيرة على وجه وولف، ثم قال أخيرًا

"لقد جاء مع الآخر، القادم من أوريس.. كنت صغيرًا جدًا حينها، الآخر كان سيئًا.. الآخر سرق بعضنا، دون علم والدك."

وأضاف بسرعة، كما لو أنه خشي أن يرى الغضب في وجه جاك..

"وولف! لا! والدك كان طيبًا.. فيل.. أما الآخر..."

هز وولف رأسه ببطء، وارتسم على وجهه تعبير أبسط من الفرح، ملامح ذكرى كابوس من الطفولة.

قال وولف

"كان شريرًا.. أبي قال إنه صنع لنفسه مكانًا في هذا العالم.. كان يقضي أغلب وقته مع توأمه، لكنه جاء من عالمك.. كنا نعرف أنه شرير، كنا نستطيع أن نشمه، لكن من يصغي إلى الذئاب؟ لا أحد... والدك عرف أنه شرير، لكنه لم يستطع أن يشمه كما نفعل نحن.. نعم لقد أدرك شره، لكن لم يدرك مداه!.»

ثم أرجع وولف رأسه إلى الوراء وأطلق عواءً طويلًا حزينًا، دوّى في أعماق السماء الزرقاء.

*****

فاصل

سلوت في هذا العالم (الجزء الثاني)

من جيب سترته السميكة (التى اشتراها مقتنعًا بأن أمريكا شرق جبال الروكي ليست سوى أرض متجمدة بعد الأول من أكتوبر تقريبًا وها هو الآن قد استحال عرقه لأنهارًا)، أخرج مورغان سلوت صندوقًا فولاذيًا صغيرًا.

أسفل المزلاج كانت هناك عشرة أزرار صغيرة ومستطيل من زجاج أصفر معتم، ارتفاعه ربع بوصة وطوله بوصتان.

ضغط سلوت بعناية على عدة أزرار مستخدمًا ظفر خنصر يده اليسرى، فظهرت سلسلة من الأرقام للحظة في نافذة القراءة.

كان قد اشترى هذه الأداة، التي وُصفت بأنها «أصغر خزانة في العالم»، من زيورخ.

ووفقًا للرجل الذي باعها له، فإن أسبوعًا كاملًا داخل محرقة للجثث لن يخترق صلابتها الفولاذية الكربونية..

ثم انفتح القفل بصوت خافت.

فتح سلوت جناحين صغيرين من مخمل أسود ناعم، كاشفًا عن شيء احتفظ به لأكثر من عشرين عامًا.. منذ وقتٍ طويل قبل ولادة الصبي الحقير الذي تسبب في كل هذه المتاعب...

كان مفتاحًا من الصفيح الباهت، كان يومًا ما يُدخل في

ظهر جندي آلي صغير.

رآه سلوت أول مرة في واجهة متجر خردة في بلدة غريبة صغيرة تُسمى «بوينت فينوتي» في كاليفورنيا؛

بلدة كانت تهمه كثيرًا...

بدافع قهري لا يُقاوم ولم يكن يريد مقاومته أصلًا، فقد كان مورغان سلوت دائمًا يجعل من نزواته فضائل... دخل المتجر ودفع خمسة دولارات مقابل الجندي المغبر والمُبعّج... لكنه لم يكن يريد الجندي من الأساس.. بل المفتاح هو ما جذب انتباهه وهمس له...

أزال المفتاح من ظهر الجندي فور خروجه من المتجر ووضعه في جيبه، أما الجندي نفسه فألقاه في سلة قمامة خارج مكتبة «الكوكب الخطر».

والآن، بينما يقف سلوت بجانب سيارته في استراحة لويسبرغ، رفع المفتاح ونظر إليه.

مثل صدّافة جاك، كان المفتاح يتحول إلى شيء آخر في «الأراضي».

ذات مرة، أثناء عودته، أسقط المفتاح في بهو مبنى المكاتب القديم، ويبدو أن بعض سحر الأقاليم ظل عالقًا به، لأن ذلك الأحمق جيري بليدسو احترق حتى الموت بعد أقل من ساعة.

هل التقط المفتاح؟ أم ربما داس عليه؟

سلوت لم يعلم ولم يهتم...

نعم هو لم يهتم البتة بجيري، بل نظرًا لأن العامل كان يملك بوليصة تأمين تُضاعف التعويض في حالة الوفاة العرضية (وكان المشرف على المبنى، الذي كان سلوت أحيانًا يدخن الحشيش معه، قد أخبره بذلك) فقد تخيّل أن نيتا بليدسو قد فرحت كثيرًا لموت زوجها،

لكنه هو نفسه كاد يجنّ من القلق لفقدان المفتاح.

وفيل سوير من وجده وأعاده إليه، قائلاً بلا تعليق سوى..

"ها هي يا مورغ.. تميمة حظك، أليس كذلك؟ لا بد أن جيبك مثقوب.. وجدتها في البهو بعد أن أخذوا جيري المسكين."

نعم، في البهو..

في البهو الذي كانت رائحته كرائحة محرك خلاط «وارينغ» ظل يعمل بأقصى سرعة لتسع ساعات متواصلة..

في البهو الذي احترق فيه كل شيء، والتوى، وانصهر.

باستثناء هذا المفتاح المتواضع من الصفيح، الذي كان، في العالم الآخر، نوعًا غريبًا من مولدات الصواعق، والذي علّقه سلوت الآن حول عنقه بسلسلة فضية رفيعة.

مرددًا بصوت يكاد يكون حنونًا..

"أنا قادم إليك يا جاكي.. حان وقت وضع نهاية حاسمة لتلك السخافات"

الفصل السابع عشر
الذئب والقطيع
1

ظل وولف يتحدث عن أشياء كثيرة، ثم ينهض بين الحين والآخر ليزيح قطيعه عن الطريق، ومرةً ليسوقهم إلى جدول ماء يقع على بُعد نحو نصف ميل إلى الغرب.

وحين سأله جاك عن المكان الذى يعيش فيه، أشار وولف بيده على نحوٍ غامض نحو الشمال، قال إنه يعيش رفقة عائلته.

لكن عندما طلب جاك توضيحًا بعد دقائق، اندهش وولف، وأخبره إن ليس له رفيقة ولا أبناء وإنه لن يبلغ ما يُسمّيه القمر الكبير للتزاوج إلا بعد عام أو عامين.. وكان واضحًا من الابتسامة الساذجة ذات الدلالة الفاحشة التي غمرت وجهه أنه يتطلع إلى ذلك القمر الكبير بشغف...

قال جاك

"لكنّك قلت إنك تعيش مع عائلتك!"

ضحك وولف وقال

"آه، العائلة! هؤلاء! وولف! طبعًا، نحن جميعًا نعيش معًا.. يجب أن نرعى الماشية، كما تعرف... ماشيتها هي."

"ماشية الملكة؟"

"نعم، عسى ألا تموت أبدًا، أبدًا."

ثم أدى وولف تحية غريبة لكنها مؤثرة، انحنى فيها قليلًا ولمس جبينه بيده اليمنى.

ومع مزيد من الأسئلة، بدأت الصورة تتضح في ذهن جاك... أو هكذا ظنّ..

كان وولف أعزبًا (وإن كان هذا الوصف بالكاد يفي بالغرض). والعائلة التي تحدّث عنها كانت عائلة ممتدة إلى حدٍّ مذهل حرفيًا، عائلة كاملة من الذئاب.

كانوا قومًا رحّلًا، لكنهم على درجة كبيرة من الولاء، يتنقلون ذهابًا وإيابًا في المساحات الشاسعة الخالية الواقعة شرق الحصون وغرب ما يُطلق عليه وولف «المستوطنات»، أي المدن والقرى في الشرق.

وكان أفراد عائلة وولف وليس وولفز كما نطق جاك ذات مرة، إذ انفجر ذئب ضاحكًا حتى فاضت دموعه من عينيه عندما استخدم الجمع الصحيح!

عمالًا أقوياء يُعتمد عليهم في الغالب. فقوتهم أسطورية، وشجاعتهم لا غبار عليها.. بعضهم ذهب شرقًا إلى المستوطنات، حيث خدموا الملكة كحراس وجنود، بل وبعضهم أصبح من حرسها الشخصي.

شرح ذئب لجاك أن حياتهم تقوم على ركيزتين عظيمتين..

السيدة والعائلة. ومعظمهم، على حد قوله، يخدمون السيدة كما يفعل هو برعاية القطعان...

كانت تلك الأغنام الأبقر (خليط بين الأبقار والأغنام) هي المصدر الأساسي في الأقاليم للحوم والأقمشة والدهن وزيت المصابيح. (لم يقل ذئب هذا صراحة، لكن جاك استنتج ذلك من حديثه)، كل الماشية ملك للملكة، وتحرسها عائلة وولف منذ أزمان بعيدة لا تُحصى.. تلك هي مهمتهم.

وجد جاك في ذلك تشبيهًا مقنعًا للعلاقة التي كانت قائمة بين الجاموس والهنود في سهول أمريكا... قبل أن يأتي الرجل الأبيض ويقلب الموازين.

تمتم جاك مبتسمًا

"ها هو الأسد يرقد مع الحمل، والذئب مع المواشي."

كان مستلقيًا على ظهره، ويداه مشبوكتان خلف رأسه، وقد تسلّل إليه شعور مدهش بالسلام والطمأنينة.

قال وولف

"ماذا قلت يا جاك؟"

"لا شيء." ثم سأله.. "وولف، هل تتحوّل حقًا إلى حيوان عندما يكتمل القمر؟"

"بالطبع!" قال وولف بدهشة كأن جاك سأله وولف، هل تسحب سروالك بعد أن تنتهي من قضاء حاجتك؟!

ثم أضاف «الغرباء لا يفعلون، أليس كذلك؟ فيل أخبرني بذلك.»

قال جاك

"أما القطيع... فعندما تتحول، هل هم..."

قاطعه وولف بجدية

"أوه، لا نقترب من القطيع عندما نتحوّل.. يا جيسون الطيب، لا! سنأكلهم، ألا تعرف ذلك؟ والذئب الذي يأكل من قطيعه يجب أن يُقتل، هكذا يقول كتاب الزراعة الصالحة.. وولف! وولف! لدينا أماكن نذهب إليها عندما يكتمل القمر، وكذلك القطيع.. إنهم أغبياء، لكنهم يعرفون أنهم يجب أن يرحلوا وقت القمر الكبير، وولف! من الأفضل أن يدركوا ذلك، لعنة الله عليهم!"

رد جاك

"لكنكم تأكلون اللحم، أليس كذلك؟"

"كثير الأسئلة، تمامًا كأبيك!" قال وولف "وولف! لكن لا بأس.. نعم، نأكل اللحم، طبعًا نفعل.. نحن ذئاب، ألسنا كذلك؟"

"لكن إن كنتم لا تأكلون من القطيع، فممّ تأكلون؟"

"نأكل جيدًا." قالها وولف، ولم يُضِف شيئًا بعد ذلك...

كان وولف، مثل كل شيء في الأقاليم، لغزًا.. لغزًا بديعًا ومخيفًا في آنٍ واحد.

وحقيقة أنه عرف والد جاك ومورغان سلوت، أو على الأقل عرف نظيريهما في هذا العالم أضفت على غموضه نكهة خاصة، لكنها لم تفسّره تمامًا.

كل ما قاله وولف لجاك فتح أمامه عشرات الأسئلة الجديدة، معظمها لا يستطيع وولف أو لا يريد أن يجيب عنها...

منها، مسألة زيارات فيليب سوتيل وأورِس..

فقد ظهرا أول مرة حين كان ذئب في «قمره الصغير»، يشارك أمه واثنتين من «أخواته في الفِراش الواحد».

ويبدو أنهما كانا عابرين فقط، كما يفعل جاك الآن، إلا أنهما كانا يسيران شرقًا لا غربًا.

قال له وولف «لأُصدقك القول يا جاك فالحقيقة أنك تقريبًا أول إنسان أراه يصل هذا الحد غربًا وما زال يتوغل لقلب الغرب!»

كانا رفيقين مرحين، كلاهما، في البداية.. لكن بعد ذلك وقعت المشكلة... مشكلة أورِس.

حدث ذلك بعد أن «صنع شريك والدك لنفسه مكانًا في هذا العالم» كما كان وولف يكرر، ويبدو أنه يعني مورغان سلوت في هيئة أورِس الجسدية.

قال وولف إن مورغان سرق واحدة من أخواته، وأضاف ببساطته المعهودة

"أمي ظلت تعض يديها وأصابع قدميها شهرًا بعد أن تأكدت أنه أخذها."

ثم تابع بصوت خفيض وعينين تملؤهما الخشية والخرافة..

"ذاك الرجل الأعرج أخذ بعض الذئاب الآخرين إلى عالم الغرباء، وعلّمهم أن يأكلوا من القطيع.."

قال جاك

"وهذا أمر سيئ جدًا لأمثالكم، أليس كذلك؟"

"إنهم ملعونون." أجاب وولف ببساطة.

ظن جاك أول الأمر أن وولف يتحدث عن الاختطاف فقد استخدم فعل «أخذ» نفسه عند حديثه عن أخته لكنه بدأ يدرك أن المسألة ليست اختطافًا بالمعنى الحرفي... إلا إذا كان وولف، بشيء من الشعور الفطري، يقصد أن مورغان سرق عقول بعض أفراد عائلته.

لقد كان يتحدث في الحقيقة عن مستذئبين تخلّوا عن ولائهم القديم للتاج والقطيع، ومنحوه لمورغان سلوت.. أو لمورغان أورِس.

وهذا قاده طبيعيًا إلى التفكير في إلروي.

"الذئب الذي يأكل من قطيعه يجب أن يُقتل."

ثم إلى تذكّر الرجال في السيارة الخضراء الذين توقفوا ليسألوه عن الطريق، وعرضوا عليه قطعة حلوى «توتسي

رول»، ثم حاولوا جذبه إلى السيارة.

العيون... تلك العيون التي تغيّرت.

"إنهم ملعونون."

"صنع لنفسه مكانًا في هذا العالم."

حتى هذه اللحظة، شعر جاك بالأمان والسرور معًا..

سعيدًا بعودته إلى الأراضي حيث الهواء منعش دون أن يكون قارسًا كبرودة أوهايو الرمادية الكئيبة، وآمنًا بصحبة وولف الكبير الودود، بعيدًا عن المدن والناس، في الريف الواسع.

"صنع لنفسه مكانًا في هذا العالم."

سأل وولف عن والده فيليب سوتيل في هذا العالم لكن وولف هزّ رأسه قائلًا «إنه كان رجلًا طيبًا بحق، وتوأمًا لشخصٍ آخر (أي غريبًا)، وهذا كل ما يعرفه.»

قال إن «التوائم» أمر له علاقة بما يشبه ولادات مزدوجة بين الناس، وليس له أن يخوض فيه.

كما لم يستطع أن يصف فيليب سوتيل فهو لم يتذكر شكله.. قال فقط إنه يذكر رائحته.

وكل ما عرفه أن كليهما بدا طيبًا، لكن فيل سوير كان طيبًا حقًا.

مرةً، أحضر له ولإخوته وأخواته هدايا، كانت إحداها دون

أن تتغير عن عالم الغرباء بدلة دنغري زرقاء (أوفرول).

قال وولف بابتسامة حنين

"كنت ألبسها طول الوقت.. أرادت أمي أن تتخلص منها بعد خمس سنوات تقريبًا، قالت إنها اهترأت! وإنني صرت كبيرًا عليها! وولف! قالت "إنها رقع تتعلق برقع.." لكني لم أتنازل عنها.. في النهاية اشترت بعض القماش من بائع متجول متجه نحو الحصون، لا أعرف كم دفعت، وولف! حقيقة يا جاك، خفت أسأل.. صبغته أزرق وخاطت لي ستّ بناطيل.. أما التي أحضرها والدك، فأنام عليها الآن. وولف! وولف! إنها وسادتي الملعونة الرائعة كما أظن."

ابتسم وولف ابتسامة صافية، فيها من البراءة والحنين ما حزّك قلب جاك، فمدّ يده ليصافحه.. أمر لم يكن ليفعله أبدًا في حياته القديمة مهما كانت الظروف، لكنه شعر الآن أن ذلك كان خسارة.

كان سعيدًا بأن أمسك يد وولف الدافئة القوية.

قال جاك

"أنا سعيد لأنك أحببت أبي يا وولف."

فردّ وولف بحماس طفولي

"أحببته! أحببته فعلًا! وولف! وولف!"

ثم... اندلع الجحيم.

2

توقف وولف عن الكلام ونظر حوله مذعورًا.

قال جاك: «وولف؟ ما الذي...»

"ششش!"

ثم سمع جاك الصوت.. كانت أذنا وولف الأكثر حساسية قد التقطتاه أولًا، لكنه سرعان ما تصاعد حتى ظن جاك أن الأصمّ كان سيسمعه أيضًا... التفت الماشية من حولهم وبدأت تتحرك مبتعدة عن مصدر الصوت في كتلةٍ فوضويةٍ قلقة.. كان الصوت أشبه بتأثير إذاعي يُستخدم لمحاكاة صوت تمزيق شرشف سرير إلى نصفين... ببطءٍ شديد، لكن مستوى الصوت ظلّ يرتفع ويرتفع حتى خُيّل لجاك أنه سيُجنّ.

قفز وولف واقفًا، مذهولًا، مرتبكًا، خائفًا.

ذلك الصوت الممزق، أشبه بخرخرةٍ منخفضةٍ خشنة، استمرّت في التزايد..

ارتفع خوار الماشية وثرثرتها، وتراجع بعضها نحو الجدول، وبينما كان جاك ينظر في ذلك الاتجاه، رأى إحداها تسقط في الماء بارتطامة هائلة وتخبّطٍ أخرقٍ بأرجلها.. كانت قد دُفعت من الخلف وسط تدافع رفاقها المتراجعين، أطلقت صرخةً حادّة «بآآآآه!» تردّد صداها في الوادي.. ثم تعثّرت - بقرة خروف - أخرى فوقها ودُفعت بدورها إلى الماء تحت وطأة

التراجع البطيء.

كانت الضفّة المقابلة من الجدول منخفضةً ورطبة، خضراء القصب، موحلةً مستنقعية.

والبقرة الخروف التي بلغت الوحل أولًا سرعان ما غاصت فيه وانغرست.

صرخ وولف بأعلى صوته..

"أيتها الماشية العقيمة عديمة النفع، سحقًا، لكنْ!"

واندفع منحدرًا نحو الجدول، نحو الحيوان الأول الذي سقط، وقد بدا الآن وكأنه يحتضر.

صرخ جاك: «وولف!»

لكن وولف لم يسمعه.

حتى جاك بالكاد سمع صوته وسط ذلك الضجيج الممزق.

نظر جاك قليلًا إلى اليمين، على جانب الجدول هذا، وتجمدت ملامحه دهشةً.

كان شيءٌ ما يحدث للهواء.

رقعةٌ منه، على ارتفاع نحو ثلاثة أقدام فوق الأرض، بدأت تتموّج وتنتفخ، وكأنها تلتفّ على نفسها وتشدّ ذاتها من الداخل..

رأى جاك الطريق الغربي من خلال تلك الرقعة، لكنه بدا

مشوّهًا ضبابيًا، كأنما يُرى من خلال هواءٍ متوهجٍ متموّجٍ فوق محرقة.

شيءٌ ما يشق الهواء كما لو كان جرحًا مفتوحًا... شيءٌ ينبثق من خلاله... من جانبنا؟

يا جيسون، أهذا ما أفعله حين أعبر؟

لكنه، حتى وسط رعبه وارتباكه، كان يعلم أن الأمر ليس كذلك...

كان لدى جاك فكرة واضحة عمّن قد يعبر بتلك الطريقة...

بهذا الشكل العنيف... كما لو كان اغتصابًا يقع في تلك اللحظة.

ثم بدأ جاك يركض هابطًا التلّ.

3

استمرّ صوت التمزيق... واستمرّ... واستمرّ.

ووولف راكعًا في الجدول، يحاول أن يساعد الحيوان الثاني الذي سقط على النهوض.

أما الأول فطفى مترنحًا مع التيار، بجسد ممزق ومهترئ.

"انهض! اللعنة عليك، انهض! وولف!"

دفع وولف وضرب ما استطاع من ـ الأبقار الخراف ـ التي أخذت تدور حوله وترتدّ نحوه، ثم لفّ ذراعيه حول خصر الحيوان الغارق وسحبه بقوة إلى أعلى.

صرخ بأعلى صوته «وولف! هنا الآن!»

تمزّقت أكمام قميصه عند العضدين، مما ذكّر جاك بديفيد بانر حين كانت نوبات أشعة غاما تحوّله إلى الرجل الأخضر الرهيب.

تناثرت المياه في كل اتجاه، ونهض وولف واقفًا، عيناه تشتعلان بلون برتقالي، وبدلته الزرقاء قد تحولت إلى سواد قاتم من البلل.

تدفقت المياه من منخري الحيوان الذي كان وولف يضمه إلى صدره كما لو كان جروًا ضخمًا.

وانقلبت عيناه إلى بياضٍ لزجٍ.

صرخ جاك «وولف! إنه مورغان! إنه...»

فصرخ وولف عائدًا «القطيع! وولف! وولف! يا إلهي، القطيع! جاك! لا تحاول...»

لكن بقية كلماته ضاعت وسط دويّ صاعقةٍ هائلة هزّت الأرض.

للحظةٍ واحدة، غطّى الرعد ذلك الصوت الممزق المجنون الرتيب..

فرفع جاك نظره، وقد بدت عليه الحيرة مثل قطيع وولف تمامًا، حيث رأى سماءً صافية زرقاء بريئة من الغيوم، إلا من بضع نفاثات بيضاء تبعد أميالًا.

أشعل الرعد الذعر الكامل في قطيع وولف، حاولت الماشية الهرب، لكن بحماقتها البالغة حاول كثير منها الفرار بالتراجع إلى الخلف، فتصادمت وارتطمت وغاصت تحت الماء، وسمع جاك طقطقةً مرة لعظمٍ ينكسر، تلاها صراخٌ باكٍ لحيوانٍ يتألم.

زمجر وولف غاضبًا، وأسقط ـ البقرة الخروف ـ التي كان يحاول إنقاذها، واندفع نحو الضفة الطينية المقابلة للجدول.

لكن قبل أن يبلغها، صدمته ستّ بقرات دفعةً واحدة وأسقطنه أرضًا.

تناثرت المياه في رذاذٍ رقيقٍ لامع.

ورأى جاك أن وولف الآن هو من أصبح في خطر الغرق

والدوس تحت أقدام تلك الحيوانات الهوجاء الهاربة.

اندفع جاك داخل الجدول، وقد اسودّ ماؤه من الطين المائج، والتيار يحاول باستمرار أن يفقده توازنه.

مرت بقرة-خروف بجانبه، عيناها تدوران بجنون، حتى كادت أن تسقطه.

تناثرت المياه على وجهه، وحاول أن يمسحها عن عينيه.

الآن، بدا أن ذلك الصوت يملأ العالم كله

«رررررررررررررررررييييييييب!»

"... وولف!"

"لا بأس بمورغان الآن، على الأقل للحظة."

"وولف في مأزق.»

رأى رأس وولف الأشعث المبتل يظهر للحظة فوق سطح الماء، ثم داسته ثلاث بقرات دفعة واحدة، ولم يعد يرى سوى يدٍ مغطاة بالشَعر تلوّح في الهواء.

تقدّم جاك مجددًا، يحاول التسلل بين الماشية، بعضها ما يزال واقفًا، وبعضها يترنح ويغرق تحت الأقدام.

"جاك!"

صوتٌ دوّى فوق صوت التمزيق.

صوتٌ يعرفه جاك... صوت العم مورغان.

"جاااك!"

جاءت صاعقة أخرى، هذه المرة كضربة خشبٍ هائلة شقت السماء كقذيفة مدفعية.

لهث جاك، وشعر بشَعره المبتل يلتصق بعينيه، ثم التفت خلفه...

ورأى مباشرة منطقة الاستراحة على الطريق السريع I-70 قرب لويسبرغ، أوهايو.

كان يراها كما لو من خلال زجاجٍ متموّجٍ رديء الصنع... لكنه كان يراها حقًا.

حافة مبنى الحمّامات من الطوب بدت على يسار تلك الرقعة الهوائية الملتوّية المعذبة،

ومقدمة شاحنة «شيفروليه» بدت على اليمين، تطفو على ارتفاع ثلاثة أقدام فوق الحقل الذي كان هو وووِلف يجلسان فيه قبل خمس دقائق فقط.

وفي الوسط، واقفًا كإضافةٍ في فيلم عن رحلة الأدميرال بيرد إلى القطب الجنوبي، كان مورغان سلوت، بوجهه الأحمر الغليظ المتشنّج بغضبٍ قاتل... غضبٍ وشيءٍ آخر...

نعم... انتصار.

هكذا خُيّل إلى جاك.

كان واقفًا في منتصف الجدول، الماء يصل إلى فخذيه،

والماشية تمرّ على جانبيه، تخور وتثغو، وهو يحدّق في تلك النافذة التي انشقّت في نسيج الواقع نفسه، عيناه متسعتان وفمه منفرجًا على آخره.

"لقد وجدني... يا إلهي، لقد وجدني."

صرخ مورغان

"ها أنت ذا أيها اللعين الصغير!"

كان صوته مسموعًا، لكن ميتًا، مكتومًا، كأنه يخرج من داخل كابينة هاتف.

"الآن سنرى، ألن نرى؟ ألن نرى؟"

بدأ مورغان يتقدّم، ووجهه يتموّج كأنه مصنوع من البلاستيك الرخو.

رآه جاك ممسكًا شيئًا في يده، شيئًا آخر متدلّيًا حول عنقه... شيئًا صغيرًا فضيًا.

تجمّد جاك في مكانه، بينما كان سلوت يشق طريقه عبر الفتحة بين العالمين.

ومع عبوره بدأ في تحوّله المعتاد... من مورغان سلوت، المستثمر وسمسار الأراضي ووكيل هوليوود العرضي، إلى مورغان أوريس، المطالب بعرش الملكة المحتضرة.

نحلت وجنتاه المتهدلتان، وشحبت وجنتيه.

تجدّد شعره، نما إلى الأمام، أولًا كلونٍ يغمر جمجمته كما لو

أن يدًا خفية تلوّن رأس العم مورغان، ثم غطّاه تمامًا.

كان شعر توأمه طويلًا، أسود، خاملًا، يرفرف كأنه ميت، مربوطًا عند قفاه، لكن أغلبه انفلت.

تلاشت سترته لوهلة، ثم عادت على شكل عباءةٍ وقلنسوة.

تحوّلت جزمتاه من جلد شامواه إلى جلدٍ داكنٍ عالٍ حتى الركبتين، مقبوضتان إلى أسفل، ومقبض خنجر يطلّ من أحدهما.

أما الشيء الفضيّ الصغير في يده فقد تحوّل إلى عصًا صغيرة يتوهّج رأسها بنارٍ زرقاء متطايرة.

إنها قضيب صاعقة... يا يسوع، إنها...

"جاااك!"

كان الصوت منخفضًا، مبحوحًا، مملوءًا بالماء.

استدار جاك بعنف داخل الجدول، بالكاد تفادى بقرة خروف أخرى كانت تطفو ميتة على جانبها.

رأى رأس وولف يغوص مجددًا، ويديه تلوّحان.

شقّ طريقه نحوه وسط الماشية، يتفادى منها ما استطاع...

واحدة منها نطحته في خاصرته فسقط، وابتلع جرعة ماء.

نهض سريعًا، يسعل ويختنق، يده تعبث داخل سترته باحثًا عن الزجاجة، خائفًا أن تكون قد انجرفت. لكنها كانت هناك.

"أيها الفتى! استدر وانظر إليّ، يا فتى!"

"ليس الآن يا مورغان، آسف... يجب أن أنجو من الغرق بقطيع وولف قبل أن أحاول النجاة من صاعقتك اللعينة."

قوس من نارٍ زرقاء عبر فوق كتفه، يصفرّ كقوس قزحٍ قاتل.

ضرب بقرة خروف عالقة في الوحل على الضفة الأخرى فانفجرت كما لو انها ابتلعت إصبع ديناميت.

تطاير الدم في رذاذٍ إبريّ، وتساقطت كتل اللحم حول جاك كالمطر.

"استدر وانظر إليّ، أيها الفتى!"

شعر جاك بقوةٍ غير مرئية تمسك وجهه وتحاول أن تديره.

نهض وولف مجددًا، شعره ملتصق بوجهه، عيناه تتراءيان من خلاله كعيني كلب إنجليزي أشعث.

كان يسعل ويتمايل، فاقد الوعي بمكانه.

صرخ جاك «وولف!» لكن الرعد دوّى مجددًا فابتلع صوته.

انحنى وولف وتقيأ دفقة ماء موحلة، ثم صدمته بقرة أخرى مذعورة وأغرقته ثانية.

انتهى الأمر، فكّر جاك بيأس. انتهى، لقد ذهب، يجب أن أتركه وأهرب...

لكنه واصل طريقه نحوه، دافعًا بقرةً تحتضر لتبتعد عن

طريقه.

"جيسون!"

صرخ مورغان أوريس، وفهم جاك أنه لا يلعن بلهجة الأراضي، بل يناديه باسمه الحقيقي.

لكنه مات رضيعًا... مات...

زمجرة كهرباءٍ حارقة قرب رأسه، كادت تفلق شعره نصفين.

ضربت الضفة الأخرى ثانية، ومزّقت إحدى بقرات وولف إلى أشلاء حتى

لم يبقَ سوى سيقانها المغروزة في الطين، تتهاوى ببطء في أربع اتجاهات مختلفة.

"استدر وانظر إليّ، اللعنة عليك!"

"الماء... لماذا لا يرميها نحو الماء؟ سيقليّني أنا ووولف وكل الحيوانات دفعة واحدة!"

ثم تذكّر درسه في العلوم بالصف الخامس

(إذا وصلت الكهرباء إلى الماء، يمكنها أن تسري في أي اتجاه... حتى تعود إلى المولد نفسه.)

لكن وجه وولف المغمور، وعيناه المترنحتان، طردا تلك الفكرة من رأسه.

كان لا يزال حيًا، لكنه محشور جزئيًا تحت بقرة خروف،

جمدت في مكانها من الهلع.

كانت يداه تلوّحان بضعفٍ يائس، ثم سقطت إحداهما وطفَت، مترهلة كزنبقة ماء.

اندفع جاك دون أن يتوقف، خفض كتفه الأيسر واصطدم بالبقرة كأنه بطل قصة مصوّرة.

لو كانت بقرةً حقيقية بحجم طبيعي لما حركها شبرًا، لكن حجمها في الأراضي أصغر، وجاك كان مشحونًا بالأدرينالين.

صاحت حين ضربها، تراجعت، جلست على مؤخرتها لحظة، ثم قفزت نحو الضفة المقابلة.

أمسك جاك بيدي وولف وسحبه بكل ما أوتي من قوة.

صعد وولف ببطءٍ كجذع شجرةٍ مشبّعة بالماء، عيناه نصف مغمضتين، الماء يتدفق من أذنيه وأنفه وفمه، وشفته زرقاء.

وميض برقي مزدوج انقضّ يمينًا ويسارًا حيث كان جاك ممسكًا بوولف، فبدا الاثنان كزوج من السكارى يحاولان الرقص في حوض سباحة.

على الضفة الأخرى تمزق جسد بقرة خروف في كل اتجاه، رأسها المقطوع ما يزال يثغو.

تعرّجت شرارات النار الحارقة عبر المنطقة المستنقعية، تشعل القصب، ثم تلتهب العشب اليابس في الحقل الصاعد.

صرخ جاك «وولف! بحق المسيح!»

تمتم وولف «آه...» وتقيأ ماءً موحلًا دافئًا على كتف جاك.
«آآآآآآآه...»

ورأى جاك مورغان واقفًا على الضفة الأخرى، طويلًا، متقشفًا، بردائه الأسود.

غطاؤه يحيط بوجهه الشاحب كمصاص دماء بنوع من رومانسية كئيبة.

وخطر ببال جاك أن الأراضي مارست سحرها حتى هنا، لمصلحة عمه الرهيب.

هنا لم يكن مورغان سمينًا متورم، بل صار وجهه نحيفًا ذا جمالٍ جليديٍّ ذكوري.

وجّه العصا الفضية مثل عصا سحرية، فشقّت النار الزرقاء الهواء.

صرخ مورغان

"أنت وصديقك الأحمق الآن!"

انفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة نصرٍ عريضة كشفت عن أسنانٍ صفراء غائرة، محت الانطباع الأخير عن جماله إلى الأبد.

صرخ وولف واهتزّ في ذراعي جاك، كان يحدّق في مورغان، عيناه تشتعلان برتقاليًا من كراهية وخوف.

"أيها الشيطان! أنت الشيطان! أختي! أختي الصغيرة! وولف!

وولف! أيها الشيطان!"

أخرج جاك الزجاجة من سترته لم يعد فيها سوى رشفة واحدة.

لم يستطع أن يحمل وولف بذراع واحدة، كان يفقده، ووولف لم يعد قادرًا على حمل نفسه.

لكن لا بأس... لا يمكنه العودة إلى العالم الآخر...

أو ربما يستطيع؟

"أيها الشيطان!" صرخ وولف باكيًا، وجهه المبتل ينزلق على ذراع جاك.

ظهر سرواله العلوي يطفو ويتقوّس في الماء.

رائحة عشبٍ محترق... ورائحة لحمٍ محترق.

ورعدٌ متفجر.

هذه المرة اندفع نهر من النار في الهواء قرب جاك حتى احترقت شعيرات أنفه والتوت.

صرخ مورغان

"نعم، كلاكما! كلاكما! سألقنكما درسًا أيها الأنذال الصغار! سأحرقكما! سأدوسكما سحقًا!"

صرخ جاك «وولف، تمسّك بي!»

ترك محاولته لرفع وولف، وأمسك بيده بدلًا من ذلك بكل ما

يملك من قوة.

"تمسّك بي، أتسمع؟!"

"وولف!"

رفع الزجاجة، وملأ فمه بطعم العنب المتعفن البارد للمرة الأخيرة.

كانت الزجاجة فارغة، وسرعان ما سمعها تتحطم حين ضربها برق مورغان.

لكن صوت الزجاج المتكسر كان باهتًا... كطنين الكهرباء... حتى صرخات مورغان الغاضبة خفتت.

شعر وكأنه يسقط إلى الخلف في حفرة... ربما قبر.

ثم ضغطت يد وولف على يده بقوة جعلته يئنّ.

بدأ الإحساس بالدوار يتلاشى... ثم خبت الشمس، وتحولت إلى رمادية بنفسجية كئيبة من غروب أكتوبر في قلب أمريكا.

ضربه مطر بارد على وجهه، وأدرك أن ماء الجدول أصبح أبرد كثيرًا مما كان قبل لحظات.

من مكانٍ قريب، سمع أزيز شاحنات الطرق السريعة، لكن بدا أنها تأتي من فوق رأسه مباشرة.

مستحيل... أم هو كذلك؟

بدت حدود تلك الكلمة «مستحيل» تتمدد بمرونة عجيبة.

وللحظة دوار قصيرة، تخيّل شاحنات الأراضي وهي تطير، يقودها رجال بأجنحة قماشية مربوطة على ظهورهم.

عدت... عدت من جديد، نفس الوقت، نفس الطريق.

عطس..

ونفس البرد أيضًا.

لكن شيئين تغيّرا الآن.

لم يكن هناك منطقة استراحة.

كانا يقفان حتى الفخذين في ماءٍ جليدي تحت جسر الطريق السريع.

وولف كان معه.

وهذا هو التغيير الآخر...

وأخذ وولف يصرخ.

الفصل الثامن عشر
وولف سيذهب للسينما
1

مرّت فوقهما شاحنة أخرى، زئر محركها الديزل الضخم بينما أهتزّ الجسر العلوي من شدّة مرورها.

عوى وولف واندفع ممسكًا بجاك، وكاد يُسقطهما معًا في الماء.

صرخ جاك

"توقف! اتركني يا وولف! إنها مجرد شاحنة! اتركني!"

اضطر جاك لصفعه، فذعر وولف كان يبعث على الشفقة. لكن، شفقة أو لا، فـالحقيقة أن وولف أطول منه بما يقارب قدمًا كاملة وأثقل بما لا يقل عن مئةٍ وخمسين رطلاً، ولو أنه طرحه أرضًا بقوته تلك، لوقعا في الماء المتجمّد معًا، وحينها سيصابان بالتهاب رئوي لا محالة.

صرخ وولف

"وولف! لا يحب هذا! وولف! لا يحب هذا! وولف! وولف!"

لكن قبضته تراخت، وبعد لحظات تدلّت ذراعاه إلى جانبيه.

مرّت شاحنة أخرى تعوي من فوق الجسر، فانكمش وولف مذعورًا، لكنه تماسك ولم يعُد يمسك بجاك مجددًا.. فقط رفع

إليه نظرة مرتجفة صامتة، تقول بوضوح «أخرجني من هنا، أرجوك، أخرجني من هذا العالم، أُفضّل الموت على البقاء فيه.»

فكّر جاك بمرارة..

"لا شيء أريده أكثر من ذلك، يا وولف، لكن مورغان هناك... وحتى لو لم يكن، فلم يعُد عندي عصير السحر بعد الآن."

نظر إلى يده اليسرى، فوجد أنه لا يزال يمسك بعنق زجاجة سبيدي المكسور، كما لو كان يستعدّ لشجارٍ في حانة!

من حسن حظ وولف أنه لم يُصب بجرحٍ خطير حين أمسك به وهو في نوبة فزعه.

رمى جاك الزجاجة في الماء بلا اكتراث..

مرّت شاحنتان هذه المرة، فتضاعف الضجيج.

عوى وولف هلعًا وأطبق كفّيه على أذنيه، لاحظ جاك أن الشعر اختفى من يدي وولف تقريبًا بعد الانتقال معظمه، لا كلّه، كما لاحظ أن إصبعيه الأولين في كلّ يد كانا متساويين في الطول تمامًا.

قال جاك بعد أن خفّ ضجيج الشاحنات قليلًا

"هيا يا وولف، لنخرج من هنا.. نبدو كأننا اثنان ينتظران المعمودية في برنامج ديني تلفزيوني."

أمسك بيد وولف، لكنه تأوّه من شدّة قبضته المذعورة، لمح

وولف ملامح الألم على وجهه، فأرخى قبضته... قليلًا.

قال وولف بصوت مرتجف..

"لا تتركني، جاك. أرجوك، أرجوك لا تتركني."

"لن أتركك، وولف،" أجابه جاك.

ثم فكر ساخرًا.. «كيف تقحم نفسك في كل هذا يا أحمق؟ ها أنت تقف الآن تحت جسر سريع في مكانٍ ما من أوهايو، بصحبة مستذئبك الأليف! كيف تفعلها في كل مرة؟ هل تتدرّب على ذلك؟ وبالمناسبة، ما حال القمر الآن يا جاكي؟ هل تذكر؟»

لم يكن يذكر، ومع الغيوم الكثيفة التي تغطّي السماء والمطر البارد المنهمر، لم يجد وسيلة لمعرفة ذلك..

كم النسبة الآن؟ ثلاثون إلى واحد لصالحك؟ أم ثمانية وعشرون إلى اثنين؟

مهما كانت، فهي ليست جيدة بما يكفي.. ليس في ظلّ ما يحدث الآن.

ثم كرر..

"لن أتركك."

وقاد وولف نحو الضفة المقابلة للجداول.

في المياه الضحلة، طفت بقايا دمية طفل متعفّنة على ظهرها، وعيناها الزجاجيتان الزرقاوان تحدّقان في الظلام

الزاحف.

كانت عضلات ذراع جاك تؤلمه من شدّة الجهد الذي بذله لجرّ وولف إلى هذا العالم، ومفصل كتفه ينبض بالألم كأن فيه سنًّا فاسدة.

وحين خرجا من الماء إلى الضفة المكسوّة بالأعشاب والقمامة، بدأ جاك يعطس من جديد.

2

كانت المسافة التي قطعها جاك في الأقاليم هذه المرة لا تتجاوز نصف ميل نحو الغرب، وهي المسافة نفسها التي ساق فيها وولف قطيعه ليشرب من الجدول الذي كاد هو نفسه يغرق فيه لاحقًا.

أما هنا، في هذا العالم، فقد وجد نفسه، على حدّ تقديره، قد انتقل عشرة أميال أخرى إلى الغرب.

تسلّقا الضفة بصعوبة.. بل في الحقيقة كان وولف هو من سحب جاك معظم الطريق، وفي آخر خيوط الضوء رأى جاك مخرجًا يتفرّع إلى اليمين على بُعد نحو خمسين ياردة. كانت هناك لافتة عاكسة للضوء كُتب عليها:

«أركانوم آخر مخرج في أوهايو

خط الولاية على بُعد 15 ميلًا»

قال جاك

"علينا أن نستوقف سيارة لتقلّنا."

استفهم وولف بتردد..

"نستوقف سيارة؟"

رد جاك وهو يتأمله

"دعني أرى كيف تبدو الآن."

رآه مقبول المظهر على الأقل في الظلام، مازال يزال يرتدي سرواله الأزرق ذو الحمالات، والذي أصبح الآن يحمل بطاقة مصنع حقيقية، أما قميصه الخشن الذي كان منسوجًا يدويًا، فقد صار قميصًا أزرق من قماش ناعم يشبه ما يُباع في محلات الملابس المستعملة التابعة للجيش، وقدماه، اللتان كانتا عاريتين من قبل، تنتعلان الآن حذاءين واسعين مبلّلين وجوربين أبيضين.

لكن أغرب ما في الأمر أنه وضع في منتصف وجهه الكبير نظارة ذات إطار معدني مستدير، مثل تلك التي كان يرتديها الموسيقيون في الصور القديمة.

سأله جاك بدهشة

"وولف، هل كنت ترى بصعوبة في الأقاليم؟"

أجاب وولف

"لم أكن أعلم أني كذلك، لكن يبدو الأمر هكذا.. وولف! أرى أفضل بكثير هنا بهذه العيون الزجاجية.. وولف، هنا والآن!"

ثم نظر إلى الطريق السريع الصاخب، وللحظة قصيرة رأى جاك ما كان وولف يراه.. وحوش فولاذية ضخمة ذات عيون صفراء، بيضاء هائلة، تزأر عبر الليل بسرعات لا تُصدّق، وعجلاتها المطاطية تحرق الطريق بحرارتها..

ثم قال وولف بصوت حزين..

"الآن أرى أكثر مما تمنيت أن أرى."

3

بعد يومين، صارا صبيّان متعبان متقرّحا الأقدام يعرجان على جانب الطريق السريع رقم 32، متجاوزَين لافتة «حدود المدينة» من جهة، والمطعم المعروف باسم 10–4 على الجهة الأخرى، وهكذا دخلا مدينة مانسي بولاية إنديانا.

استبدت الحمى بجاك حتى بلغت مئة واثنتين، أخذ يسعل بلا انقطاع.

أما وولف فكان وجهه متورمًا ومزرقًّا، يشبه كلبًا مُلاكمًا خرج خاسرًا من معركة ثأرية..

في اليوم السابق حاول أن يجلب لهما بعض التفاح متأخر النضج من شجرةٍ تنمو في ظل حظيرة مهجورة بجانب الطريق، تسلّق الشجرة وبدأ يلقي بالتفاح الذابل في مقدّمة بذلته، لكن الدبابير التي بنت عشّها في سقف الحظيرة القديمة كان لها رأي آخر فقامت بمهاجمته..

هبط من الشجرة بأقصى ما يستطيع، ورأسه محاصرًا بسحابٍ بُنّيّ غاضب، صرخ بألم، ورغم ذلك، بعينٍ واحدة مغلقة تمامًا، وأنفٍ بدأ يشبه لفتةً أرجوانية ضخمة، أصرّ على أن يأكل جاك أفضل تلك التفاحات.

لم تكن أيٌّ منها جيدة.. صغيرة، حامضة، مليئة بالدود، ولم يكن جاك راغبًا في الأكل من الأساس، لكن بعد كل ما تحمّله وولف من أجله، فرت من نفسه قسوة الرفض.

مرت بهم سيارة «كامارو» قديمة ضخمة، مرفوعة من الخلف حتى صارت مقدمتها تشير إلى الطريق، وانطلقت كالطلقة.

صرخ أحدهم من النافذة

"أيها الأوغاد!"

ثم تعالت ضحكاتٌ صاخبة تعبق برائحة البيرة.

عوى وولف متشبثًا بجاك، وقد ظنّ جاك أن وولف سيتغلب في النهاية على خوفه من السيارات، لكنه بدأ يشكّ في ذلك حقًا..

قال له بتعبٍ وهو يبعد ذراعيه عنه للمرة العشرين أو الثلاثين في ذلك اليوم

"كل شيء بخير يا وولف، لقد ابتعدوا."

فأنّ وولف قائلاً

"صوتٌ مرتفع! وولف! وولف! وولف! صوتٌ مرتفعٌ جدًا يا جاك! أذناي، أذناي!"

قال جاك بإرهاق

"عادمٌ مُعدّل... بعض الرجال يحبّون الصوت، تعلم؟ إنهم..."

لكنه لم يكمل، إذ غلبه شعالٌ حادّ أحنَى ظهره، ورأى العالم من حوله يسبح في ضباب رماديّ قبل أن يعود إليه ببطء

شديد.

قال وولف متمتمًا بأسى

"يحبّونه؟ يا للعجب يا جاك! كيف يمكن لأحدٍ أن يحبّ هذا؟ والروائح..."

كانت الروائح هي الأسوأ بالنسبة لوولف.

لم يمضِ على وجودهما في هذا العالم أربع ساعات حتى بدأ يُطلق عليه «بلاد الروائح الكريهة».

في ليلتهم الأولى، تقيّأ ستّ مرات؛ في البداية أخرج ماءً موحلًا من جدولِ العالمِ الآخر على تراب أوهايو، ثم جفت معدته بلا طائل.

قال متألّمًا إنه لا يفهم كيف يحتمل جاك تلك الروائح، أو كيف يحتملها أحد.

كان جاك يعرف السبب.. فالعودة من الأراضي تصدمك بروائح لم تكن لتلاحظها أثناء عيشك بينها.. وقود الديزل، عوادم السيارات، نفايات المصانع، القمامة، المياه الفاسدة، والمواد الكيميائية المتعفّنة.

ثم تعتاد عليها من جديد... أو تفقد الإحساس بها..

لكن ذلك لم يحدث مع وولف.

لقد كره السيارات، وكره الروائح، وكره هذا العالم.

وجاك أيقن أنه لن يعتاد عليه أبدًا.

فكّر جاك «إن لم أُعِده إلى الأراضي قريبًا فسيفقد عقله...

وربما سيفقدني عقلي معه، وليس أمامي الكثير لأخسره من الأساس.»

مرت شاحنة زراعية صاخبة محمّلة بالدجاج، تبعها صفٌ من السيارات الغاضبة، أطلق بعضها ابواقه،

فقفز وولف تقريبًا إلى أحضان جاك،

وبسبب الحُمّى، ترنّح جاك وسقط في حفرة مليئة بالعشب والنفايات، وجلس بعنفٍ حتى اصطكت أسنانه.

قال وولف بأسى

"آسف يا جاك... بدلعنة الله عليّ!"

فرد جاك لاهثًا..

"ليست غلطتك... اجلس، حان وقت الاستراحة."

جلس وولف بجانبه صامتًا، يرمقه بقلق..

مدرك كم يصعّب الأمور على جاك، وأن جاك يتلهّف للمضيّ بسرعة أكبر، ليس فقط هربًا من مورغان، بل لسببٍ أعمق لا يُصرّح به..

يعرف أنه في نومه يهذي باسم أمه، وأحيانًا يبكي، ولم يره يبكي وهو مستيقظ إلا مرة واحدة بعد أن فقد أعصابه قليلًا عند مخرج طريق أركانون.

حينها فقط فهم ما يقصده جاك بكلمة «الانتقال بالركوب».

وعندما قال لوولف إنه لا يظن أنه يستطيع ركوب السيارات على الأقل الآن وربما أبدًا جلس جاك على السلك المعدني الأعلى في الدرابزين وبكى، وأخفى وجهه بين يديه.

ثم توقّف عن البكاء، وهو أمرٌ جيّد...

لكن عندما رفع وجهه، نظر إلى وولف نظرةً جعلته متيقّنًا أن جاك سيتركه في هذه «البلاد ذات الروائح الكريهة»...

وحينها، من دون جاك، سيفقد وولف عقله تمامًا...

4

سارا بمحاذاة مخرج أركانون في حارة التوقف، فيما كان وولف يتقلّص خوفًا ويشدّ على جاك كلما مرّت سيارة أو شاحنة في الغسق المتكاثف.

سمع جاك صوتًا ساخرًا يتطاير خلفهما مع تيار الهواء..

"أين سيارتكما أيها الشاذّان؟"

هزّ رأسه كما يزيح الكلب الماء عن عينيه، ومضى صامتًا ممسكًا بيد وولف، يجرّه كلما تباطأ أو حاول الانحراف نحو الغابة.

الأهم هو أن يغادرا الطريق السريع ذاته، حيث يُحظر التوصيل بالإبهام، وينزلا إلى مخرج أركانون المؤدي غربًا.

بعض الولايات ـ كما أخبره أحد المتشردين الذين تقاسم معهم حظيرة ذات ليلة ـ كانت قد شرّعت التوصيل من المنحدرات، وحتى في الولايات التي يُعدّ فيها الأمر مخالفة، عادة ما يتغاضى رجال الشرطة إن كان المنتظر واقفًا على المنحدر.

أولًا إذن، الوصول إلى المنحدر، مع الأمل بألا تمرّ دورية الولاية أثناء ذلك.

لم يجرؤ جاك حتى على تخيّل ما الذي قد يظنه شرطيّ إن رآه مع وولف...

ربما سيظن أنه أمسك بتجسيدٍ من الثمانينيات لتشارلز مانسون يرتدي نظارات جون لينون.

وصلا إلى المنحدر وعبراه إلى الجهة الغربية،

بعد عشر دقائق توقّفت أمامهما سيارة «كرايسلر» قديمة مهترئة.

كان السائق رجلاً ضخمًا ذا عنقٍ سميك، يعتمر قبعة كُتب عليها معدات مزرعة كيس، أزاحها إلى الخلف، وانحنى ليفتح الباب،

قال مبتسمًا

"اصعدا أيها الصبيان! ليلة قذرة، أليس كذلك؟"

ردّ جاك بمرحٍ متكلّف..

"شكرًا يا سيدى، بلى، كذلك هى."

تزاحمت أفكاره بجنون محاولًا ابتكار حكاية تُفسّر وجود وولف، فلم ينتبه إلى ملامح وجه الأخير...

لكن الرجل انتبه..

تجمّدت ابتسامته، وتصلّب وجهه،

قال بنبرة حادة

"أتشمّ رائحة كريهة يا بُني؟"

عاد جاك إلى وعيه، فقد تبدّل صوت الرجل كما تبدّلت

ملامحه؛ غادرته الودّية كلها، وصار صوته جافًا كأنه خرج لتوّه من حانة يتناول فيها البيرة بالعشرات.

استدار جاك نحو وولف،

كانت أنفاس وولف تتسارع وأنفه يتّسع مثل أنف دبّ شَمّ رائحةً ظربانٍ نافق، وشفتاه منكمشتان حتى بدا فمه مزمومًا بانقباضٍ عضليّ.

تسائل الرجل بصوتٍ منخفض موجّهًا كلامه لجاك

"أهو متخلّف عقليًا؟"

رد جاك مرتبكًا..

"لا، إنه فقط..."

لكن وولف بدأ بالهدير الخافت،

وهنا انتهى كل شيء.

قال الرجل متعجبًا وقد نفد صبره

"يا إلهي!"

ثم ضغط دواسة البنزين، وانطلقت السيارة هادرة أسفل المنحدر، بينما الباب يتأرجح حتى انغلق.

تلاشت أضواءها الحمراء وسط المطر، تاركة انعكاساتٍ باهتة على الطريق المبلل.

صاح جاك بحدة

"رائع جدًا!"

ثم استدار إلى وولف، الذي تراجع خوفًا من غضبه.

"رائع بحق! لو كان معه جهاز لاسلكي، لكان الآن ينادي الشرطة على القناة التاسعة عشرة، يخبرهم أن هناك مجنونَين يحاولان الحصول على توصيلة من أركانون!

يا إلهي! أو يا يسوع! أو أياً يكن! أتريد أن ترى كيف تُدقّ المسامير يا وولف؟ افعل هذا مرة أخرى، وستشعر بها تُدقّ! نحن من سيتلقى الضرب!»

كان جاك منهكًا، مذهولًا، غاضبًا معدمًا، تقدّم نحو وولف المرتعب، الذي كان بإمكانه أن يطيح رأسه بضربة واحدة لو أراد، لكن وولف تراجع مذعورًا...

قال متوسلاً..

"لا تصرخ يا جاك... الروائح... أن أحبس هناك... مع تلك الروائح..."

صرخ جاك بصوتٍ مبحوح

"لم أشم شيئًا!"

شُرخ صوته ألمًا، لكن الغضب كان أقوى من الألم، شعره المبتل التصق بعينيه فهزّه عن وجهه، وصفع وولف على كتفه.

صدر صوتٌ حادٌ، وتألمت يده فورًا كأنها ارتطمت بالصخر.

عوى وولف بعجز، فزاد ذلك من غضب جاك.

زاد غضبه أكثر لأنه كان يكذب على نفسه فقد شمّ رائحة بالفعل، رائحة خانقة، كرائحة جحر حيوانٍ بريّ.

قهوة قديمة، وبيرة طازجة كانت هنالك علبة مفتوحة بين ساقي الرجل ومعطّرٌ يتدلّى من المرآة، تفوح منه رائحة بودرةٍ جافة كالتي توضع الجثث...

وكان هناك شيءٌ آخر، شيءٌ رطب، أعمق، أكثر ظلمة...

صرخ مجددًا

"لم أشم شيئًا!"

وصفعه على كتفه الأخرى.

فعوى وولف ثانية واستدار منكمشًا مثل طفلٍ يُضرَب من أبٍ غاضب،

بدأ جاك يصفعه على ظهره، ترتطم يداه المبللتان بملابس وولف المبتلة فتتناثر رذاذات الماء،

ومع كل صفعةٍ يعلو عواء وولف..

"الأفضل أن تعتاد الأمر!" (صفعة)

"السيارة القادمة ربما تكون شرطيًا!" (صفعة)

"وربما مورغان بلوت نفسه بسيارته الخضراء المقززة!" (صفعة)

"وإن كنت لا تجيد سوى التصرّف كطفلٍ باكٍ، فسنغرق في عالمِ قذرٍ من المتاعب!"(صفعة) "أتفهم؟!"

لم يجب وولف..

ظلّ منحني الظهر في المطر، يرتجف ويبكي..

شعر جاك بغصّةٍ تخنقه، وحرارةٍ في عينيه، زادتا غضبه أكثر..

جزءٌ مظلمٌ في داخله أراد أن يؤذي نفسه، وعرف أن إيذاء وولف طريقة فعالة لتحقيق ذلك..

قال صارمًا

"استدرا!"

استدار وولف، والدموع تنساب من عينيه العسليتين خلف نظاراته الدائرية، والمخاط يسيل من أنفه..

سأله جاك

"أتفهمني؟"

قال وولف بأنينٍ خافت

"نعم، أفهم، لكني لم أستطع الركوب معه يا جاك."

"لماذا؟"

قالها جاك بحدة، واضعًا قبضتيه على خاصرته، وصداعه يزداد.

قال وولف بصوتٍ خفيض

"لأنه كان يحتضر."

تجمّد جاك، وتسرّب الغضب من وجهه كالماء.

قال وولف بهدوءٍ حزين

"جاك، ألم تكن تعلم؟ وولف! ألم تشمّ ذلك؟"

همس جاك

"لا..."

لكن في أعماقه عرف أنه قد شمّ شيئًا غريبًا، شيئًا يشبه مزيجًا من...

وفجأة أدركها...

جلس على السلك المعدني للحاجز، وقد خارت قواه،

كانت الرائحة أشبه بروثٍ وعنبٍ متعفّن.

ليست مطابقة، لكنها قريبة حدّ الرعب.

روثٌ وعنبٌ متعفّن.

قال وولف بصوتٍ خافتٍ مشوبٍ بالرعب..

"إنها أسوأ رائحة... إنها حين ينسى الناس كيف يكونون أصحّاء. نسمّيها، وولف! المرض الأسود. لا أظن أنه كان يعلم أنه مصاب به... وهؤلاء الغرباء لا يستطيعون شمّه، أليس كذلك يا جاك؟"

أجاب جاك همسًا

"لا."

ولو أنه عاد الآن إلى نيوهامبشير، إلى غرفة أمه في قصر الحمراء، هل كان سيشمّ تلك الرائحة فيها؟

نعم..

كان سيشمّها تتصاعد من مسامها، رائحة الروث والعنب المتعفّن... المرض الأسود..

همس جاك

"نحن نسمّيه السرطان... السرطان الذي أصاب أمي."

قال وولف

"لا أعرف إن كنت أستطيع استقلال السيارات، يا جاك... سأحاول ثانية إن أردت، لكن الروائح... داخلها... إنها أسوأ من الهواء بالخارج، وولف!"

عندها دفن جاك وجهه بين يديه وبكى... بكى من اليأس والإرهاق معًا..

ونعم، النظرة التي رآها وولف على وجهه كانت حقيقية؛ ففي لحظةٍ خاطفة تحوّلت الرغبة في ترك وولف من مجرّد فكرة إلى إغراءٍ مجنون،

فلقد كانت احتمالات الوصول إلى كاليفورنيا والعثور على التعويذة ضئيلة منذ البداية، والآن أصبحت شبه مستحيلة.

وجود وولف لم يكن عبثًا فحسب، بل خطرًا سيزجّ بهما في السجن عاجلًا أو آجلًا، وربما عاجلًا جدًا..

كيف سيبرر وجود وولف لريتشارد سلوت العاقل أصلًا؟

ما رآه وولف على وجه جاك حينها كان برودًا قاسيًا زلزل ركبتيه، فسقط جاثيًا عليهما، ورفع يديه متوسلًا كعاشقٍ في مسرحية فيكتورية رديئة..

"لا تتركني يا جاك، لا تترك وولف العجوز، لا تتركني هنا... لقد جئت بي إلى هنا... أرجوك، أرجوك لا تتركني وحدي..."

ثم ذابت الكلمات في البكاء، صار يحاول الكلام، لكنه لم يعد قادرًا إلا على النحيب.

أحسّ جاك بثقلٍ هائلٍ يغشى عليه كمعطفٍ قديمٍ يعرفه جيدًا...

"لا تتركني هنا، لقد جئت بي إلى هنا..."

نعم... كان وولف مسؤوليته.

هو من أمسك بيده وسحبه من الأراضي إلى أوهايو، وكتفه الموجوع دليلًا على ذلك..

نعم، هو لم يملك خيارًا آخر، فوولف كان يغرق، وحتى لو نجا من الغرق، لأحرقه مورغان بذلك الصاعق الذي كان يحمله.

كان يمكنه أن يقول له ساخرًا..

"أيّهما تفضّل يا وولف العزيز؟ أن تكون هنا خائفًا أم هناك ميّتًا؟"

ووولف لن يملك الإجابة، لأنه ببساطة لم يكن سريع الفهم.

لكن جاك تذكّر مثلًا صينيًا كان يردّده عمّه تومي

"من تنقذ حياته، تصبح مسؤولًا عنه ما بقيت حيًا."

إذن لا جدوى من التنصّل أو المراوغة وولف مسؤوليته.

قال وولف من بين دموعه

"لا تتركني يا جاك... وولف-وولف! أرجوك لا تترك وولف الطيب، سأساعدك، سأقف حارسًا في الليل، أستطيع فعل الكثير، فقط لا... لا..."

قال جاك بهدوءٍ متعب

"كفّ عن البكاء وانهض.. لن أتركك،

لكن يجب أن نرحل قبل أن يعود ذلك الرجل ومعه شرطيّ ليبحثا عنا.. هيا بنا.»

5

سأل وولف بخجل..

"هل قررت ما الذي سنفعله بعد الآن يا جاك؟"

كانا يجلسان في خندق تغطيه الحشائش، بعد حدود بلدة مانسي بقليل، منذ أكثر من نصف ساعة. وحين التفت جاك نحو وولف، شعر وولف بالراحة لأنه رآه يبتسم.. كانت ابتسامة مرهقة، ولم يُعجبه السواد الذي يحيط بعيني جاك المتعبتين (ولا الرائحة التي تفوح منه، كانت رائحة مريضة)، لكنها رغم ذلك ابتسامة.

قال جاك

"أظنني أرى ما ينبغي علينا فعله بعد الآن، هناك تمامًا."

وأشار بيده، ثم أضاف..

"فكرت في الأمر قبل أيام قليلة، عندما اشتريت حذائي الرياضي الجديد."

انحنى قليلًا ليريه حذاءه.. نظر هو ووولف إليه بصمت كئيب، صار متسخًا، باهت اللون، وقد اهترأ بشدة، النعل الأيسر بدأ يودّع الجزء العلوي وداعٍ طويل.. قطب جاك جبينه محاولا تذكر منذ متى اشتراه، لكن الحمّى جعلت التفكير صعبًا عليه.. ثلاثة أيام.. فقط ثلاثة أيام منذ أن انتقاه من صندوق التخفيضات في متجر ‹فايفا›.

والآن يبدو قديماً... قديماً جدًا.

تنهد جاك، ثم أشرق وجهه فجأة وقال..

"أترى ذلك المبنى هناك يا وولف؟"

كان المبنى كتلة رمادية من الطوب، زواياه كثيرة وغير مثيرة للاهتمام، يقف كجزيرةٍ وسط ساحة انتظار ضخمة، وكان وولف يعرف جيدًا ما ستكون عليه رائحة الإسفلت هناك.. رائحة حيوانات ميتة تتحلل ببطء.. رائحة كانت ستخنقه، في حين أن جاك بالكاد سيلتفت إليها.

قال جاك..

"اللافتة هناك تقول "تاون لاين سيكسبليكس". الاسم يوحي أنه إبريق قهوة، لكنه في الحقيقة دار عرض فيها ست صالات سينما، لا بد أن هناك فيلمًا واحدًا على الأقل سيعجبنا."

وأضاف في نفسه بمرارة.. وفي فترة الظهيرة لن يكون هناك الكثير من الناس، وهذا أمر جيد، لأنك يا وولف لديك تلك العادة المزعجة في أن تفقد صوابك فجأة.

ثم صاح عاليًا..

"هيا بنا."

ونهض مترنحًا على قدميه..

سأل وولف بتردد

"وما الفيلم يا جاك؟"

كان يدرك أنه سبّب الكثير من المتاعب لجاك.. متاعب لا حصر لها.. حتى إنه أصبح يخاف أن يعترض أو يُبدي قلقه، لكن حدسًا مقلقًا انتابه.. أن الذهاب إلى فيلم ربما يشبه محاولة طلب الركوب من الغرباء،

كان جاك يسمّي العربات الصاخبة ذات العجلات «سيارات»، و«شيفي»، و«جارتـران»، و«ستيشن واغن» (وقد ظن وولف أن الأخيرة تشبه العربات التي كانت تنقل الركاب بين المحطات في الأراضي الأخرى). فهل يمكن أن تكون هذه العربات نفسها تُسمّى أيضًا «أفلامًا»؟ بدا ذلك ممكنًا تمامًا.

رد جاك

"حسنًا، من الأسهل أن أريك بدل أن أشرح لك.. أظن أنك ستحبه.. هيا تعال."

تعثّر جاك وهو يخرج من الخندق وسقط على ركبتيه للحظة.

فسأله وولف بقلق

"هل أنت بخير، يا جاك؟"

أومأ جاك برأسه دون كلام، ثم تابعا سيرهما معًا، عابرَين ساحة الانتظار، وكانت الرائحة تمامًا كما تخيّلها وولف.. خانقة، مشبعة بالموت، كأن الهواء نفسه يفوح منه عفن قديم.

6

قطع جاك جزءًا كبيرًا من المسافة البالغة خمسةً وثلاثين ميلًا بين أركانون(31) في أوهايو ومانسي في إنديانا على ظهر وولف العريض.

فبرغم خوف وولف من السيارات، وذعره من الشاحنات، وتقززه من معظم الروائح تقريبًا، وميله إلى العواء والركض عند سماع الأصوات المفاجئة العالية.. فهو لا يكلّ تقريبًا.. بل كما فكّر جاك في تلك اللحظة، لا داعي لكلمة «تقريبًا» فهو في حدود معرفته لا يكلّ أبدًا...

أبعد جاك نفسه ووولف عن مخرج أركانون بأقصى سرعة استطاعها، مجبرًا ساقيه المبللتين المتأمتين على الجري بخطى متثاقلة.. ورأسه يخفق داخل جمجمته كقبضة تنبض وتنبسط، وأمواج من الحر والبرد تتناوب على جسده.. تحرك وولف بخفة إلى جانبه الأيسر، بخطوته الطويلة التي جعلته يساير جاك بسهولة تامة بمجرد أن يمشي بسرعة معتدلة.

علم جاك أنه ربما أصبح مفرط الحذر من الشرطة، لكن الرجل الذي كان يرتدي قبعة المزرعة بدت عليه علامات الخوف الشديد... والغضب كذلك.

لم يبتعدا حتى ربع ميل حين داهم جاك ألم حارق في جنبه، فطلب من وولف أن يحمله على ظهره قليلًا.

تمتم وولف..

"هاه؟"

قال جاك وهو يشرح بالإشارة

"تعرف، أريد أن أركب على ظهرك قليلًا."

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه وولف. وأخيرًا وجد شيئًا يفهمه، شيئًا يمكنه فعله.

صرخ بفرح

" نعم أظنك تريد الركوب على ظهري مثل الحصان، أليس كذلك؟"

قال جاك

"أجل! وولف! هنا والآن!"

"كنت أفعل ذلك مع إخوتي في القطيع! هيا، اركب يا جاك!"

انحنى وولف، ويداه مقوستان كأنهما ركابان لفخذي جاك.

قال جاك وهو يتهيأ

"وعندما تشعر أني أثقلت عليك، فقط ضعني أ..."

لكن قبل أن يُكمل، كان وولف قد رفعه بسهولة وبدأ يركض بخفة في الطريق نحو الظلام.. ركض بحق لدرجة أن الهواء البارد الممطر صفّف شعر جاك إلى الخلف بعيدًا عن جبينه الساخن.

صرخ جاك

"وولف، سئرهق نفسك!"

ردّ وولف وهو ضاحكًا

"لست أنا! وولف! وولف! يركض هنا والآن!"

ولأول مرة منذ عبورهما، بدا وولف سعيدًا بحق.. ركض ساعتين كاملتين حتى تجاوزا أركانون وسارا على طريق ضيق ذي مسارين يلفّهما السواد، بلا علامات أو أضواء، لمح جاك حظيرة مهجورة مائلة في حقل كثيف العشب غير المعتنى به، فناما هناك تلك الليلة.

لم يرد وولف الاقتراب من المناطق المزدحمة حيث السيارات تزأر كالسيل والروائح الخانقة ترتفع إلى السماء كسحابة سامة، ولم يكن جاك يريد ذلك أيضًا فوجود وولف كان لافتًا أكثر مما ينبغي، لكن جاك اضطر للتوقف مرة واحدة عند متجر على جانب الطريق عبر حدود إنديانا، قرب بلدة هاريسفيل.

بينما كان وولف ينتظر بتوتر على حافة الطريق يقرفص، يحفر التراب بأصابعه، ينهض، يدور في دائرة صغيرة متوترة، ثم يقرفص من جديد دخل جاك المتجر واشترى صحيفة، وراجع صفحة الطقس بعناية، فوجد البدر القادم في الحادي والثلاثين من أكتوبر... عيد الهالوين، وكان ذلك مناسبًا تمامًا.. ثم قلب الصفحة الأولى ليتأكد من التاريخ الحالي... فالأمس... كان ذلك، «الآن» السادس والعشرين من أكتوبر.

7

فتح جاك أحد الأبواب الزجاجية ودخل ردهة سينما تاون لاين سيكس بليكس، التفت بنظرة حادة نحو وولف، لكن وولف بدا في تلك اللحظة على الأقل بخير إلى حدٍّ ما.. كان في الواقع، متفائلًا بحذر... على الأقل في الوقت الراهن، لم يحبّ أن يكون داخل مبنى، لكنه على الأقل لم يكن داخل سيارة.

انتشرت في المكان رائحة طيبة خفيفة ولذيذة نوعًا ما، لولا أنّ ثمة رائحة أخرى مزّة، كأنها فاسدة، امتزجت بها، نظر وولف إلى يساره فرأى صندوقًا زجاجيًا مليئًا بمادة بيضاء.. تلك كانت مصدر الرائحة الطيبة.

قال هامسًا

"جاك."

"هاه؟"

"أريد من تلك المادة البيضاء، من فضلك. لكن دون ذلك البول."

"بول؟ عمّ تتحدث؟"

بحث وولف عن كلمة أكثر رسمية ووجدها..

"البول البشري." ثم أشار إلى آلة مضيئة يشتعل فيها الضوء وينطفئ، كُتب عليها (نكهة الزبدة.)

"أليس ذلك نوعًا من البول؟ لا بدّ أنه كذلك من رائحته."

ابتسم جاك بتعب وقال

"إذن فشار من دون الزبدة الصناعية، مفهوم. والآن اخفض صوتك، أرجوك."

"بالطبع يا جاك، حالاً." قالها وولف بخضوع.

كانت الفتاة التي تبيع التذاكر تمضغ علكة بطعم العنب، توقفت الآن. نظرت إلى جاك، ثم إلى رفيقه الضخم ذي الهيئة المريبة، بدت العلكة على لسانها داخل فمها نصف المفتوح مثل ورم أرجواني كبيرا دارت عيناها نحو الرجل خلف المنضدة.

قال جاك

"تذكرتان، من فضلك."

وأخرج لفافة نقود، أوراقًا متسخة مثنية الأطراف، تخفي بينها ورقة خماسية يتيمة.

قالت الفتاة وهي تنظر بين جاك ووولف في حركة متكرّرة تشبه متابعة مباراة تنس حامية

"لأي عرض؟"

"ما الفيلم الذي بدأ الآن؟"

"حسنًا... هناك التنين الطائر في القاعة الرابعة، فيلم كونغ فو من بطولة تشاك نوريس.» عادت نظراتها تتأرجح بينهما..

«وفي القاعة السادسة عرض مزدوج، فيلمان رسوم متحركة لرالف باكشي السحرة وسيد الخواتم.»

شعر جاك بالارتياح.. فوولف ليس سوى طفل كبير، والأطفال يعشقون الرسوم المتحركة، ربما تنجح هذه الخطة أخيرًا، فيجد وولف شيئًا في «بلاد الروائح الكريهة» يُسعده قليلًا، ويتمكّن هو من النوم ثلاث ساعات.

"فيلما، الرسوم المتحركة."

"السعر أربعة دولارات،" قالت، "تنتهي عروض التخفيضات عند الثانية ظهرًا." ضغطت زرًا فخرجت تذكرتان بصوت ميكانيكي حاد فارتدّ وولف إلى الوراء مذعورًا.

رفعت الفتاة حاجبيها وقالت

"عصبي أنت، يا سيد؟"

"لا، أنا وولف،" قال مبتسمًا، كاشفًا عن صف طويل من الأسنان، كان جاك ليقسم أن وولف صار يُظهر أسنانًا أكثر مما كان قبل يومين فقط.

نظرت الفتاة إلى تلك الأسنان، ولعقت شفتيها.

قال جاك مبرّرًا..

"إنه بخير. فقط... لا يغادر المزرعة كثيرًا، تفهمين."

ناولها الورقة ذات الخمسة دولارات، فتناولتها بحذر كأنها تخشى أن تحترق أصابعها بها.

"هيا، وولف."

وبينما هم يبتعدا نحو منصة الحلوى، تمتمت الفتاة للعامل خلفها وهي تنظر خلسة

"انظر إلى أنفه!"

نظر جاك إلى وولف فرآه يحرّك أنفه باستمرار في حركة منتظمة.

"توقّف عن ذلك،" همس له.

"أتوقّف عن ماذا، يا جاك؟"

"تلك الحركة بأنفك."

"آه، سأحاول يا جاك، لكن..."

"شششش."

قال العامل خلف المنضدة

"أترغب بالمساعدة يا بني؟"

"نعم، من فضلك. علبة من حلوى النعناع الصغيرة، وقطعة من شوكولاتة زبدة الفول السوداني، وفشار كبير جدًا من دون دهن."

ناولهم الرجل الطلب، أمسك وولف بدلو الفشار بكلتا يديه، وبدأ يلتهمه بعنف، تتقافز فكّاه مع كل قضمة. راقب العامل هذا المشهد بصمت.

قال جاك محاولًا التبرير..

"كما قلت، لا يغادر المزرعة كثيرًا."

كان جزء من عقله يتساءل إن كان العامل والفتاة قد رأيا ما يكفي من الغرابة ليتصلا بالشرطة.. وفكّر.. وليس للمرة الأولى.. كم أن في الأمر مفارقة مريرة.. فلو كانا في نيويورك أو لوس أنجلوس، لما ألقى أحد نظرة ثانية على وولف... أو إن فعل، فلن تكون ثالثة بالتأكيد.. يبدو أن تحمّل الغرابة أقل كثيرًا هنا في قلب البلاد، لكن، بالطبع، وولف كان ليجنّ تمامًا لو انتقلا لنيويورك أو لوس أنجلوس.

قال العامل

"أراهن أنه لا يفعل."

"هذا اثنان وثمانون سنتًا."

دفع جاك المبلغ وهو يشعر بوخزة داخله؛ فقد أُنفق ربع ما معه من مال لقاء هذا «العصر الذهبي للسينما».

كان وولف يبتسم للعامل وهو يمضغ الفشار، ابتسامة كبيرة يعرفها جاك جيدًا.. ابتسامته «الودية رقم واحد» لكنه شك أن العامل يراها على هذا النحو، فقد بدت ابتسامة مليئة بالأسنان... كثيرة جدًا، كما لو كانت مئات منها.. وها هو وولف يحرك أنفه مجددًا.

ليتصلوا بالشرطة إن أرادوا، فكّر جاك بتعبٍ يسبق عمره.. لن يؤخّرونا أكثر مما نحن عليه أصلًا.. لا يستطيع ركوب

السيارات الجديدة لأنها تخنقه برائحة المحوّلات الحفّازة، ولا القديمة لأنها تفوح منها رائحة العادم والعرق والزيت والبيرة، ربما لا يستطيع ركوب أي سيارة، لأنه ببساطة مصاب برهاب الأماكن المغلقة.. ولٰنكن صادقين يا جاك، حتى وإن قلت لنفسك إنه سيتخطى ذلك قريبًا، فأنت تعلم أنه لن يحدث.. فماذا سنفعل؟ سنعبر إنديانا سيرًا على الأقدام على ما يبدو.. لا، بل وولف سيعبرها سيرًا، وأنا سأعبرها على ظهره مثل حصان، لكن قبل ذلك، سأدخله إلى هذا المسرح اللعين وأنام حتى نهاية الفيلمان أو تأتي الشرطة...

وتلك، يا سيدي، خاتمة حكايتي.

قال العامل

"استمتعوا بالعَرَض."

"بكل تأكيد،" أجاب جاك.

بدأ يمشي، ثم أدرك أن وولف لم يتحرّك.. كان واقفًا يحدّق بشيء فوق رأس العامل بدهشة خرافية تكاد تكون دينية.. رفع جاك رأسه فرأى مجسّمًا متحرّكًا يروّج لإعادة عرض فيلم (اللقاءات القريبة من النوع الثالث)(32) لستيفن سبيلبرغ، يتمايل في الهواء مع تيارات التدفئة.

ناداه جاك بهدوء

"هيا يا وولف."

8

أدرك وولف، منذ اللحظة التي ولجا فيها الباب، أن الأمر لن يُفلح.

كانت الغرفة ضيقة، خافتة الضوء، تعبق برطوبة خانقة، والروائح فيها فظيعة إلى حدٍّ لا يُطاق.

ولو شم شاعرٌ ما، ما يشمه وولف الآن، لأطلق عليها (رائحة الأحلام الفاسدة.)

لكن وولف لم يكن شاعرًا.. كل ما أدركه أن نتن القُشار الممتزج بالبول هو السائد، وأن الغثيان يرتفع في جوفه كعاصفة.

ثم أخذ الضوء يخبو شيئًا فشيئًا، حتى غدت الغرفة كهفًا.

تمتم وولف وهو يتشبث بذراع جاك

"جاك... دعنا نغادر، أرجوك."

قال جاك بصوتٍ خفيض، محاولًا تهدئته

"سثعجبك يا وولف، صدّقني."

كان يُدرك اضطرابه، لا عمقه؛ فالوَجَلُ في هذا العالم كان سِمَة وولف، لا حالته..

"جرب فقط."

أجابه وولف هامسًا

"حسنًا."

سمع جاك الكلمة، لكنه لم يسمع الرجفة الرفيعة التي حملت معنى التشبث الأخير بالخيط الباقي من السيطرة.

جلسا، وكان وولف في المقعد الملاصق للممرّ، ركبته مطوية بغير ارتياح، يحتضن دلو الفُشار الذي فقد شهيّته له.

في الصفوف الأمامية، اشتعل عود ثقاب للحظة،

وشمّ جاك رائحة الحشيش اليابسة التي صارت مألوفة في دور السينما،

أما وولف فشمّ حريقًا في الغابة.

"جاك!"

"ششش... الفيلم سيبدأ."

وغفى جاك.

غير مدرك أبدًا بطولة وولف في الدقائق التالية؛ بل إن وولف نفسه لم يُدركها..

كل ما عرفه أنه ينبغي عليه أن يصمد في هذا الكابوس من أجل جاك.

مرددًا في نفسه «لا بد أن الأمور على ما يُرام، انظر، يا وولف، جاك يغطّ في النوم، ينام هنا والآن... وجاك ما كان ليأخذك إلى مكانٍ يؤذيك.. اصبر فقط... انتظر... وولف... كل شيء سيكون بخير...»

لكن وولف كان كائنًا تدور حياته في دوراتٍ غريزية،

ودورته كانت تقترب من ذروتها الشهرية..

كانت غرائزه في أوجها، حادّة لا تُكذّب..

وعقله يقول له إن الأمور آمنة، وإن جاك لم يكن ليقوده إلى الأذى،

لكن ذلك أشبه برجلٍ يُؤنّب نفسه ألا يعطس في الكنيسة لأنّ العطاس هناك غير لائق.

جلس يتشمم رائحة الحريق في الكهف المعتم،

يرتجف كلما تحرك ظلّ في الممر،

ينتظر في جمودٍ شيئًا يسقط عليه من العتمة.

ثم انفتحت النافذة السحرية في مقدمة الكهف،

وجلس وولف هناك، يختنق بعرق خوفه، عيناه متسعتان، ووجهه مقنع بالذعر،

يشاهد السيارات تتحطم وتنقلب، والمباني تشتعل، ورجلاً يطارد آخر.

تمتم جاك بنعاس

"إعلانات... قلت لك ستحبها.."

ترددت أصواتٌ آلية

"يُمنع التدخين."

"الرجاء عدم إلقاء القمامة."

"تخفيضات جماعية متوفّرة."

"عروض ما بعد الظهيرة حتى الرابعة مساءً.»

تمتم جاك

"خُدعنا يا وولف..."

ثم انقلب صوته إلى شخيرٍ هادئ.

وجاء الصوت الأخير يقول

"والآن... العرض الرئيسي!"

وفي تلك اللحظة، انفلت وولف تمامًا.

كان فيلم سيد الخواتم يُعرض بصوت «دولبي"(33) مدوٍّ، وقد أمر المشغّل أن يرفعه في العروض النهارية لأن «المزاجيين» يحبّون الضجيج.

وانفجر النحاس في صرخةٍ معدنيةٍ صاخبة،

وانفتحت النافذة السحرية مجددًا،

فرأى وولف النار، تتلوى ألسنتها في تدرجاتٍ من الأحمر والبرتقالي.

عوى وولف واندفع واقفًا، ساحِبًا معه جاك نصف النائم.

صرخ بجنون

"جاك! النار! يجب أن نخرج! وولف يرى النار!"

صرخ أحدهم من الخلف

"اقعد يا من في الأمام!"

ورد آخر

"اخرس يا مجنون!"

وانفتح باب مؤخرة القاعة، ودوى صوتٌ صارم

"ما الذي يحدث هنا؟"

همس جاك بلهفة

"وولف، بالله عليك، اسكت!"

لكن وولف عوى، عواءً يشقّ الصدر

«آآآآآووووووووووووووووووووووووووو!»

صرخت امرأة في الرواق حين وقعت عينها عليه تحت الضوء،

واندفعَت تجرّ ابنها من ذراعه، يسحب قدميه على السجادة المليئة بالفُشار،

وقد سقطت إحدى فردتَي حذائه.

«آآآآآووووووووووووووووووووووووووو!»

التفت شابٌ في الصف الثالث بسيجارته المشتعلة، وعيناه نصف مغمضتين،

قال بخمول

"واو... عاد مستذئبي لندن"

قال جاك، محاولًا التماسك

"حسنًا.. حسنًا سنخرج لكن أرجوك يكفي هذا"

قاد وولف نحو المخرج،

والتعب يغمره كغيمةٍ ثقيلة.

وخزه الضوء الخارج من البهو،

فرأى المرأة التي جرّت طفلها ملتصقة بالجدار، تحتمي به كأنها تواجه خطرًا مميتًا،

وحين مرّ وولف عاويًا بجوارها، حملت طفلها وهربت كالمجنونة.

تجمّع عند الكاونتر العامل وفتاة التذاكر والمشغّل ورجل طويل بمعطف مربّع النقوش، بدا أنه المدير.

ومن أبواب الصالات المجاورة أطلّت وجوهٌ نصف غارقة في العتمة،

بدَت لجاك مثل غُرَيرٍ يطلّ من جحره ليتلصص.

صرخ المدير

"اخرجوا حالًا! اتصلت بالشرطة، سيأتون بعد خمس دقائق!"

فكّر جاك.. «كاذب... لم يسعك الوقت لتتصل ولو ابتعدنا

بسرعة، قد تنسى الأمر.»

قال بنبرةٍ معتذرة

"حسنًا، سنخرج سامحونا... فأخي الكبير مصاب بالصرع، جات له نوبة فجأة، ونسينا دواءه."

وعند سماع كلمة صرع، ارتدّ العامل والفتاة كأنّه قال جذامًا.

"هيا يا وولف."

تبع نظرات المدير فرأى اشمئزازه حين وقعت عيناه على البقعة الداكنة التي لطّخت سروال وولف..

لقد تبول على نفسه.

ورأى وولف ذلك أيضًا، ففهم،

وانفجر باكيًا، نحيبًا مفطورًا بالقهر

"جاك، آسف! وولف آسف جدًا!"

قال المدير بازدراء

"اخرجوه من هنا."

وأدار ظهره.

وضع جاك ذراعه حول وولف وقال برقةٍ لم يشعر بها من قبل

"تعالَ يا وولف... ليس ذنبك، بل ذنبي أنا.. هيا بنا."

قال وولف باكيًا

"آسف... أنا فاشل... لا أصلح لشيء."

"أنت صالح وأكثر، يا وولف. هيا."

فتح الباب، وخرجا إلى دفء أواخر أكتوبر الخفيف.

كانت المرأة قد بلغت موقف السيارات،

لكنها ما إن رأتهما حتى تراجعت نحو سيارتها،

تحتضن طفلها أمامها كمن يمسك درعًا أو رهينة.

صرخت في رعبٍ هستيري

"لا تدعه يقترب! لا تدع هذا الوحش يقترب من طفلي! أتسمعني؟!"

أراد جاك أن يقول شيئًا ليهدئها،

لكن التعب خنق صوته.

تابعا سيرهما عبر الموقف، قاصدَين الطريق العام.

وفي منتصفه، ترنّح جاك،

وتلاشى العالم من حوله إلى رماد رماديّ.

بالكاد شعر أن وولف قد احتضنه وحمله بين ذراعيه كما يُحمل طفل،

وسمعه يبكي هامسًا

"جاك، سامح وولف، لا تكرهه... وولف سيكون جيدًا،

سترى..."

تمتم جاك وهو يغفو

"لا أكرهك يا وولف... أنت طيب... طيب..."

ثم غرق في النوم.

وحين استيقظ، وجد المساء قد حلّ، ومدينة مونسي خلفهما.

ووولف قد غادر الطرق الكبرى وسلك شبكة من الممرات الترابية والريفية،

يسير غربًا بغريزةٍ لا تخطئ، كطائرٍ مهاجرٍ يعرف وجهته دون دليل.

ناما تلك الليلة في بيتٍ مهجور شمال قرية كامَاك،

وفي الصباح شعر جاك أن الحمى خفّت قليلًا..

وفي منتصف نهار الثامن والعشرين من أكتوبر،

أدرك جاك أن الشّعر نما من جديد على راحتي وولف.

الفصل التاسع عشر

جاك في الصندوق

1

نَصَبَا خيمتهما تلك الليلة بين أطلال بيتٍ محترق، تحيط به من جانبٍ ساحةٌ فسيحة، ومن الجانب الآخر غابةٌ صغيرة من الأشجار. في أقصى الحقل، كانت هناك مزرعةٌ لا تزال قائمة، لكن جاك اعتقد أن بوسعه هو وولف أن يكونا في مأمنٍ إذا التزما الهدوء وبقيا أغلب الوقت داخل الأنقاض.

بعد أن غربت الشمس، انسحب وولف إلى الغابة.. كان يتحرك ببطء، ووجهه قريب من الأرض، وعيناه تبحثان بشغفٍ حذر، وقبل أن يبتعد عن نظر جاك، الذي بدا له وولف كرجلٍ ضعيف البصر يبحث عن نظارته التي سقطت منه بين العشب.

تملّك جاك القلقُ؛ صورٌ داهمته لوولف وهو عالق في فخٍّ من فِكّين حديديّين، عاجز عن العواء، يقضم ساقه بأسنانه ليحرر نفسه...

لكن وولف عاد بعد قليل، يكاد يمشي منتصبًا هذه المرة، يحمل في كل يدٍ حزمة من الأعشاب تتدلّى جذورها من قبضتيه.

سأله جاك

"ما هذا يا وولف؟"

ردّ وولف بنبرةٍ متجهمة

"دواء... لكنه ليس جيدًا، يا جاك.. وولف! لا شيء جيد في عالمك هذا!"

"دواء؟ ماذا تعني؟"

لكنه لم يُجِب أكثر من ذلك، أخرج عودين خشبيين من جيب صديريته، وأشعل نارًا خافتة لا دخان لها، ثم سأل جاك إن كان بوسعه أن يجد علبة صفيح.

بحث جاك قليلًا فعثر في الخندق على علبة بيرة صدئة، أخذها وولف، شمّها، فتجعد وجهه باشمئزاز.

قال

"روائح سيئة أخرى... نحتاج ماءً يا جاك ماءً نظيفًا.. سأذهب أنا إن كنت متعبًا."

قال جاك بحدةٍ خفيفة

"وولف، أريد أن أعرف ماذا تفعل."

فأجابه

"سأذهب.. هناك مزرعة خلف هذا الحقل، وولف! سيكون هناك ماء، أنتَ استرح."

راود جاك مشهدٌ ساخرٌ في ذهنه.. زوجةُ المزارع تنظر من

نافذة المطبخ وهي تغسل الصحون، فترى وولف يتسلل في الفناء الخلفي ممسكًا علبة بيرة بيده المشعّرة، وحزمة أعشابٍ بالأخرى.

فقال

"سأذهب أنا."

كانت المزرعة على بُعد خمسمئة قدم فقط من مكانهما، وأضواؤها الصفراء الدافئة تُرى بوضوحٍ عبر الحقل.. ذهب جاك، وملأ العلبة من صنبور بجوار المخزن، ثم عاد دون أن يلحظه أحد.

وفي منتصف الطريق، لاحظ ظلّه يمتد أمامه، فرفع عينيه إلى السماء.

كان القمر، شبه مكتمل، يرتفع على الأفق الشرقي.

شعر جاك باضطرابٍ غامض وهو يعود إلى وولف ويسلمه الماء.

شمّ وولف العلبة، تأفف مجددًا، لكنه لم يتكلم.. وضعها فوق النار، وبدأ يسحق الأعشاب ويدسّ فتاتها من فتحة العلبة.

وبعد دقائق، ارتفع بخارٌ خانق... رائحة فظيعة، بشعة وما من مفر منها.

تقلص وجه جاك الذي لم يشك لحظة في أن وولف سيطلب منه شرب هذا السائل، ولم يشك أيضًا في أنه سيقتله ببطءٍ

وقسوة.

فأغمض عينيه وبدأ يصدر شخيرًا مصطنعًا عاليًا.. إن ظنه وولف نائمًا فلن يوقظه؛ لا أحد يوقظ مريضًا، أليس كذلك؟

وكان مريضًا فعلًا الحُمّى عادت إليه مع حلول الظلام، تشتعل في جسده، تبرده وتُسخّنه في الوقت ذاته، والعرق يترشح من كل مسامّه.

ومن بين رموشه رأى وولف يضع العلبة جانبًا لتبرد، ثم يجلس متربعًا، يضم ركبتيه بذراعيه، ووجهه مرفوع إلى السماء، حالِمًا، كأنما يتأمل شيئًا بعيدًا... شيئًا جميلًا.

إنه ينظر إلى القمر، فكّر جاك، وشعر بخيطٍ باردٍ من الخوف يمرّ في صدره.

"نحن لا نقترب من القطيع حين نتبدّل... يا إلهي، لا! سنأكلهم!"

تساءل فجأة في صمتٍ مضطرب

"وولف... هل أنا القطيع الآن؟"

ارتجف جاك...

وبعد دقائق، حين بدأ النعاس يثقل جفنيه، اقترب وولف من العلبة، شمّها، أومأ لنفسه، ثم تناولها واقترب من جاك، الذي كان يستند إلى عارضةٍ سوداء متفحمة، وقد توسد قميصًا إضافيًا.

أغلق جاك عينيه بإحكامٍ واستأنف شخيره التمثيلي.

قال وولف بمرحٍ غريب

"هيا يا جاك، أعلم أنك مستيقظ.. لا يمكنك خداع وولف!"

فتح جاك عينيه بامتعاضٍ متعب وقال

"كيف عرفت؟"

أجاب وولف

"للناس رائحة للنوم، ورائحة لليقظة.. حتى الغرباء يجب أن يعرفوا ذلك، أليس كذلك؟"

قال جاك وهو يزفر..

"يبدو أننا لا نعرف."

"على أية حال، عليك أن تشرب هذا. إنه دواء. اشربه، هنا والآن."

قال جاك

"لا أريده."

كانت الرائحة المتصاعدة من العلبة آسنة، كأنها من مستنقعٍ فاسد.

قال وولف بجدٍّ حزين

"جاك، لديك رائحة المرض أيضًا."

تطلع إليه جاك في صمت.

"نعم،" قال وولف.. "وتزداد سوءًا، لم تصل بعد إلى الحد الخطر، لكن وولف! ستسوء إن لم تشرب الدواء."

قال جاك ساخرًا

"وولف، ربما أنت خبير بالأعشاب في أراضيك، لكنك الآن في بلاد الروائح السيئة، تذكّر؟ ربما جمعت عشبة اللبلاب السام، أو الرجيد، أو أي عشب مرّ يقتل بدل أن يُشفي!"

قال وولف بإصرارٍ حزين

"إنها نباتات جيدة، فقط ليست قوية... اللعنة عليها."

ثم رفع عينيه إلى القمر ثانية، وقال بصوتٍ شارد

"ليس كل شيءٍ هنا سيئ الرائحة يا جاك... توجد روائح طيبة أيضًا، لكنها ضعيفة.. أظنها كانت أقوى... ذات يوم."

أعاد جاك النظر إليه، وشعر بتلك الرجفة القديمة تتسلل إليه من جديد.

قال وولف وكأنه يحدّث نفسه

"أراهن أن هذا المكان كان جميلًا يومًا... نقيًا، مفعمًا بالقوة..."

قال جاك بصوتٍ خافت

"وولف، شعرك عاد ينبت في كفيك..."

ارتجف وولف، ونظر إليه. وللحظةٍ خاطفة ربما كانت من

صنع حُمّاه، وربما لا بدا في عيني وولف جوعٌ خافت، جشعٌ حيوانيٌ غامض... ثم انتفض كمن يُفيق من كابوس.

قال بصوتٍ مضطرب

"نعم، لكن لا أريد الحديث عن ذلك.. ولا أريدك أن تتحدث عنه.. لا يهم... ليس بعد.. وولف! فقط اشرب دواءك يا جاك، هذا كل ما عليك فعله.»

كان من الواضح أن وولف لن يقبل بالرفض.. ولو لم يشرب جاك، لربما أُصرّ على أن يفتح فمه بالقوة ويسكب الدواء في حلقه.

قال جاك بجدٍّ قاتم وهو يأخذ العلبة الدافئة

"تذكّر، إن قتلتني بهذا، ستبقى وحدك."

غمر وجه وولف تعبيرٌ من الحزن العميق، دَفع نظارته للأعلى وهو يتمتم

"لا أريد أن أؤذيك، جاك... وولف لا يريد أبدًا أن يؤذي جاك."

كانت ملامحه مفرطة في الصدق لدرجةٍ جعلت المشهد مؤلمًا لا يدعو للسخرية.

استسلم جاك وشرب ما في العلبة.. لم يستطع مقاومة تلك النظرة المفعمة بالأسى.

وكان الطعم كما توقع فظيعًا إلى حدٍّ لا يُحتمل...

وللحظةٍ قصيرة شعر أن العالم يتماوج من حوله... يتماوج

كما لو كان على وشك أن ينزلق ثانية إلى الأراضي.

صرخ

"وولف! أمسك يدي!"

أمسك وولف بها بسرعة، وعيناه تتقافزان بين القلق والفرح.

"جاك؟ جاكي؟ ماذا هناك؟"

بدأ طعم الدواء يتلاشى من فمه، وفي الوقت نفسه انتشر في معدته دفء لطيف، يشبه ذلك الذي تمنحه رشفةٌ صغيرة من البراندي في الليالي الباردة تلك الرشفات التي كانت أمّه تسمح له بها أحيانًا.

وشيئًا فشيئًا، عاد العالم صلبًا من حوله.. ربما كان التماوج وهمًا... لكنه لم يظن ذلك.

لقد كدنا ننتقل... كدنا فعلاً.. ربما أستطيع فعلها دون العصير السحري... ربما أستطيع!

قال وولف بقلقٍ صادق

"جاك؟ ما الأمر؟"

ابتسم جاك بخفوتٍ وقال

"أشعر بتحسّن... هذا كل شيء."

واكتشف أنه يقول الحقيقة.

قال وولف بفرحٍ طفوليٍ صافٍ

"وتفوح منك رائحة أفضل أيضًا! وولف! وولف!"

2

تحسّن جاك في اليوم التالي، لكن الوهن بقي يثقل جسده.

حمله وولف على ظهره كما يفعل بالصغار في القطيع، وتقدّما ببطء نحو الغرب.

حين اقترب المساء، بدآ يبحثان عن مكان يبيتان فيه، لمح جاك سقيفة خشبية عند حافة وادٍ صغير قذر، تحيط بها القمامة والإطارات العارية من مطاطها. وافق وولف بصمتٍ، لم يكن يتكلم كثيرًا ذلك اليوم، بل بدا كئيبًا، حزين الملامح، كأن شيئًا يثقل صدره.

غفا جاك سريعًا، واستيقظ قرابة الحادية عشرة وقد اشتدت حاجته للتبول. التفت إلى جواره فوجد مكان وولف خاليًا.

ظنّ أنه خرج ليبحث عن أعشاب جديدة ليُعِدّ له جرعة أخرى من تلك الخلطة التي صارت كحقنة منشطة.

تضايق جاك قليلًا، لكنه فكّر أنه إن أراد وولف أن يشربها من جديد فليكن، فقد شعر بتحسّن عجيب بعدها.

خرج من خلف السقيفة، فتى نحيل القامة يرتدي سروالًا قصيرًا داخليًا من نوع «جوكي»، وحذاءً رياضيًا دون رباط، وقميصًا مفتوح الأزرار.

راح يتبول طويلًا، كأن جسده يفرغ آخر ما فيه، رافعًا رأسه

نحو السماء. كانت تلك واحدة من تلك الليالي المخادعة التي تزور الغرب الأوسط في أكتوبر أو أوائل نوفمبر، قبل أن يهجم الشتاء فجأةً بأسنانه الحديدية القاسية.

الجوّ كان دافئًا دفئًا استوائيًا، والنسيم اللطيف يمرّ على وجهه كلمسة حانية،

فوقه علق القمر أبيض، مستدير، جميل.

بثّ ضوءًا صافياً، ومع ذلك غريبًا؛ كأنه يكشف الأشياء ويخفيها في اللحظة نفسها.

حدّق جاك فيه طويلاً، شاعرًا أنه على وشك أن ينساق إلى غيبوبة من السحر، ولم يكترث.

لا نقترب من القطيع حين نتحوّل.. لا يا جايسون الطيب، لا!

هل أنا القطيع الآن يا وولف؟

غشى وجه القمر وجهٌ ما..

لم يندهش جاك حين أدرك أنه وجه وولف... لكن ليس وجهه الودود، الواسع، الطيب، المندهش دائمًا.

كان وجهًا أضيق، نعم، وأغمق... أغمق بالشَعر، لا يهم الشعر، بل أغمق بالنية.

لا نقترب منهم، سنأكلهم، نلتهمهم، نلتهمهم يا جاك، حين نتحوّل سنـ..

كان وجه القمر المنحوت في الضوء والعظم وجه وحش

يزمجر، رأسه مائل في لحظة ما قبل الانقضاض، فمه مفتوح وممتلئ بأسنانٍ هائلة.

نأكل نقتل نقتل، نقتل، نقتل، نقتل!

شعر جاك بلمسةٍ على كتفه، إصبعٌ امتدّت ببطء إلى خصره.

كان واقفًا هناك، عضوه بين يديه، الجلد ممسوكًا بخفة بين الإبهام والسبابة، يحدّق في القمر... ثم انطلق منه تيار جديد من البول، حادّ وسريع.

قال وولف من خلفه

"أخفتك، أليس كذلك يا جاك؟ آسف. ليلعنني الربّ إن لم أكن آسف."

لكن جاك، في تلك اللحظة، لم يظنه آسفًا.

كان يظنه يبتسم.

ولوهلةٍ قصيرة، كان متأكدًا أنه سيلتهمه الآن.

بيت من الطوب؟ فكر جاك بخوف مشوش. أنا حتى لا أملك بيت قش ألوذ به!

جاءه الخوف حينها صافيًا وجافًا، يسري في عروقه بحرارة أشد من الحُمّى.

من يخاف الذئب الشرير الكبير؟

أنا، أنا يا إلهي، أنا خائف من الذئب الشرير الكبير...

استدار ببطء.

وجه وولف، الذي كان مغطى بزغب خفيف حين استلقيا معًا قرب السقيفة، صار مكسوًا الآن بلحية كثيفة، ترتفع حتى صدغيه، حتى لتبدو كأنها تنبت من عند صدغيه مباشرة. عيناه تتوهجان بلون أحمر برتقالي فاقع.

قال جاك بصوت مبحوح خافت

"وولف... هل أنت بخير؟"

ابتسم وولف، وقال بصوتٍ مفعم بنشوة غريبة

"نعم، ركضت مع القمر. كان جميلاً. ركضت... وركضت... وركضت. لكني بخير يا جاك."

ابتسم ثانية ليُظهر كم هو بخير، فكشف عن فمٍ مليء بأسنانٍ ضخمة فتّاكة كالخناجر.

ارتدّ جاك إلى الوراء في ذهول مشلول، كأنه يرى فم ذلك الكائن الفضائي في الأفلام.

رأى وولف تعبير وجهه، فتقاطع في ملامحه حزنٌ وندم، لكن تحت ذلك مباشرة، كان هناك شيء آخر.

شيء يضحك، ويكشر، ويجري.

شيء يطارد الفريسة حتى ينزف أنفها من الرعب، حتى تئن وتتوسل.

شيء يضحك وهو يمزقها حيّة.

كان سيضحك حتى لو كانت الفريسة هو.

بل خصوصًا لو كانت الفريسة هو...

قال وولف بصوت مرتجف:

"جاك... آسف. الوقت... إنه قادم. علينا أن نفعل شيئًا. غدًا... علينا أن... أن..."

رفع رأسه إلى السماء، وتجمّد وجهه بنظرة مسحورة.

ثم رفع رأسه وعوى.

وخال جاك أنه سمع صوتًا خافتًا، بعيدًا عواء الذئب القمري يجيبه...

تسلّل الرعب إلى عظامه، هادئًا، كاملاً.

ولم يذق النوم بعد ذلك طوال تلك الليلة.

3

في اليوم التالي كان وولف أفضل حالًا... قليلًا فقط، لكن التوتر الذي يسكنه كاد يفتك به.

حاول أن يشرح لجاك ما ينبغي فعله، قدر استطاعته، حين مرّت طائرة نفاثة على ارتفاعٍ شاهق، مزقت زمجرتها الجارفة سكون السماء.

انتفض وولف فجأة، واندفع إلى الخارج، ورفع قبضتيه نحو السماء وهو يعوي ويصيح بها، كأنما يتحدّى الصواعق نفسها.. نمى الشعر في قدميه الحافيتين من جديد، وقد توزّمتا حتى انشق عنهما حذائه الرخيص.

أراد أن يعلّم جاك كيف يتصرّف، لكنه لم يكن يملك ما يعتمد عليه سوى بقايا حكاياتٍ قديمة وشائعاتٍ عن التبدّل، سمعها في عالمه البعيد.

كان يعرف تمامًا ما يعنيه التحوّل في أرضه، لكنّه شعر الآن أن الأمر هنا، في أرض الغرباء، سيكون أسوأ... أقوى، وأخطر.

وشعر بقوّةٍ غامضة، تيارٍ وحشيٍّ يسري في عروقه، طاقةٌ تتعاظم كلّما اقترب المساء، وكلّما فكر في القمر الذي سيرتفع الليلة، ازداد يقينًا بأنها ستجرفه معها حين يكتمل الضوء.

كزّر على مسامع جاك، مرةً بعد أخرى، وهو يرتجف ويداه تضطربان

"لا أريد أن أؤذيك يا جاك... أُقسم، وولف! لا يريد ذلك أبدًا...
لو خُيّرت بين أن أجرحك أو أقتل نفسي، لاخترت الموت."

4

كانت ديلفيل (34) أقرب بلدة صغيرة.

وصلها جاك بعد أن دقّت الساعة الثانية عشرة، ودخل متجر الأدوات الحديدية القابع في قلب الشارع الرئيسي.

واضعًا إحدى يديه في جيب سرواله، يتلمس بقايا المال الذي أستنزفه الطريق...

قال البائع، وهو يرفع رأسه من خلف المنضدة

"أساعدك يا بُني؟"

أجاب جاك بهدوءٍ متحفّظ

"نعم، سيدي... أريد أن أشتري قفلًا."

أشار الرجل إلى الرفّ القريب

"تفضل من هنا، لدينا أنواع كثيرة، وأحجام مختلفة. أيّها تريد؟"

قال جاك، وعيناه المظللتان تشعّان بنظرةٍ غريبة لا تُريح من يلقاه

"كبير... أريد قفلًا كبيرًا."

تمتم البائع وهو يحدّق فيه متفكّرًا

"كبير، هاه؟ ولِمَ تحتاج إليه يا ترى؟"

ابتلع جاك أنفاسه وقال ببرودٍ متقن، كأن القصة جاهزة منذ زمن

"كلبي..."

ثم أكمل بصوتٍ خافتٍ لا يخلو من حزنٍ دفين

"أحتاج أن أقفل عليه... إنه يعضّ."

5

اختار جاك القفل بعناية.. وقد دفع فيه عشرة دولارات كاملة، ولم يتبقَّ في جيبه بعدها سوى عشرة أخرى بالكاد تكفيه ليومٍ واحد.

تردّد قليلًا، تألّم وهو يرى المال يتناقص أمام عينيه، وكاد أن يمدّ يده نحو قفلٍ أرخص... لكن صورة وولف في الليلة الماضية انتزعت تردده من بين ضلوعه... وولف وهو يعوي نحو القمر، والنار البرتقالية تتفجّر من عينيه كشررٍ من جحيمٍ خفي.

مدّ يده بالنقود ودفع الثمن...

خرج من المتجر مسرعًا، يلوّح بإبهامه لكل سيارة تمرّ على الطريق، يرجو أن يتوقف له أحد... لكن أحد لم يفعل..

ربما لأن نظراته كانت مضطربة، أو لأن الخوف كان يفوح منه كرائحةٍ يعرفها الغرباء من بعيد.

كان يشعر أنه على حافة الجنون، يتنفس على إيقاع قلبٍ متسارع.

كانت الصحيفة التي تصفّحها في المتجر قد أعلنت أن غروب الشمس سيكون في تمام السادسة، لم تذكر وقت بزوغ القمر، لكن جاك خمّن أنه لن يتأخر عن السابعة..

والوقت الآن... الواحدة ظهرًا.

ولم يكن يدري بعد أين سيضع وولف الليلة.

كانت كلماته لا تزال ترنّ في رأسه كوصيةٍ من قلب العاصفة

"يجب أن تُقفل عليّ يا جاك... أن تُقفل بإحكام..

إن خرجت، سأؤذي كل ما تقع عليه يداي... حتى أنت، جاك، حتى أنت..

أغلِق الباب عليّ، ولا تفتح مهما فعلت، ولا تصغِ مهما قلت..

ثلاث ليالٍ يا جاك... حتى يبدأ القمر في النحول من جديد..

ثلاث... وربما أربع، إن لم تكن واثقًا بما يكفي.»

لكن أين؟

يجب أن يكون المكان بعيدًا عن البشر، بعيدًا عن الأذن التي قد تسمع صراخ وولف أو عواءه.

ولا بد أن يكون أقوى من تلك السقيفة التي احتميا بها؛ فحتى لو أوصدها بقفله الجديد، فوولف قادرٌ أن يقتلع الجدران ذاتها.

أين إذًا؟

لم يعرف، ولا يملك رفاهية التفكير.

كل ما عرفه أن أمامه ست ساعاتٍ فقط... وربما أقل.

فشدّ خطاه، والقلق يطارد أنفاسه مثل ظلٍّ لا يرحم.

6

كانا قد مرّا في طريقهما بعددٍ من البيوت المهجورة، بل وقضيا ليلةً كاملة في أحدها، ولهذا ظلّ جاك وهو عائدٌ من ديلفيل يراقب الطريق بعينٍ مدرّبة، يبحث عن علامات الخراب والوَحشة.. نوافذ عارية من الستائر، لافتات (للبيع) متآكلة على الأبواب، وعشبٍ نما حتى غطّى الدرجات الأولى من الشرفات... تلك العلامات التي لا تخطئها العين حين تنظر إلى بيتٍ فقد أنفاس ساكنيه.

لم يكن جاك يطمح إلى أن يحبس وولف في غرفةٍ من غرف المزارعين، فحتى لو أغلق الباب بأقوى قفلٍ في السوق، فسيستطيع وولف تحطيمه.

لكن أحد تلك البيوت، كما تذكّر، فيه قبوًا تحت الأرض ذو بابٍ خشبيٍّ سميك مغروس في كتلةٍ من العشب، كأنه بابٌ يقود إلى حكايةٍ من حكايات الغيلان، خلفه امتدت غرفةٌ بلا نوافذ ولا سقف، غرفةٌ في جوف الأرض، كهفٌ لا يمكن لأيّ مخلوقٍ أن يحفر طريقه خارجه في أقلّ من شهر.

ذلك القبو ربما كان كافيًا لاحتواء وولف... أرضه الطينية وجدرانه الترابية كانت لتحميه من نفسه، ومن الآخرين..

لكن البيت المهجور... والقبو أيضًا، على بُعد ثلاثين أو أربعين ميلًا خلفهما..

ولن يصلا إليهما قبل طلوع القمر، ولا حتى قبل أن يبدأ

وولف بالتبدّل..

وهل سيقبل وولف السير كل تلك المسافة، وهو على حافة التحوّل؟

هل كان سيقبل أن يُزَجّ بنفسه في حبسٍ بلا طعام، ولا رفيق؟

تسلّل الشك إلى قلب جاك كدخانٍ باردٍ

"ماذا لو فات الأوان؟

ماذا لو بلغ وولف نقطة اللاعودة؟

ماذا لو خرج ذلك الجزء الكامن فيه، الجائع، الطامع، وبدأ ينظر حوله في هذا العالم الغريب متسائلًا... أين يختبئ الطعام؟»

كان القفل الثقيل الذي كاد يمزّق جيب جاك محض درب من العبث أمام هذا الاحتمال...

وفي لحظةٍ من لحظات اليأس الصامت، خطر له أن يستدير.

أن يترك وولف خلفه، ويمضي.

أن يعود إلى الطريق، نحو ديلفيل، ثم يواصل السير إلى لابل أو سيسيرو، وهناك ربما يجد عملًا بسيطًا في متجر أعلافٍ أو في مزرعةٍ ما، يجمع بضع دولارات، ويتناول وجبة أو وجبتين... ثم يواصل رحلته نحو حدود إلينوي.

إلينوي.. باغته اسمها في ذهنه كأنها وعدٌ بالراحة، وظن أنه قادر، بطريقةٍ ما، أن يبلغ سبرينغفيلد، ثم مدرسة ثاير، في يومٍ أو يومين بعد دخوله الولاية.

لكنه توقَّف، على بُعد ربع ميلٍ من السقيفة، والسؤال ينهشه من الداخل

"كيف سيفسّر وولف لريتشارد سلوت؟"

صديقه القديم، بنظارته المستديرة وربطات عنقه المحكمة، وعقله الذي لا يؤمن إلا بما يُرى ويُقاس.

ريتشارد الذي لم يصدّق يومًا حكاية جنيّةٍ تحوّل القرع إلى عربة، ولا مرآةٍ تخاطب ملكتها.

ريتشارد الذي كان شغوفًا بمعادلات الإلكترون والمجهر، لا بالسحر والحكايات..

ذلك الذي فكّ مكعّب روبيك في تسعين ثانية... لكنه من المستحيل أن يستوعب عقله وجود مراهقٍ مستذئب طوله متران.

للحظةٍ قصيرة، التوى جاك على الطريق كمن يصارع ظلّه، كاد يُقنع نفسه بأنه قادر على ترك وولف خلفه، والمضيّ وحيدًا نحو ريتشارد... نحو التعويذة.

لكن همسات صوته الداخلي ترددت في أعماقه..

"وماذا لو كنتُ أنا القطيع؟"

وتدفّقت الصورة في ذهنه وولف يهبط المنحدر بجنونٍ لينقذ قطيعه المذعور، يرتمي في الماء بين ضجيج العواء والرعب... ليخلّصهم، لا ليأكلهم.

7

كان الكوخ خاليًا.. وما إن رأى جاك البابَ منفرجًا على مصراعيه حتى أيقن أن وولف قد انطلق إلى مكانٍ ما، ومع ذلك تسلل على جانب المجرى ونزل يتخطّى القمامة بخطواتٍ مترددة غير مصدق.

لم يكن وولف قادرًا على الابتعاد أكثر من بضع خطوات بمفرده، ومع ذلك فقد فعل...

نادى جاك بصوتٍ مرتفع

"لقد عدت، وولف؟ لقد أحضرت القفل!"

لكنه كان يعلم أنه يحدّث نفسه، ونظرة واحدة داخل الكوخ أكّدت ذلك.. حقيبته كانت ملقاة على مقعدٍ خشبي صغير، وإلى جوارها رُزمة مجلاتٍ بالية تعود لعام 1973، في أحد أركان الكوخ الخشبي عديم النوافذ، كُدست قطع من الحطب اليابس بإهمال، كما لو أن أحدهم حاول ذات يومٍ، على استحياء، أن يخزّن شيئًا للشتاء...

بخلاف ذلك، خلى الكوخ من كل شيء، دار جاك من عند الباب المفتوح، ينظر بيأسٍ نحو ضفّتي المجرى.

إطارات قديمة متناثرة بين الأعشاب، حزمة منشوراتٍ سياسية باهتة اللون تحمل اسم لوغار، لوحة معدنية زرقاء وبيضاء من ولاية كونيتيكت وقد انبعج طرفها، زجاجات بيرة

تلاشت ألوان ملصقاتها حتى صارت بيضاء... ولا أثر لوولف!

كوّر جاك كفّيه حول فمه وصاح

"وولف! لقد عدت!"

لم يتوقّع جوابًا، ولم يأتِه أيّ جواب.. لقد رحل وولف.

تمتم جاك في ضيق

"اللعنة"، واضعًا يديه على خاصرته.

تضاربت داخله مشاعر الغضب والارتياح والقلق.. كان وولف قد غادر لينقذ حياته، لا بدّ أن اختفاءه يعني ذلك.. فبمجرّد أن غادر جاك متجهًا نحو ديلفيل، فرّ رفيقه، ركض على ساقيه اللتين لا تعرفان الكلل، وربما صار الآن على بعد أميال، ينتظر طلوع البدر.

لكن أين؟ تلك هي المشكلة...

قد يكون اختبأ في الغابة التي تظهر عند طرف الحقل الممتد على حافة المجرى، وهناك التهم الأرانب وفئران الحقول وما تيسّر له من مخلوقات الغابة الخلد، والغُرَير، وسائر (شخصيات ريح في الصفصاف...)(35) وربما هذا جيد.

لكن وولف قد يتتبّع رائحة الماشية، ويوقع نفسه في خطرٍ حقيقي.. أو، وهو الاحتمال الأسوأ، أن يشمّ رائحة الفلاح وأسرته.

بل ربما الأسوأ من ذلك كله أن يقترب من إحدى البلدات إلى الشمال... وهناك، حين يكتمل تحوّله، قد يذبح نصف دزينة من البشر قبل أن يتمكّن أحدهم من قتله.

تمتم جاك وهو يبدأ بعبور الضفّة المقابلة

"اللعنة... اللعنة..."

لم يكن يأمل حقًا أن يراه بل رجح أنه لن يراه ثانية.. وبعد أيام، في إحدى صحف البلدات الصغيرة، سيجد خبرًا مفزعًا عن «ذئبٍ ضخمٍ هاجم المارّة في الشارع الرئيس».

وسيُضاف إلى قائمته المزيد من الأسماء... أسماء مثل ثيلكه وهايدل وهاجن...

تلفّت أولًا نحو الطريق، علّه يرى ظلّ وولف يبتعد نحو الشرق لعدم رغبته في مواجهة جاك العائد من ديلفيل.

كان الطريق خاليًا كحال الكوخ..

بالطبع...

انزلقت الشمس وهي أدقّ الساعات إلى ما بعد كبد السماء.

التفت جاك بيأسٍ نحو الحقل الطويل وحافة الغابة وراءه، لم يتحرّك شيء سوى أطراف السنابل الجافة التي مالت إثر نسمةٍ باردة عابرة...

"البحث مستمر عن الذئب القاتل"، هكذا تخيّل العنوان بعد أيام قليلة.

لكن عند حافة الغابة، تحرّكت صخرةٌ بنية كبيرة، وفجأة أدرك جاك أن تلك الصخرة كانت وولف نفسه القابع على عقبيه، يحدّق فيه.

قال جاك في تنهيدة امتزج فيها الغضب بالارتياح..

"يا لك من ولد مزعجٍ بحق!"

وفي وسط ارتياحه شعر أن جزءًا منه كان في قرارة نفسه مسرورًا بهروب وولف..

خطى نحوه.

لم يتحرّك وولف، لكن هيئته توتّرت، كأن الشرارة الكهربائية سرت في جسده، وجعلته أكثر يقظةً وحدة.. احتاج جاك إلى قدرٍ من الشجاعة ليخطو الخطوة التالية.

وبعد عشرين ياردة، لاحظ أن وولف قد واصل تحوّله...

فشعره الآن أكثف وأكثر لمعانًا، كأن نسيمًا باردًا غسله وجفّفه، ولحيته امتدت حتى صارت تبدأ من أسفل عينيه مباشرة جسده كلّه، وهو في وضع القرفصاء، بدا أعرض وأقوى. عيناه المتّقدتان نارًا اشتعلتا بلونٍ برتقاليٍّ فاقع، لون يقطينة الهالوين...

دنى جاك أكثر.

تردّد حين ظنّ أن وولف صار يملك كفّين ككفّي الذئب، لكنه تبيّن أن يديه وأصابعه غطّاهما شعرٌ كثيف خشن.

ظلّ وولف يرمقه بعينيه المتّقدتين، فقلّص جاك المسافة بينهما مرة أخرى، ثم توقّف.

لأول مرة منذ أن رآه يرعى قطيعه عند مجرى ماء في الأقاليم، لم يستطع قراءة تعابير وجهه،

ربما صار وولف غريبًا أكثر مما يُحتمل، أو لعل الشعر الكثيف أخفى وجهه تمامًا!

لكنه كان متيقّنًا من أن انفعالًا قويًا قد تملّكه.

توقف جاك على بعد بضعة أقدام، وأجبر نفسه على النظر في عيني المستذئب.

قال وولف بصوتٍ غليظٍ عميق

"قريبًا يا جاكي... قريبًا الآن"،

وانفرج فمه في ما يشبه ابتسامةً مرعبة.

قال جاك

"ظننت أنك هربت"

ردّ وولف

"جلست هنا لأشاهدك وأنت قادم.. وولف!"

لم يفهم جاك تمامًا ما يعنيه، لكن شيئًا في عبارته ذكّره بحكاية «ذات الرداء الأحمر».

كانت أسنان وولف بالفعل حادّة ومتزاحمة كأنها خُلقت

للتمزيق.

قال جاك وهو يخرج القفل من جيبه

"لقد أحضرته.. هل خطرت لك أي فكرة أثناء غيابي، وولف؟"

عندها اشتعل وجه وولف كله... عيناه، أسنانه، كل ملامحه... توهّجت.

ثم صاح بصوتٍ كالزئير

"أنت القطيع الآن، يا جاكي"

ورفع رأسه مطلقًا عواءً طويلاً، اخترق الهواء كصرخةٍ قادمة من قلب القمر.

8

لو لم يكن جاك سوير على هذا القدر من الذعر، لقال شيئًا مثل:

"ألن تكفّ عن هذا العواء؟"

أو: «ستجلب إلينا كلاب المقاطعة كلها إن واصلت ذلك!»

لكن كِلتا الجملتين اختنقتا في حلقه.. كان خائفًا أكثر من أن ينطق بكلمة واحدة.

ابتسم له وولف ابتسامته الأُولى.. تلك الابتسامة التي جعلت فمه يبدو كإعلان تلفزيوني عن سكاكين غينسو ثم نهض بخفةٍ مذهلة على قدميه. كانت نظارة جون لينون تغوص في خصلات لحيته الخشنة وشَعر صدغيه الكثيف. بدا لجاك أطول من سبعة أقدام، وضخمًا مثل براميل البيرة في المخزن الخلفي لحانة أوتلي تاب.

قال وولف بصوتٍ متقدٍ بالفرح

"روائح طيبة في هذا العالم، يا جاكي."

وحينها فقط أدرك جاك حالته.. كان وولف منتشيًا.

كان كمن فاز، رغم الصعاب، بمسابقةٍ عسيرة، وتحت هذا الانتصار الصاخب كانت تتخمر تلك النشوة الحيوانية التي رآها جاك فيه ذات مرة.

قال وولف وهو يشهق كأنه يبتلع النشوة نفسها..

"روائح طيبة! وولف! وولف!"

تراجع جاك خطوةً صغيرة، محاولًا أن يتحقق إن كان يقف في الجهة التي تهب منها الريح، قال بصوتٍ مرتجف..

"لم تقل شيئًا طيبًا عن هذا العالم من قبل."

ردّ وولف

"قبلُ كان قبل، والآن هو الآن.. أشياء طيبة كثيرة! تحيط بنا.. وولف سيجدها، بكل تأكيد!"

لكن ذلك جعل الأمر أسوأ، إذ بات جاك يرى بل يكاد يشعر بذلك الطمع الظاهر الواثق، تلك الشهية الوحشية التي لا تعرف خيرًا ولا شرًا، تتلألأ في عينيه الحمراوين..

تقول تلك النظرة بوضوح.. «سآكل أي شيء أقدر على اصطياده وقتله... أصطاد، فأقتل.»

قال جاك بهدوءٍ متوتر

"آمل ألا تكون بعض تلك الأشياء الطيبة من البشر يا وولف."

رفع وولف ذقنه وأطلق سلسلة أصواتٍ غريبة، نصفها عواء ونصفها ضحك.

'الذئاب تحتاج أن تأكل"، قال، وصوته مفعم بالبهجة.

"أوه، جاكي، كم تحتاج الذئاب إلى أن تأكل.. أن تأكل!

وولف!"

قال جاك محاولًا استعادة رباطة جأشه..

"سأضطرك أن تبقى في الكوخ، تذكر يا وولف؟ لقد أحضرت القفل؟ علينا أن نأمل أن يستطيع استيعابك.. لنذهب إليه الآن، يا وولف، لأنك تزرع الرعب في نفسي."

انفجر وولف في ضحكةٍ مدوّية، خرجت من صدره كفقاعات متصاعدة..

"خائف! وولف يعرف! وولف يعرف، جاكي! رائحتك تصرخ خوفًا!"

رد جاك

"لست مندهشًا، صدّقني. فلنذهب إلى الكوخ الآن، اتفقنا؟"

لكن وولف أجاب، ولسانه الطويل الحاد ينسلّ من بين أنيابه..

"أوه، وولف لن يدخل الكوخ.. لا، ليس أنا يا جاكي.. وولف لا يستطيع."

واتسعت فكّاه، وتلألأت أسنانه المتزاحمة..

"وولف تذكّر، جاكي.. تذكّر الآن، هنا! وولف تذكّر!"

تراجع جاك إلى الوراء خطوة

فضحك وولف فجأة، وأشار إلى حذائه.

"رائحة الخوف وصل لحذائك، جاكي! وولف!"

ويبدو أن الحذاء ذا الرائحة كان أمرًا مضحكًا جدًا بالنسبة له..

قال جاك

"ما يجب أن تتذكّره هو أنك أنت من سيدخل الكوخ."

صرخ وولف

"خطأ! وولف يقول جاكي هو من يدخل الكوخ! جاكي في الكوخ! وولف تذكّر! وولف!"

تحوّل بريق عينيه من ذلك البرتقالي المتوهّج إلى لونٍ بنفسجي ناعم، كأنه الرضا نفسه..

وقال بنغمةٍ تملؤها النشوة..

"من كتاب الزراعة الصالحة يا جاكي، قصة الذئب الذي لم يؤذِ قطيعه. تتذكّرها يا جاكي؟ القطيع يدخل الحظيرة، القفل يوضع على الباب.. حين يعلم الذئب أن تحوّله قريب، يدخل القطيع الحظيرة، ويُقفل الباب، ولا يؤذي قطيعه. لا، لا، لا يؤذي قطيعه! وولف! هنا، والآن!"

قال جاك

"أتريدني أن أبقى محبوسًا في الكوخ لثلاثة أيام؟"

رد وولف ببساطةٍ قاتلة

"عليّ أن آكل يا جاكي."

ورأى جاك شيئًا قاتمًا، سريعًا، وخطيرًا يتسلّل من عيني وولف المتحوّلتين.

"حين يناديني القمر، يجب أن آكل.. روائح طيبة هنا يا جاكي، طعام كثير لوولف.. ووقتما اطلقني القمر، يمكن لجاكي أن يخرج من الكوخ."

قال جاك

"وماذا لو لم أرد أن أبقى محبوسًا لثلاثة أيام؟"

أجابه وولف ببرودٍ غريب

"إذًا سيقتل وولف جاكي.. ثم سيُلعَن وولف."

"وكل هذا من كتاب الزراعة الصالحة؟"

أومأ وولف برأسه..

"تذكّرت يا جاكي.. تذكّرت في الوقت المناسب.. كنتُ في انتظارك."

ظل جاك يحاول استيعاب فكرة وولف.. ثلاثة أيام دون طعام، وولف حرّ طليق، وهو سجين.. سيُحبس في الكوخ، ووولف سيمتلك العالم..

ومع ذلك، كانت تلك ربما الطريقة الوحيدة لينجو من تحوّله، بين خياري الجوع أو الموت، سيختار فراغ معدته...

وفجأة بدا له أن هذا التحول ليس تحولًا حقًا فحتى وهو خلف الباب سيكون أكثر حرية من وولف؛ لأن قفص وولف سيكون العالم نفسه.

قال بابتسامةٍ متعبة

"إذن فليُبارك الله كتاب الزراعة الصالحة، لأن تلك الفكرة لم تكن لتخطر لي على بال."

تألّق وجه وولف من جديد، ثم رفع بصره نحو السماء بعينين شاردتين متعطّشتين.

"اقتربت اللحظة، يا جاكي، أنت القطيع.. عليّ أن أضعك في الداخل."

رد جاك بهدوء

"حسنًا... أظنّك محقّ."

وضَحِك وولف لذلك كما لو كانت نكتة عظيمة.. وبينما يعوي ضاحكًا، لفّ ذراعه حول خصر جاك ورفعه عن الأرض، وحمله عبر الحقل كلّه،

قال وهو يوشك أن ينفجر من فرط الضحك..

"وولف سيعتني بك، يا جاكي."

ثم وضع الصبي برفقٍ على الأرض عند حافة المجرى.

قال جاك

"وولف..."

ففغر وولف فمه على اتساعه وبدأ يفرك ما بين فخذيه.

قال جاك بحدة

"لا يجوز لك أن تقتل أحدًا، يا وولف. تذكّر ذلك.. إن كنتَ تتذكّر القصة، فتذكّر ألا تقتل بشرًا.. لأنك إن فعلت، فسوف يطاردونك، إن قتلت شخصًا واحدًا فقط، سيأتون جميعًا ليقتلوك، وسيحصلون عليك يا وولف، أعدك. سيعلّقون جلدك على لوحٍ من الخشب."

رد وولف

"لا بشر، يا جاكي فرائحة الحيوانات أطيب من رائحة الناس.. لا بشر. وولف!"

سارا معًا نزولًا نحو المجرى،

أخرج جاك القفل من جيبه، وعلمه كيف يُثبّت في الحلقة المعدنية، وكيف يُستخدم المفتاح، وأعاد أمامه الحركة مرارًا، وأخبره..

"ثم تدفع المفتاح تحت الباب، فهمت؟ وحين تعود لطبيعتك، سأدفعه إليك ثانية."

نظر إلى أسفل الباب، فوجد فجوة بطول بوصتين.

قال وولف

"أكيد، يا جاكي. ستدفعه لي."

سأله جاك

"حسنًا، وماذا الآن؟ هل أدخل الكوخ حالًا؟"

أشار وولف إلى بقعة على الأرض، على بُعد قدم من الباب.

"اجلس هناك."

نظر جاك إليه باستغراب، ثم دخل الكوخ وجلس حيث أشار له،

جثم وولف على عقبيه عند الباب المفتوح، ومدّ يده دون أن ينظر،

تناول جاك يده، كانت كأنها يد مخلوقٍ مكسوٍّ بالشّعر، في حجم الأرنب تقريبًا.. ضغط وولف عليها بقوةٍ كادت تنتزع صرخة من جاك، لكن حتى لو صرخ، لم يكن ليظن أن وولف سيسمعه، فقد كان شاخص النظر إلى السماء، وجهه حالِم وساكن ومأخوذ بشيء بعيد..

وبعد لحظة تمكّن جاك من تغيير موضع يده لتكون أكثر راحة في قبضته،

سأله

"هل سنظل هكذا طويلًا؟"

أخذ وولف وقتًا قبل أن يجيب، ثم قال أخيرًا

"حتى..."،

وضغط على يده مرة أخرى...

9

جلسا على جانبي إطار الباب ساعاتٍ طويلة، صامتين، حتى بدأت خيوط الضوء تخبو.. ووولف يرتجف ارتجافًا خافتًا بالكاد يُلحظ طيلة العشرين دقيقة الماضية، وكلما اشتدت عتمة الجو اشتدّ معها الرجفان في يده. خُيّل لجاك أنه أشبه بفرسٍ أصيلٍ يرتجف في مربطه قبل انطلاق السباق، منتظر صوت الطلقة ليندفع البوابة.

همس وولف

"إنها تناديني تسحبني إليها... وسرعان ما سنركض يا جاك.. ليتك تستطيع الركض أيضًا"

ثم أدار رأسه نحو جاك، فرأى الفتى في عينيه صدقًا فيما قال، غير أنّ في أعماقه صوتًا صامتًا يقول شيئًا آخر «بوسعي أن أركض خلفك كما أركض إلى جانبك، يا صديقي الصغير.»

قال جاك

"يبدو أننا يجب أن نغلق الباب الآن."

وحاول أن يسحب يده من قبضة وولف، لكنّه لم يستطع الإفلات حتى أفلتها وولف بازدراءٍ خفيف..

"أغلق على جاكي، وأبتعد يا وولف." اشتعلت عينا وولف للحظة، وومضتا بحمرةٍ منصهرة، كعيون إلروي.

قال جاك

"تذكّر، إنك تحمي القطيع."

رد وولف بنبرة كأنه يردّد درسًا قديمًا

"القطيع يدخل الحظيرة، والقفل يُغلق على الباب.. لم ولن يؤذي قطيعه."

خمدت حمرة عينيه، وانحدرت إلى لونٍ برتقالي.

قال جاك

"ضع القفل على الباب."

تذمر وولف

"اللعنة، هذا ما أفعله الآن! أضع القفل اللعين فوق الباب اللعين، ألا ترى؟"

ثم دفع الباب بقوة، وأغلقه بإحكام، حابسًا جاك في الظلمة.

"سمعت ذلك يا جاكي؟ ها هو القفل اللعين!"

سمع جاك صوت القفل يصطكّ في الحلقة المعدنية، ثم صوت الأسنان وهي تتشبث بالمكان بينما يدفعها وولف إلى الداخل.

قال جاك

"الآن المفتاح."

ردّ وولف ساخرًا

"المفتاح اللعين، ها هو الآن!"

ثم رنّ المفتاح في الفتحة، وارتطم بالأرض المغبرّة خلف الباب، ليقفز بعد لحظة ويهبط فوق ألواح أرضية المخزن.

همس جاك شاكرًا

"شكرًا."

انحنى، يمرر أصابعه على الألواح حتى لامس المفتاح، قبض عليه بقوةٍ حتى كاد يخترق راحة يده صانعًا كدمةً غائرة ستبقى خمسة أيام، سينساها في خضمّ اعتقاله بعد ذلك.. ثم دسّ المفتاح بعناية في جيبه،

خارج الباب، كان وولف يلهث بأنفاسٍ ساخنةٍ متوترةٍ متتابعة.

همس جاك عبر الباب

"هل أنت غاضب منى يا وولف؟"

ضُرب الباب بقبضةٍ قوية.

"ليس! ليس غاضبًا! وولف!"

قال جاك

"حسنًا. تذكّر، لا تقترب من الناس يا وولف.. وإلا سيطاردونك حتى يقتلوك."

جاءه الصوت المتهدّج

"لا أناس... آآآآووووووه!"

تحوّل آخر لفظٍ إلى عواءٍ طويلٍ سائلٍ يمتد في الهواء..
ارتطم جسده بالباب، وانزلقت قدماه الطويلتان المغطّاتان بالفراء الأسود تحت الفتحة السفلية للباب.

أدرك جاك أنّ وولف قد التصق بالباب تمامًا...

همس وولف، وكأن العواء أحرجه

"ليس غاضبًا يا جاك. وولف ليس غاضبً.ا. وولف... مشتاق، جاكي. إنه قريب جدًا الآن، قريب لدرجة اللعنة."

قال جاك بصوتٍ متهدّج وقد غمرته رغبة في البكاء..

"أعلم."

تمنى لو استطاع أن يعانقه، وتمنى أكثر لو أنهما بقيا بضعة أيامٍ إضافية في المزرعة، وأنه يقف الآن خارج قبوٍ أرضيٍ وولف فيه سجينٌ بأمان.

وعاوده خاطرٌ غريب ومزعج.. (أن وولف في الحقيقة هو السجين الآمن.)

انزلقت قدما وولف من تحت الباب، ورأى جاك أو ظنّ أنه رأى تماسكهما وتقلّصهما، كأنهما تكتسبان شكلًا أكثر دقّة وحدة.

أصدر وولف أنينًا، ثم لهاثًا، ثم أنينًا آخر، وقد ابتعد عن الباب..

ثم أطلق صوتًا يشبه الـ «آه».

نادى جاك

"وولف؟"

وفجأة دوّى عواءٌ مزلزل من فوق رأسه لقد صعد وولف إلى قمة المنحدر.

صاح جاك بخوف

"كن حذرًا"

مدركًا أنّ وولف لن يسمعه، ولو سمعه لما فهمه...

تتابع العواء بعد برهة لا يدري جاك أهي صرخة مخلوقٍ تحتضر أخيرًا، أم أنينُ كائنٍ استيقظ ليجد نفسه ما زال أسيرًا..

كان عواء حزين ووحشي وجميل بغرابة، يرتفع إلى ضوء القمر كأوشحةٍ تُقذف في ظلمة الليل.

لم يُدرك جاك أنه يرتجف إلا حين طوّق نفسه بذراعيه، وشعر باهتزاز ذراعيه فوق صدره المرتعش بدوره..

ثم أخذ العواء يبتعد شيئًا فشيئًا..

حيث صار وولف يجري رفقة القمر...

10

على مدى ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ، انهمك وولف في بحثٍ لا يعرف الكلل عن الطعام.. ينام مع بزوغ الفجر حتى ما بعد الظهيرة بقليل، في تجويفٍ وجده تحت جذع بلوطٍ ساقطٍ كأنه ملاذٌ خُصّ له وحده.. لم يشعر بالقيود، رغم ما ألقاه جاك في نفسه من نذرٍ بالخطر.. فالغابة الممتدة خلف الحقل كانت عالمًا فسيحًا، يعجّ بما يبهج غريزة الذئب ويشبع نهمه.. فئران، أرانب، قطط، كلاب، سناجب... كان يجدها جميعًا بيسرٍ وكأنه خُلِقَ صيادًا،

استطاع المكوث هناك مكتفيًا بما تيسّر، حتى يحين موعد تحوّله التالي..

وسار وولف في ركاب القمر، يمتطي نوره كما يمتطي قدره، ولا يملك أن يوقف رحلته أكثر مما يملك أن يوقف تحوّله.. أخذ يتجول، يقوده ضوء القمر عبر الحقول والحظائر والمراعي، مارًّا بمنازل نائية وطرقٍ لم تكتمل بعد، حيث تصطفّ الجرافات والآلات الضخمة على الضفاف كديناصوراتٍ تستريح من تعب العصور الغابرة...

شغلت حاسة شمه نصفَ عقله وربما أكثر... وقد بلغت في تلك الليالي حدّ العبقرية.

لم يكن يشمّ حظيرة دجاجٍ على بُعد خمسة أميال فحسب، بل كان يميّز حركتهم بين أنفاس الليل، يعرف أن خنزيرًا نائمًا

قد أصيب في قدمه، وأن بقرةً في إسطبلٍ بعيد تعاني من ضرعٍ متقرّح.

وهذا العالم استحال لقمزُه قمزُه هو... لم يعد يحمل رائحة الكيماويات والموت، بل تنفّس في وجهه نسيمَ الحياة القديمة، كأن الأرض استعادت شيئًا من صفائها الأول.. استنشق ما تبقّى من حلاوة التربة الأولى وقوّتها، بقايا ما كنّا نتقاسمه يومًا مع أراضي الأسطورة.. وحتى حين يقترب من بيتٍ بشري، ويمزّق كلب العائلة إلى أشلاءٍ غليظةٍ يبتلعها دفعةً واحدة، كان يشعر بصفاء الجداول الباردة تحت الأرض، وبثلوجٍ تبرق فوق جبلٍ بعيدٍ نحو الغرب.. بدا هذا العالم له مثاليًا لمخلوقٍ متحوّلٍ مثله.. ولو قتل إنسانًا واحدًا، لكان قد لُعن إلى الأبد.

لكنه لم يقتل بشرًا.

ولعله لم يفعل لأنه لم يرَ أحدًا منهم.

خلال أيام تحوّله الثلاثة، أباد وولف معظم ما وجده من حياةٍ في شرق إنديانا.. ظربانًا كان، أو عائلة وشقٍ كاملة تعيش في كهوفٍ من الحجر الجيري على تلةٍ نائية، وفي ليلته الأولى اصطاد خفاشًا طائرًا منخفضًا، قضَم رأسه وابتلع جسده وهو لا يزال يرتجف.. أسراب القطط الأليفة، وفِرَق الكلاب، كلها صارت غذاءه. وفي نوبةٍ من النشوة الوحشية، ذبح ذات ليلة خنازير حظيرةٍ تمتد كحيٍّ سكنيٍّ كامل.

ومع ذلك، مرتان فقط امتنع بطريقةٍ غامضةٍ ومقدّسة عن أن يقتل فريسته.. لم يكن المنع أخلاقيًا، بل مكانيًا...

أحد الموضعين فسحةٌ في الغابة طارد فيها أرنبًا، والآخر فناءٌ خلفيٌ لمزرعةٍ يئنّ فيها كلبٌ مكبّلٌ إلى وتد. وما إن وطأت قدماه تلك الأرض حتى انتصبت أشعاره ومرّت قشعريرةٌ كهربائية على امتداد عموده الفقري.. كانت تلك أراضي مقدّسة، وفي الأرض المقدسة لا يريق الذئب دمًا.. ذلك كل شيء...

وككلّ المواضع التي اصطفاها الزمن، كانت قد كُرّست منذ دهورٍ سحيقة، حتى إن كلمة «قديم» تضيق عن وصفها.. أحسّ وولف حوله كثافةً زمنية، كأن آلاف السنين تراكمت وتراصّت في موضعٍ صغيرٍ مشحونٍ بطاقةٍ غامضة.

فتراجع عن الأرض المباركة ومضى في طريقه.

وكالكائنات المجنّحة التي رآها جاك، عاش وولف في حضن الغموض، فكان مطمئنًا إليه، مسلّمًا به كما يسلم القلب بنبضه.

لكن وولف لم ينسَ عهده لجاك سوير.

11

في الكوخ المغلق، وجد جاك نفسه وجهًا لوجه مع ذاته... متمعنًا في خواص عقله وطبيعة شخصه... بوضوحٍ لم يختبره من قبل في أيّ وقتٍ من حياته.

لم يكن في الكوخ سوى المقعد الخشبي الصغير، والمجلات القديمة التي تجاوز عمرها العقد، والتي بالكاد تصلح لإلهائه.. لم يكن يستطيع قراءتها فعلًا، فبغياب النوافذ، لم يكن الضوء يتسلّل إلى الداخل إلا في الصباح الباكر، من أسفل الباب، وعندها فقط تمكّن بصعوبة من تمييز الصور على الصفحات، أمّا الكلمات، فبدت له كدودٍ رماديّ يتلوّى في خطوط غامضة لا تُقرأ.. لم يستطع أن يتخيّل كيف سيقضي الأيام الثلاثة القادمة.

اقترب من المقعد، اصطدم به بركبته فشهق ألمًا، ثم جلس ليفكّر.

أول ما أدركه أن الزمن داخل الكوخ لا يشبه الزمن خارجه..

ففي خارج الكوخ، تمرّ الثواني سريعًا، تذوب في الدقائق التي تذوب في الساعات، وتتكامل الأيام والأسابيع في إيقاعٍ رتيب كنبض آلةٍ موسيقية.

أما في «زمن الكوخ»، فلقد أبت الثواني المضيّ قدمًا؛ تمدّدت حتى استحالت لثوانٍ مشوّهة، هائلة، متورّمة، كأنها كائنات مطاطية لا نهاية لها... في الخارج قد تمرّ ساعة كاملة،

بينما أربع أو خمس ثوانٍ داخل الكوخ تتورّم وتتعفّن في مكانها.

ثم أدرك جاك أمرًا آخر.. التفكير في بطء الوقت يجعله أبطأ.

فمجرّد أن تركّز في مرور الثواني، تكاد تتجمّد تمامًا.

لذا راح يخطو في أرجاء الكوخ، يقيس أبعاده ليشغل ذهنه عن الأبدية الصغيرة التي عليه أن يعبرها خلال ثلاثة أيام.

وأثناء عد خطواته، توصّل إلى أن الكوخ يبلغ نحو سبعة أقدام طولًا وتسعة عرضًا.. مساحة تكفي بالكاد لأن يتمدّد ليلاً.

إذا دار دورة كاملة حول الداخل، فقد يقطع نحو اثنين وثلاثين قدمًا.

وإن سار في هذه الدائرة مئة وخمسًا وستين مرة، فإنه يكون قد مشى ميلًا كاملًا.

ربما لم يكن قادرًا على الأكل، لكنه بالتأكيد قادرٌ على المشي.

خلع ساعته ووضعها في جيبه، متعهدًا ألا ينظر إليها إلا حين يضطرّ لذلك.

بلغ ربع ميلٍ تقريبًا حين تذكّر أنه لا ماء في الكوخ.

لا طعام، ولا ماء.

خطر له أن الموت عطشًا يستغرق أكثر من ثلاثة أو أربعة

أيام، فطالما أن وولف سيعود لأجله، فسيكون بخير.. أو على الأقل حيًا.

لكن ماذا لو لم يعد وولف؟

حينها سيتعيّن عليه أن يحطّم الباب.

فكّر في الأمر لحظة، ثم قال لنفسه "من الأفضل أن أحاول الآن، ما دمت أملك بعض القوة."

تقدّم نحو الباب ودفعه بكلتا يديه.

ضغط أكثر، فأصدرت المفصلات صريرًا حادًا.

ثم أسند كتفه إلى حافته المقابلة للمفصلات وضربه بها فشعر بألمٍ حارق في كتفه، لكنه أيقن أن الباب لم يتحرّك قيد أنملة.

عاد واصطدم به بقوةٍ أكبر، فصرّت المفصلات مجددًا دون أن تتحرّك.

كان وولف قادرًا على اقتلاع الباب بيدٍ واحدة، أمّا جاك، فحتى لو حوّل كتفيه إلى لحمٍ مفروم، فلن يفلح في تحريكه.

لم يكن أمامه إلا الانتظار.

مع منتصف الليل، كان جاك قد مشى سبعة أو ثمانية أميال.. فقد عد المرات التي بلغ فيها المئة والخمسة والستين، وكانت سبعًا أو ثمانٍ تقريبًا.

كان عطشان حد الوجع، وجوفه يقرقر جوعًا.

فاحت رائحة البول في المكان، إذ اضطرّ أن يتبوّل عند الجدار البعيد، حيث يوجد صدعٌ بين الألواح يسمح لبعض البول بالتسرّب إلى الخارج.

جسده منهك، لكنه لم يقدر على النوم.

بحساب الساعة، لم يمضِ سوى خمس ساعاتٍ منذ أغلق عليه الباب؛ أمّا في «زمن الكوخ»، فكانت أشبه بأربعٍ وعشرين ساعة.

خاف أن يستلقي.

لم يكن ذهنه يسمح له بالراحة.. بل طارده.

حاول أن يصرف أفكاره بتعداد الكتب التي قرأها العام الماضي، أو أسماء أساتذته، أو لاعبي فريق لوس أنجلوس دودجرز... لكن الصور الغريبة، المربكة، راحت تتسلّل إليه بلا استئذان.

رأى مورغان سلوت يشق ثقبًا في الهواء، ووجه وولف يغوص تحت الماء، ويداه تهبطان ببطءٍ ثقيل بين الأعشاب.

جيري بليدسو يتشنّج أمام لوحة الكهرباء، وعدسات نظارته تنزلق فوق أنفه.

عينان تتحولان إلى صفارٍ غريب، ويدٌ تُقصِر لتصير مخلبًا.

أسنان العم تومي الصناعية تتلألأ في مجرى قذر على شارع الغروب.

مورغان سلوت يقترب من أمه، لا منه هو.

كان جاك يتمتم وهو يسير في الظلام، ويدور في حلقات جديدة..

«أغنيات فاتس والر(36)... ...Your Feets Too Big Ain't Misbehavin'... Jitterbug Waltz... Keepin' Out of Mischief Now...»

لكن صورة «إلروي» كانت تمتدّ نحو أمّه، تهمس بخبث، وتضع يدًا على خاصرتها.

فانتقل جاك ليعدّ أسماء دول أمريكا الوسطى «نيكاراغوا، هندوراس، غواتيمالا، كوستاريكا...»

وحين أنهكه التعب أخيرًا اضطر أن يتمدّد أرضًا، متكوّرًا على نفسه، مستخدمًا حقيبته كوسادة...

ظلّت الوجوه تقتحم رأسه... إلروي، مورغان سلوت، أوزموند بجلده وسوطه، وولف الذي نهض ضخمًا، لا بشريًا، يتلقى رصاصة في قلبه مباشرة.

أيقظه أول ضوءٍ للصباح، ومعه رائحة الدم.

جسده كلّه يتوسّل الماء، ثم الطعام.

أنّ جاك في وجعٍ مكتوم... ثلاثة ليالٍ أخرى كهذه ستكون مستحيلة.

زاوية الضوء المنخفضة سمحت له برؤية الجدران والسقف

خافتين؛ بدا الكوخ أوسع مما أحسّه ليلًا.

أحسّ بحاجةٍ إلى التبوّل مجددًا، رغم أنه لم يصدّق أن جسده لا يزال قادرًا على التفريط في أي قطرة.

حينها أدرك أن الكوخ بدا أوسع لأنه كان مستلقيًا على الأرض.

ثم تسللت رائحة الدم لأنفه من جديد.. التفت نحو الباب، فرأى فخذين مسلوخين لأرنبٍ صغير تم دفعهما عبر الفتحة أسفل الباب.

كانا ممدّدين على الألواح الخشنة، يقطران دمًا، يلمعان في العتمة.

وآثار الطين والخدوش الطويلة تدلّ على أنهما أُقحما عبرها.

لقد حاول وولف أن يطعمه.

تأوه جاك

"يا إلهي..."

حملت ساقا الأرنب العاريتان شبهًا مزعجًا بالبشر. انكمش جوفه، لكن بدل أن يتقيأ، انفجر ضاحكًا من عبث المقارنة.

كان وولف، ببساطة، مثل كلب العائلة الذي يقدّم كل صباح لمالكيه طائرًا ميتًا أو فأرًا ممزقًا.

تناول جاك «الهدية» بأطراف أصابعه، بحذرٍ كمن يلمس

شيئًا مقدّسًا، ووضعها تحت المقعد.

لا يزال يضحك قليلًا، لكن عينيه امتلأتا دموعًا.

لقد نجا وولف من ليلته الأولى، ونجا هو أيضًا.

في صباح اليوم التالي، وجد جاك كتلة لحمٍ غامضة الشكل، بيضاوية تقريبًا، تتدلّى منها شظايا عظمٍ أبيض لامع، مكسورٍ من الطرفين.

12

في صباح اليوم الرابع، سمع جاك حركة انزلاقٍ في المجرى القريب من الكوخ. صرخت طيورٌ متفاجئة، ثم خفقت أجنحتها بعنف وهي تُقلع من على السقف.. خطواتٌ ثقيلة متتابعة تقترب من الباب.. رفع جاك جسده على مرفقيه وحدّق في الظلام بعينين متعبتين.

اصطدم جسدٌ ضخم بالباب واستقرّ هناك، ومن خلال الفتحة السفلية الضيقة، لمحت عيناه زوجًا من الأحذية الجلدية القديمة الممزقة والمبقّعة.

قال جاك بصوتٍ خافت

"وولف؟ أنت وولف، أليس كذلك؟"

فجاءه صوتٌ مبحوح هادئ

"ناولني المفتاح يا جاك."

مدّ جاك يده إلى جيبه، أخرج المفتاح، ودفعه عبر الفتحة بين الحذائين، ظهرت يدٌ بنية كبيرة، التقطت المفتاح وسحبته إلى الخارج.

قال جاك، بصوتٍ مبحوح من العطش

"هل جلبت ماءً؟"

فعلى الرغم من محاولاته الاستفادة من «هدايا» وولف السابقة، أوشك جسده على الجفاف، شفتاه متورمتان

ومتشققتان، ولسانه متيبّس كقطعة جلدٍ محترق.

انزلق المفتاح في القفل، وسمع جاك طقطقة الانفتاح، ثم أُزيل القفل عن الباب.

قال وولف

"قليل فقط.. أغمض عينيك يا جاكي... فعيونك لأيام اعتادت على الظلام."

ضغط جاك راحتيه على عينيه بينما يُفتح الباب، لكن الضوء المتفجّر اندفع إلى الداخل كصاعقة، وتسرّب بين أصابعه ليطعن عينيه كإبرٍ من نار.

شهق من هول الألم.

قال وولف بصوتٍ قريبٍ منه جدًا..

"سيزول بعد قليل."

ثم أحاطه بذراعيه ورفعه عن الأرض بسهولة،

قال محذرًا..

"أبقِ عينيك مغلقتين."

وخطى إلى الوراء خارج الكوخ.

قال جاك وهو يلهث

"ماء..."

وشعر بحافة كأسٍ صدئة تلامس شفتيه.

منذ تلك اللحظة، أدرك السبب الذي جعل وولف لا يمكث في الداخل.

الهواء في الخارج بدا نقيًا على نحوٍ لا يُصدّق، عذبًا كأنه قادم من العوالم الأخرى...

ارتشف جرعة صغيرة من الماء، لكنها كانت أشهى ما ذاقه في حياته.. سرت داخله كجدولٍ صافٍ ينعش كل خليةٍ عطشى، حتى خُيّل إليه أنه يُروى من الداخل.

نزع وولف الكوب من بين شفتيه قبل أن يرتوي تمامًا.

قال بلطفٍ حازم..

"لو أعطيتك أكثر، ستتقيأه. افتح عينيك الآن يا جاك، لكن قليلًا فقط."

أطاعه جاك،

اندفعت ملايين الذرات من الضوء إلى عينيه دفعةً واحدة، فصرخ متألمًا.

جلس وولف على الأرض وهو يحتضنه بين ذراعيه.

مشجعًا..

"خذ رشفة صغيرة... هكذا، والآن افتح عينيك أكثر قليلًا."

رفع جاك جفنيه بحذر.

لم يعد الضوء يؤلمه كما في البداية، من خلال ستار رموشه،

لمح الوهج يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى ألوانٍ مألوفة

البني الباهت لجدران الكوخ، والخضرة الممتزجة بالتراب في المجرى حوله،

مستندًا برأسه على كتف وولف، وبطن وولف الضخم يضغط على ظهره.

سأل جاك بهوان

"هل أنت بخير يا وولف؟ أكلت كفايتك؟"

أجابه وولف ببساطة

"الذئاب دائمًا تأكل كفايتها."

ثم ربّت على فخذ الصبي في حنان.

قال جاك

"شكرًا لأنك أحضرت لي تلك القطع من اللحم."

فابتسم وولف ابتسامة صغيرة وقال

"وعدتك.. كنت القطيع، أتذكُر؟"

رد جاك مبتسمًا بخفوت

"أجل، أذكر... هل يمكنني أن أشرب المزيد من الماء؟"

انزلَق من على فخذ وولف وجلس قبالته على الأرض.

ثم ناولَه وولف الكوب.

كانت نظارات «جون لينون» قد عادت إلى مكانها، ولحيته لم تعد إلا طبقة خفيفة خشنة على وجنتيه، أما شعره الأسود الطويل فقد تقلّص حتى صار بالكاد يلامس كتفيه.

وجهه بدا وديعًا، مسالمًا، وفيه شيء من الإرهاق.

فوق بذلة العمل الزرقاء ارتدى سترة رمادية صغيرة الحجم كُتب على صدرها

"القسم الرياضي بجامعة إنديانا"

للمرة الأولى منذ التقيا، بدا وولف أقرب إلى إنسانٍ عادي.

لم يكن يبدو كمن يمكنه النجاح في أبسط دروس الجامعة، لكنه حتمًا كان سيصبح لاعب كرة قدمٍ ممتازًا في المدرسة الثانوية.

ارتشف جاك من الماء ببطء، فيما ظلّت يد وولف معلّقة فوق الكوب، مستعدة لخطفه لو حاول الشرب بسرعة.

سأله جاك

"أأنت بخير حقًا؟"

فأجابه وولف

"الآن، وفي هذه اللحظة فقط."

ثم مرّر كفه على بطنه المنتفخ الذي شدّ قماش القميص كالجلدِ الذي يُشد على الدف.

"قليل من النوم يا جاك... هذا كل ما أحتاجه."

سأله جاك وهو يتأمل القميص

"من أين حصلت على هذه السترة؟"

أجاب وولف ببساطة

"كانت معلّقة على حبل غسيل... الجو بارد هنا يا جاكي."

قال جاك، والقلق يطلّ من صوته..

"أرجوك، قل إنك لم تؤذِ أحدًا."

ابتسم وولف بعينيه وقال بصدقٍ طفولي

"لا ناس.. وولف لا يؤذي الناس.. اشرب ببطء الآن."

وفي تلك اللحظة، تلألأت عيناه بلونٍ برتقاليّ غريب، كعيني مخلوقٍ في ليلة عيد الهالوين، فتذكّر جاك أن وولف مهما بدا بشريًا لن يكون بشرًا كاملاً...

ثم تثاءب وولف بفمٍ عريض، مردفًا

"قليل من النوم..."

حرّك جسده الضخم ليجد وضعًا مريحًا على السفح، وأسند رأسه، وما لبث أن غفا في الحال.

---

(1) سلالة صغيرة وقوية من الخيول نشأت في جزر شتلاند باسكتلندا

(2) في النص الأصلي الرائحة بودرية وهي تعطي شعورًا جافًا ونشويًا في حاسة الشم لذا ترجمتها من خلال تأثيرها على جاك

(3) My son's kilt' أصل الجملة وهي تعني تنورة ابني الاسكتلندية أو القابلة للطي

(4) مصدر طاقة غير منقطع وهو جهاز يحمي البيانات من الضياع إذا ما حدث انقطاع في التيار الكهربائي أو تغيرات مفاجأة في الجهد الكهربي

(5) المصطلح الإنجليزي FusshhingFEEEFF! وإذا حذفنا الحروف المكررة نتج تعبيرًا يدل على الانزعاج والاستياء وقصدت أن أتركها كما هي معربة ودون أن أكتب على سبيل المثال (صاح الرجل بانزعاج) لعكس صدمة جاك وإنعدام تمييزه لما يُقال ويحدث.

(6) اسم ممثل أمريكي شهير، اشتهر بدوره في فيلم "كل رجال الملك" وحصل على جائزة الأوسكار سنة 1949م عن وره فيه ولعب أيضًا الدور الرئيسي في المسلسل التليفزيوني "الطرق السريعة"

(7) شركة أمريكية لإنتاج البيرة أنشأت في عام 1876م

(8) نباتات لاحمة (آكلة للحوم) تتميز بأوراقها التي تتخذ شكل أباريق أو أنابيب، وتعمل كمصائد لجذب الحشرات والفرائس الأخرى...

(9) نوع من منظفات المراحيض

(10) ممثل أمريكي شهير لمع في أفلام الويسترون

(11) نوع من الجيتارات الكهربائية الأرضية التي تُستخدم فيها دواسات ورافعات ركبة لتغيير نغمة الأوتار أثناء العزف.

(12) نباتات لاحمة موطنها الأصلي الأراضي الرطبة في ولايتي كارولاينا الشمالية والجنوبية بالولايات المتحدة. وهي من أشهر النباتات اللاحمة بفضل آليتها الفريدة في اصطياد الحشرات والفرائس الصغيرة الأخرى وهضمها.

(13) سلسلة متاجر خصومات تقع في شرق الولايات المتحدة (نيو انجلاند)

(14) لعبة ممرات تُشغّل بقطع النقود، حيث يحاول اللاعبون تسجيل أكبر عدد ممكن من النقاط عن طريق توجيه كرة معدنية باستخدام قاذف الزعانف على لوح مائل. ترتد الكرة عن عوائق مختلفة على اللوح، وتصطدم بأهداف وتسجل نقاطًا، مع تجنب سقوط الكرة في المصرف.

(15) بلدة صغيرة أسسها مستوطنون ألمان وشميت على اسم عائلتهم.

(16) حيوان القارض الصغير المخطط الذي يُعرف أيضاً باسم الضّيذَن أو السنجاب المخطط.

(17) علامة تجارية للأحذية تشتهر بإنتاج أحذية غربية (كاوبوي) وعصرية.

(18) ألبوم جاز صدر عام 1955 من تأليف عازف الساكسفون دكستر جوردون.

(19) حيوان يحيى في المناطق النائية والباردة كشمال أوربا وألاسكا وهو آكل للحوم وشره لا يشبع يطلقون عليه (وولفرين)

(20) نسبة إلى قصة السنجاب الصغير الذي يعتقد أصدقائه أنه سارق الجوز. وهي حكاية صدرت عام 1911

(21) من النباتات المزهرة. تُستخدم في المقام الأول كعامل مرارة ونكهة وثبات في البيرة ، والتي تُضفي عليها بالإضافة إلى المرارة نكهات وروائح زهرية أو فاكهية أو حمضية.

(22) نموذج فني ثلاثي الأبعاد يعكس مشهدًا بواقعية

(23) Sugarhill Gang فرقة هيب هوب أمريكية تأسست في نيوجيرسي عام 1979. اكتسبت الفرقة شهرة واسعة من خلال أغنيتها الأولى "Rapper's Delight"، وهي أول أغنية راب منفردة تصل إلى قوائم أفضل 40 أغنية على قائمة بيلبورد.

(24) المتاجر التي تعمل على مدار الساعة

(25) شخصية كارتونية

(26) سيناريو مكرر (معتاد)

(27) واحدة من أعظم خمس بحيرات في أمريكا الشمالية.

(28) شركة شحن أمريكية تشتهر بشاحناتها البنية لتوصيل الطرود.

(29)كلمة يابانية الأصل يستخدمها الامريكان للتعبير عن الأفعال الجريئة والمتهورة أو كصرخة للنصر.

(30) هو سائق العربة التي تجرها الخيول (سائق العربة المحملة بالنبيذ التي انقلبت على الطريق ومات ابنه وحين وصل إليه جاك والقائد فيرن وجدوا جيوبه منهوبة)

(31) بلدة صغيرة تقع في مقاطعة دارك بولاية أوهايو ذات طابع ريفي وتشتهر بمدارسها الحكومية.

(32) هو فيلم خيال علمي أمريكي كلاسيكي صدر عام 1977 من إخراج ستيفن سبيلبرغ، يروي قصة عامل بسيط في إنديانا يبدأ في الهوس بعد مشاهدة جسم غامض طائر في السماء. يجد نفسه في رحلة مع آخرين ممن يشاركونه نفس الاهتمام، مما يقودهم إلى لقاء مباشر مع حضارة فضائية.

(33) هي تقنية صوت محيطي متقدمة تُضيف بُعدًا عموديًا إلى تجربة الاستماع، مما يسمح بسماع الصوت من جميع الاتجاهات، بما في ذلك من الأعلى.

(34) قرية صغيرة في مقاطعة بيري وتقع في سفوح جبال الأبلاش، مع أراضٍ زراعية وغابات محيطة.

(35) اسم لرواية أطفال كلاسيكية ومسلسل رسوم متحركة بريطاني شهير، مستوحى من الرواية، يعود تاريخ بثه في الثمانينيات. تدور القصة حول مغامرات أربعة حيوانات ذكور مؤنسنة تعيش في الريف الإنجليزي: الجرذ والخلد والغرير والضفدع.

(36) المولود عام1904 في 1 مايو باسم توماس رايت والر، كان عازفًا لموسيقى الجاز على البيانو وعازفًا للأرغن ومؤلفًا ومطربًا وفنانًا كوميديًا، وما يلي اسمه بعضًا من أغنياته والتي آثرت تركها بلغتها الأصلية وهي الإنجليزية دون تعريب.